المحور السابع

فقه الأمة ودعوتها وصحوتها وحركتها الإسلاميَّة

غير مرخصة للطباعة

١١٤

أمتنا بين قرنين

الإمام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

من الدستور الإلهي للبشرية

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى
وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۞ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ
قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

[آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤٠].

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

٥

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يبعثُ لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سنةٍ من يُجدِّد لها دينها**». رواه أبو داود.

عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يوشكُ أن تَداعى عليكم الأممُ من كلِّ أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها**». قال: قلنا: يا رسول الله، أمِنْ قلَّة بنا يومئذ؟ قال: «**أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، تُنتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويُجْعَلُ في قلوبكم الوهن**». قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: «**حبُّ الحياة وكراهية الموت**». رواه أحمد وأبو داود.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ عشرين سنة كان لنا وقفة في مطلع القرن الخامس عشر الهجري، اعتبرتها في حينها وقفة «الحساب الختامي» للقرن بما لنا وما علينا، وهي وقفة طبيعيَّة على رأس قرن، هو قرننا نحن أُمَّة الإسلام؛ إذ هو يؤرِّخ لرسالتنا ومسيرتنا وحضارتنا، منذ أَسَّس رسول الإسلام محمَّد ﷺ أوَّل مجتمع مسلم وأول دولة إسلاميَّة بالمدينة.

واليوم نقف وقفة أخرى في مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي، وهو يتميَّز بأنَّه بداية الألف الثالث لميلاد المسيح عليه السلام.

المسلمون والقرن الميلادي:

وهذا القرن ـ وإن لم يكن في الأصل قرن المسلمين ـ لا يسعُنا نحن المسلمين أنْ نتجاهله، والعالَم كلُّه من حولنا يهتمُّ به ويتحدَّث عنه، ونحن جزء من هذا العالم، الَّذي تقارب وتقارب حتَّى أصبح اليوم ـ كما قيل ـ قرية كبرى. بل قلت: إنَّه أصبح اليوم قرية صغرى بعد ثورة الاتِّصالات؛ فإنَّ القرية الكبرى قد لا يعلم النَّاس في شرقها ما يحدث في غربها إلَّا بعد يوم أو أكثر، على حين نحن نعلم اليوم ما يحدث في العالم بعد لحظات، وقد نتابع الحدث في أثناء حدوثه لحظة بلحظة.

QaradawiBooks.com

على أنَّنا نحن المسلمين لا نقف موقفًا متشنِّجًا من ميلاد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقرآننا الكريم قد احتفى بهذا الميلاد، وأفرد له جزءًا بارزًا من سورة سُمِّيت باسم أمِّ المسيح (مريم) عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وذلك لِمَا صحب هذا الميلاد من خوارق لم تكن لغيره. حتَّى إنَّ القرآن ذكر معجزة لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تذكرها الأناجيل ولا المصادر المسيحيَّة، وهي: كلامه في المهد صبيًّا.

ولكنَّ الإسلام يحرص في تربية أُمَّته وتوجيهها على أنْ تكون متميِّزة بشخصيتها المستقلَّة المتفرِّدة جوهرًا ومظهرًا، تتسامح مع الآخرين، ولكن لا تذوب فيهم.

والإسلام يؤمن بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبأنَّ ميلاده كان آية من آيات الله، ولكنَّه لا يتَّخذُه عيدًا؛ فإنَّ لكل أُمَّة أعيادها، الَّتي ترتبط بهُويَّتها وتاريخها. وللمسلمين عيداهم: عيد الفطر وعيد الأضحى، وليس عيد الميلاد.

كما أنَّ المسيحيِّين للأسف يرتكبون باسم المسيح في ميلاده ما لا يقبله هو ولا أُمُّه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وما يبرأ منه رسلُ الله جميعًا.

على كلِّ حالٍ، فنحن نتحدَّث عن القرن الجديد باعتباره حدثًا عالميًّا مهمًّا، فلا حرج علينا أنْ نهتمَّ به، كما اهتمَّ المسلمون في العهد المكي بالحرب الدائرة بين فارس والروم، وحزنهم لهزيمة الروم، وهم نصارى أهل كتاب، أمام الفرس، وهم مجوس يعبدون النار، ونزول قرآن يُتلى في ذلك، وهو أوائل سورة الروم ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ ـ ٥].

QaradawiBooks.com

ولعلَّ حديثنا عن هذا القرن الجديد، أو عن «الألفيَّة الثالثة» كما عبَّروا عنها، يُقرِّب ما بين أتباع المسـيح وأتباع محمَّد ﷺ، ويُطفئ تلك النار الَّتي أجَّجتها الحروب الصليبيَّة، ولم تزل مشـتعلة فـي نفوس كثير من الغربيِّين إلى اليوم. حتَّى وجدنا المسيحيِّين تقاربوا مع اليهود، وأصدروا وثيقــة تُبرِّئهم من دم المسـيح، وهم لا يعترفون بالمسيح ولا بإنجيله ولا بأُمِّه. والمسلمون لا يصحُّ إسلامهم، ولا ينعقد إيمانهم ما لم يؤمنوا بالمسيح وبكتابه. ومع هذا لم يقترب المسيحيُّون منهم إلى هذا المدى، بل رأينا الأمريكان ـ وهم مسـيحيُّون ـ يُرشِّـحون الإسلام عدوًّا جديدًا، يمثِّل الخطر المستقبلي الَّذي يُهدِّدهم، بعد زوال خطر الاتِّحاد السوفييتي.

متى يبدأ القرن الجديد؟

أكتب هذه السطور، ولم يبقَ إلَّا شـهر واحد أو أقلُّ على مَقْدَم سنة (٢٠٠٠) للميلاد، بداية القرن الحادي والعشرين، أو الألفيَّة الثالثة، كما هو مشـهور ومتعالَم عند كثير من الناس، وكما تعلـن عنه وتهلِّل له أجهزة الإعلام مقروءة ومسموعة ومرئيَّة.

بيد أنَّ الَّذي أومن به، ويؤمن به كثيرون غيري: أنَّ سنة (٢٠٠٠م) هي نهايــة القرن العشـرين، وأنَّ بداية القرن الحادي والعشـرين هي سـنة (٢٠٠١م)، وهذه بَدَهيَّة ما كان ينبغي الخلاف فيها؛ فإنَّ الإنسـان إذا بدأ قرنًا (أي ١٠٠ سـنة) فإنَّ هذا القرن لا ينتهي بسنة ٩٩ منه، بل بنهاية سنة ١٠٠ منه، ولا أحسـب أحدًا ينازع في هذا، ومثل ذلـك القرن التالي، لو بدأنا سنة ١٠١ لوجب علينا أن ننهي القرن سنة (٢٠٠) لا سنة (١٩٩).

وهذه قضيَّة قـد حدث الخلاف في شـأنها عندما اسـتقبلنا ـ نحن المسلمين ـ القرن الخامس عشر الهجري، وكان بعض النَّاس قد حسبوا

QaradawiBooks.com

أنَّ القرن يبدأ سنة (١٤٠٠هـ)، ثمَّ انتهى الرأي إلى أنَّه يبدأ بيقين سنة (١٤٠١هـ)، وقد كانت بداية الاحتفالات بهذا القرن هو إقامة المؤتمر العالمي للسُّنَّة والسيرة النبويَّة بدولة قطر.

ربَّما كان تغيير التاريخ من (١٩٠٠) إلى (٢٠٠٠)، وعقدة الكمبيوتر في ذلك، ومحاولة التغلب عليها، لها تأثيرها العقلي والنفسي في النظر إلى أنَّ الألفيَّة سنة (٢٠٠٠) هي الفاصل، وليست (٢٠٠١).

على كلِّ حال، سواء كان مطلع القرن سنة (٢٠٠٠) أو (٢٠٠١) فالحديث عنه وعن الألفيَّة الثالثة مقبول في هذا الوقت، بل قد بدأ الحديث من قبل ذلك بسنوات.

وأريد أنْ أنبِّه هنا على مسألة مهمَّة تتَّصل بمَقْدَم هذا القرن، أو هذه الألفيَّة وما يتوقَّعه النَّاس من تغيُّر أو تطوُّر إلى الأمام أو إلى الخلف بهذه المناسبة الفاصلة.

هذه المسألة هي: هل الحياة ستتغيَّر في (٢٠٠٠/١/١م) عن الحياة في (١٩٩٩/١٢/٣١م) أو في (٢٠٠١/١/١م) عن الحياة في (٢٠٠٠/١٢/٣١م)؟ أعني هل يبيت النَّاس بشكلٍ، ويصبحون بشكل آخر؟ أو هل يتغيَّر تفكيرهم وسلوكهم ما بين عشيَّة وضحاها، لمجرَّد انتهاء قرن وحلول قرن آخر؟

لا شكَّ أنَّ النَّاس في يناير هم النَّاس في ديسمبر، والحياة في أوائل القرن الجديد هي الحياة في أواخر القرن المنصرم، والكون والحياة والإنسان لا تتغيَّر فجأة، لأنَّ قرنًا قد تولَّى، وآخر قد بدأ؛ فإنَّ كل شيء يمضي في طريقه وَفْق قوانين الكون، وسُنَن الخلق، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

QaradawiBooks.com

ولكن جرت أعراف النـــاس، وتعلَّقت أمانيهم من قديم: أن تحدث تغيُّرات وتطوُّرات، عقــب كلِّ قرن يذهب وآخر يجيء. ولا شــكَّ أنَّ هناك تغيُّرات تقع قبل انتهاء القرن، أو بعد بدء الآخر، فالحياة لا تزال تتجدَّد، والدين نفســه لا يزال يتجــدَّد، كلَّما جدَّ قــرن، وفي هذا جاء الحديث النبوي: «**إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سَـنَة من يُجدِّد لها دينها**»(١).

والمراد بتجديد الديــن هنا: تجديد الفهم لــه، والإيمان به، وإحياء الالتزام به والدعوة إليه.

وهذا يشير إلى أنَّ التغيير والتجديد أمر يُترقَّب كلَّما مضى قرن وأهلَّ آخر، وإن جاء ذلك أصلًا في القرن الهجري، ولكن قد يستفاد من المبدأ نفسه هنا.

دورنا في الألفيَّة الثانية:

وقد أثار بعض الباحثين المســلمين ســؤالًا عن دور المسلمين في «الألفيَّة الثانية» المنصرمة، وماذا كان لهم فيها من خلاق.

والواقع أنَّ النصف الأوَّل للألفيَّة الثانية، كان المسلمون فيه هم سادة العالم، وحضارتهم هي المُعلِّمة للدنيا، في حين كانت أوربا ترى النظافة من عمل الشيطان، وترى التطبُّب على أيدي الكهنة، وكان رجال الدين فيها عقبة في سبيل تقدُّم الدنيا، وهم مشغولون بإصدار قرارات الحرمان،

(١) رواه أبــو داود في الملاحــم (٤٢٩١)، والطبراني في الأوســط (٦٥٢٧)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٢٢/٤)، وســكت عنه ولكن نقل تصحيحه المناوي فــي فيض القدير (١٨٤٥)، فلعله سقط من المطبوع، وسكت عنه الذهبي. عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وبيع صكـوك الغفران. كانت تلك القرون الَّتي تُسـمَّى عندهم «القرون الوسطى» تمثِّل عصور التأخُّر والظلام.

عرف العالَم أسماء كبيرة لعلماء وفلاسـفة وأدباء وموجِّهين وحكَّام مسـلمين، حازوا شـهرة عالميَّة، وتركوا «بصماتهم» في الحياة الفكريَّة والأدبيَّة والدينيَّة والسياسيَّة.

أمثال البيروني والخوارزمي وابن الهيثم وأبي بكر الرازي والزهراوي في العلم، وأمثال ابن سينا وابن رشـد وابن طُفَيل في الفلسفة، وأمثال الغزالي وابن تيمية في الدِّين، وأمثال المتنبِّـي وأبي العلاء وأبي حيَّان وجـلال الدين الرُّومي في الأدب والشـعر، وأمثال نـور الدين محمود الشـهيد وصلاح الدين الأيوبي في السياسة والحُكم، وغير هؤلاء كثير. وأكثر منهم من لم يبلغوا مكانتهم وشـهرتهم مـن النوابغ والعباقرة في العلوم والآداب والفنون، وهم يُعَدُّون بالألوف وعشرات الألوف.

هكذا كُنَّا في النصف الأوَّل من الألف الثانية للميلاد.

على حين غدا النصف الثاني للألفيَّة الثانية يتحرَّك لحسـاب الغرب ونهضته وتطـوُّره، وانتقاله من الظـلام إلى النور، ومن السـكون إلى الحركة، ومن النوم إلى اليقظة، ومن الجمود إلى التحرر، ومن الرجعية إلى التقدُّم.

ولا ينكـر منصـف أنَّ الغرب إنَّمـا تحـرَّك وتطوَّر عندمـا احتكَّ بالمسلمين في الحرب والسـلم، في الحروب الصليبيَّة، وفي الأندلس، وفي صِقِلِّيَّة وغيرها من قنوات الاتِّصال، واسـتفاد الغرب من جامعات المسـلمين، وعلماء المسـلمين، وكتب المسـلمين، واقتبـس المنهج

QaradawiBooks.com

التجريبي الاستقرائي من حضارة المسلمين، وطفق الغرب ينهض ونحن نتعثَّر، ويصحو من نومه، ونحن نغُطُّ في سُبَاتٍ عميق، وينظر إلى الأمام، ونحن مشدودون إلى الخلف.

غير مرخصة للطباعة

هل لنا أمل في الألفيَّة الثالثة؟

ترى ماذا يكون دور المسلمين في الألفيَّة الثالثة الجديدة، أو على الأقل في القرن الجديد؟ أيكون لهم مكان تحت الشمس أم يظلُّون في ذيل القافلة كما هم اليوم؟ يستهلكون ولا يُنتجون، ويستوردون ولا يُبدعون، ويستقبلون ولا يُرسلون، ويُقَلِّدون ولا يُجَدِّدون!

أنا لست من المتشائمين، وقد علَّمنا التاريخ أنَّ الحضارة دورات، وأنَّ الدهر قُلَّب، ودوام الحال من المحال، وهذه هي سُنَّة «التداول» الكونيَّة الثابتة، الَّتي قرَّرها القرآن الكريم حين قال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقد كانت شعلة الحضارة في القديم لدى الشرق، أيام الحضارات الفرعونيَّة والفينيقيَّة والبابليَّة والفارسيَّة، ثمَّ انتقلت الشعلة إلى الغرب أيام حضارة اليونان والرومان، ثمَّ عادت إلى الشرق أيام الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة. فلمَّا ركد المسلمون وتخلَّفوا حين أساؤوا فهم دينهم وتطبيقه، هرولت الحضارة إلى الغرب، الَّذي يقود العالم اليوم، بل كاد الغرب يتجسَّد الآن في أمريكا، القطب الأعظم، بل القطب الأوحد في العالم، وهي تريد أن تفرض سيادتها الثقافيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة على العالَم تحت اسم «العولمة» وما هي إلَّا «الأمركة». وسُنَّة الله تعالى، ومنطق التاريخ: أنَّ الدورة الحضاريَّة القادمة لنا نحن المسلمين، حسبما يقتضيه

نسخة إهدائية

QaradawiBooks.com

«صراع الحضارات» الَّذي تحدَّث عنه الكاتب الأمريكي «صمويل هنتنجتون» وَفْق قانون «البقاء للأصلح» وليس للأقوى، فإنَّ «البقاء للأقوى» هو قانون الغابة، أمَّا البقاء للأصلح، فهو قانون الإنسان.

وقد كان الاتِّحاد السوفييتي قوَّة ضخمة، ويملك ترسانة هائلة من الأسلحة النوويَّة والتدميرية، وجيوشًا جرارة مدرَّبة مستعدة، ومع هذا لم تغن عنه هذه القوَّة العسكريَّة شيئًا، وانهار هذا البناء الكبير؛ لأنَّه أُسِّس على شفا جُرُفٍ هَارٍ، فانهار بأصحابه، والله لا يهدي القوم الظالمين.

إنَّ بقاء الأمم الكبيرة لا يدوم بقوَّة السلاح وحدها، فلا بدَّ من قوَّة معنويَّة وراء القوَّة المادِّيَّة. والقوَّة المعنويَّة لا تعني الدِّين وحده، كما يتصوَّر الكثيرون، الدِّين والإيمان في المقدِّمة، ولكن القوَّة المعنويَّة تشمل الأخلاق والفكر والمعرفة والمعاني الإنسانيَّة، وهذه كلُّها ضروريَّة للبقاء والتفوُّق، مع ضرورة القوَّة العسكريَّة، والقوَّة الاقتصاديَّة.

وإنَّ لدينا ـ نحن المسلمين ـ من المُبشِّرات الدينيَّة والدنيويَّة(١) ما يملؤنا ثقةً بالمستقبل، ويقينًا بغدٍ أفضل. ولا يعني ذلك أن ننام على آذاننا، ونتَّكل على هذه البشائر، بل يجب أن تُحفِّزنا هذه المُبشِّرات إلى العمل، والعمل الدؤوب، المبني على العلم والتخطيط، حتَّى نُحوِّل الأحلام إلى حقائق، والأمل إلى واقع مشهود. ومن جَدَّ وجَدَ، ومن زرع حصد، ومن سار على الدرب وصل، ولا يغيِّر الله ما بقومٍ حتَّى يغيِّروا ما بأنفسهم.

فإذا كان العالَم من حولنا قد أطالوا الحديث عن الألفيَّة الجديدة، فلا علينا أنْ نتجاوب معهم، وخصوصًا المسيحيِّين الَّذين يحكمون

(١) راجع كتابنا: المبشرات بانتصار الإسلام، من رسائل ترشيد الصحوة، نشر مكتبة وهبة، القاهرة.

QaradawiBooks.com

عالمنا اليوم، سواء بالقوَّة العسكريَّة أو بالقوَّة الاقتصاديَّة، أو بالقوَّة العلميَّة والمعرفيَّة.

ولنقفْ بهذه المناسبة وقفةَ مراجعةٍ ومحاسبة مع أنفسنا، لا لنجلدَ ذاتَنا، ونتحسَّرَ على ما ضيَّعنا، ونردِّد «لو» و«ليت» ترديد اليائسين المحزونين، ولننشدْ مع شاعرنا القديم:

وَلَيْسَ بِرَاجِعٍ مَا فَاتَ مِنِّي بـ «لَهْفَ» وَلَا بـ «لَيْت» ولا لوَ انِّي[1]!

والحديث الشريف يعلِّمنا أنَّ «لوا» تفتح عمل الشيطان[2].

إنَّما علينا ـ بعد أنْ نعرف إنجازات البشريَّة وإخفاقاتها في هذا القرن، وقد خصَّصنا لها الباب الأوَّل هنا ـ أنْ نقف وقفة التاجر الواعي ليعرف أرباحه من خسائره، ليستكثر من الأرباح، ويتفادى الخسائر. وكذلك يجب أنْ نقف أمام نجاحاتنا وإخفاقاتنا (وقد خصَّصنا لها البابين الثاني والثالث من هذه الدراسة)؛ لنستزيد من أسباب النجاح ونُعمِّقها ونُحسِن توظيفها، وندرس أسباب الإخفاق، ونجتهد في التغلُّب عليها وتفاديها في المستقبل، والقرآن يُعلِّمنا فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. أي: إنَّ تعاقُب الليل والنهار يعطي فرصة للاستدراك لمن أراد.

ثمَّ علينا أن نواجه التحدِّيات، الداخليَّة والخارجيَّة، المحليَّة والعالميَّة (وقد خصَّصنا لها الباب الرابع والأخير) ببصيرة نافذة، ووعيٍ عميق، وإيمانٍ صادق، وعزمٍ مصمِّم، وجهدٍ دؤوب، ولا سيَّما التحدِّيات

---

(١) ذكره ابن مالك ولم ينسبه في شرح تسهيل الفوائد (٣/٢٨٢)، تحقيق د. عبد الرحمٰن السيد ود. محمد بدوي المختون، نشر دار هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

(٢) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد (٨٧٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الكبرى؛ التحـدِّي الصهيوني، وتحـدِّي التجزئة والتفكيـك، وتحدِّي العولمة. وإذا توافر العلم والعزم والإيمان والعمل فإنَّ الله لا يضيع جهد العاملين، ولا أجر المصلحين.

وآخر دعوانا أنَّ الحمد لله ربِّ العالمين.

الفقير إلى عفو ربِّه

يوسف القرضاوي

الدوحة، رمضان ١٤٢٠هـ

ديسمبر ١٩٩٩م

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِي

إنجازات البشريَّة وإخفاقاتها في القرن العشرين

• قرن الإنجازات العلميَّة الكبرى.

• قرن الحقوق والحريَّات.

• قرن انهيار القيم.

• قرن الحروب والدماء.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

قرن الإنجازات العلميَّة الكبرى

حقَّقت البشريَّة من المنجزات العلميَّة والعمليَّة في هذا القرن ـ وفي النصف الأخير منه خاصَّة ـ ما لم تحقِّق عشر معشاره، بل ولا واحدًا في الألف (٠,٠٠١٪) منه، خلال القرون الماضية كلِّها؛ فقد وثبت في هذا القرن العشرين وَثَباتٍ جبَّارة في دنيا العلم والتكنولوجيا، على كلِّ المستويات المدنيَّة والعسكريَّة والطِّبِّيَّة وغيرها، وحقَّقت إنجازات كان النَّاس يحسبونها من المستحيلات.

لقد حاول الإنسان قديمًا أنْ يجرِّب الطيران إلى أعلى، كما صنع عبَّاس بن فِرْناس في الحضارة الإسلاميَّة، ولكنَّ تجربته باءت بالفشل، ولم تكتمل، ولكن الإنسان في هذا العصر صنع الطائرة، واستطاع أنْ يُحَلِّق بها في الجوِّ منذ سنة ١٩٠٣م.

بدأت الطائرة في أوَّل أمرها صغيرة بسيطة، ثمَّ لم يزل الإنسان يُطَوِّرها ويُحَسِّنها؛ حتَّى وصل إلى المحرِّك النفَّاث، وما زال يُطَوِّرها في حجمها وسَعَتها وسرعتها، حتَّى وصل إلى «الكونكورد».

ولم يكتف الإنسان بذلك، بل اخترع الأقمار الصناعيَّة الَّتي يطلقها في الفضاء بواسطة الصواريخ ذات القدرة الفائقة، وكان أوَّل قمر أطلق في الفضاء هو القمر الروسي الَّذي كان عليه أوَّل رجل فضاء، وهو «جاجارين».

QaradawiBooks.com

ثم سابق الأمريكان الروس في هذا الميدان، فسبقوهم، وصنعوا سفن الفضاء، ومنها السفينة الَّتي أقلَّت أوَّل إنسان لينزل على سطح القمر، ويجلب منه بعض الصخور والأتربة، وذلك في صيف سنة ١٩٦٩م.

وتطوَّرت سفن الفضاء، فبعضها حمل عدَّة رجال، بل بعض النساء، وبعضها دار حول الأرض مددًا طويلة.

وحاول العلم أنْ يلحم مركبة فضائيَّة بأخرى في الفضاء، وأنْ يصلح ما فيها من خلل، ونجح في ذلك.

ويريد العلم أنْ يصل إلى الكواكب الأبعد مسافة من القمر، وقد أنزل سفينته على الكوكب الأحمر، المريخ، إلى غير ذلك ممَّا يدخل تحت اسم «غزو الفضاء».

ولا يزال الإنسان يطمع في المزيد، والمنهوم بالعلم لا يشبع، كالمنهوم بالمال.

ويا عجبًا كيف تطوَّرت مراكب الإنسان من الحمار والجمل، من سفينة الصحراء إلى سفينة الفضاء! وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في عبارة معجزة حين حدَّثنا عن نعمته تعالى بتهيئته وسائل النقل القديمة، فقال: ﴿ **وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةً** ﴾ ثمَّ قال: ﴿**وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٨].

ومن الإنجازات المهمة: اختراع المذياع الَّذي أدهش النَّاس عند ظهوره، كيف يسمع النَّاس صوت إنسان بينه وبينه بحار وجبال ووديان وصحاري، وآلاف الأميال!

QaradawiBooks.com

ثم ازدادت دهشتهم باختراع «التلفاز» الَّذي يسمعون فيه الصوت ويرون فيه الصورة معًا، وقد كان في أوَّل أمره أبيض وأسود، ثمَّ تطور إلى أنْ يظهر بالألوان، ثمَّ دخل العالم عصر القنوات الفضائيَّة.

وكذلك تطوَّرت الهواتف (التليفونات) في هذا القرن، فلم تعد بأسلاك، كما كانت من قبل، بل رأينا التليفون المحمول والمتنقل، الَّذي بدأ يصغر حجمه إلى حدٍّ بعيد، ويؤدي أكثر من خدمة.

وهناك التليفون الَّذي يرى فيه مستخدمه صورة من يخاطبه.

وقد أمكن الإنسان الاتِّصال عن طريق التلكس، ثمَّ عن طريق «الفاكس» الَّذي لم يبرح كل حين يتطوَّر، وهو آية من آيات الله، إلى غير ذلك من العجائب الَّتي يطلق عليها الآن «ثورة الاتِّصالات»، وآخرها هذه الشبكة الجبارة الَّتي تسمَّى «الإنترنت».

وفي مجال الطب: حدث تقدُّم هائل، وخصوصًا في علم الجراحة، ولا سيَّما جراحة القلب، وجراحة العيون، ولا سيَّما بالليزر، وزرع الأعضاء من الكلية والكبد والقلب والقرنيَّة وغيرها.

وعرف الطب لأول مرَّة أطفال الأنابيب، واكتشف مرض «الإيدز».

وفي مجال الأدوية اخترع الأمصال واللقاحات الَّتي وَقَت البشر من كثير من الأمراض، بعضها وقاية دائمة «مناعة» مثل «الجدري».

واخترع البنسلين وتطوراته، الَّذي كان له أثره في تقدم الجراحة، وكذلك حبوب منع الحمل.

واخترعت المسكِّنات للآلام مثل الأسبرين وعائلته، ومُسَكِّنات المغص وآلام العظام.

QaradawiBooks.com

وإذا كان عصر الصناعة الأوَّل قد وُفِّق الإنسان فيه إلى اختراع الآلة لتوفير الجهد البدني والعضلي للإنسان، فبدل أن يحمل على ظهره تحمل العربة، وبدل أن يخيط بيده تخيط الماكينة؛ فإنَّ عصر الصناعة الثاني، توفِّر فيه الآلة الجهد العقلي للإنسان، وذلك باختراع هذا الشيء الَّذي سمَّوه «الكمبيوتر»، واحترنا نحن العرب في تسميته: أهو الحاسب الآلي أم الدماغ الإلكتروني أم العقل الإلكتروني أم الحسَّابة أم المِحْساب أم الحاسوب؟

وهذا الاختراع قد أحدث ثورة هائلة في الصناعة والحياة بصفة عامَّة؛ فعلى أساسه تسير الطائرات، وتتوجه الصواريخ، وتدور الأقمار الصناعيَّة، وتصعد سفن الفضاء. ولا يكاد يخلو أمر من أمور الحياة إلَّا دخلت فيه الثورة الإلكترونيَّة الجبارة، حتَّى الأطفال أصبحوا يستخدمونه، وفرض التعليم المعاصر إدخاله في المدارس الابتدائية.

وهناك بجوار الثورة التكنولوجيَّة، والثورة الفضائيَّة، والثورة الاتِّصالاتيَّة، والثورة الطِّبيَّة، والثورة الإلكترونيَّة: الثورة البيولوجيَّة، هندسة الوراثة، والتحكم في الجينات، حتَّى أمكن أن يتحكَّموا في جنس الجنين، ذكرًا أو أنثى، وربَّما في شكله وصورته: أبيض أو أسود، ناعم الشعر أو مُجعَّده، أزرق العينين أو أسودهما، إلى آخر ما يقال في ذلك، حتَّى أطلق عليه بعضهم: طفل حسب الكتالوج.

وقد أقمنا منذ سنوات في جامعة قطر ندوة علميَّة عن «الهندسة الوراثيَّة وموقف الدِّين والأخلاق والتشريع منها». وذلك لوضع الضوابط لهذه الثورة؛ حتَّى تمضي في طريق مأمون.

وقد انتهى ذلك التطور إلى «استنساخ الحيوان»، كما في النعجة الشهيرة «دوللي»، وأصبح من المَخُوف أنْ يتطوَّر ذلك إلى استنساخ

QaradawiBooks.com

الإنسان، وهو ما حذَّر منه علماء الدين والأخلاق والاجتماع والتشريع، لما يترتب عليه من مضار وأخطار، لا يتسع المقام للحديث عنها.

ولا مانع من استخدام هندسة الوراثة في تحسين سلالات النباتات، وتطعيم بعضها ببعض في ضوء الدراسات العلميَّة، والتجارب العمليَّة، المتأنية.

وكذلك لا مانع من استخدامه في مجال الحيوان، إذا لم يكن في ذلك إيذاء له، أو ضرر به، أو ضرر بالإنسان من ورائه، ذلك أنَّ «الخروج على الفطرة» في أي مجال أمر خطير، ينبغي التدقيق والتأنِّي فيه، وقد بدأ الحديث أخيرًا حول أضرار ما استخدمت فيه الهندسة الوراثيَّة[1].

وهناك ثورة أخرى، هي: «ثورة المعلومات»، فنحن في عصر «انفجار المعرفة»، وقد أصبحت كمِّيَّة المعلومات شيئًا لا يُقدر قدره، ولا بدَّ من ترتيبها وتبويبها وفهرستها وتنظيم الاستفادة منها.

وقد أنتجت هذه الثورات العلميَّة بألوانها المختلفة: رفاهية الحياة، واختصار المكان والزمان، وتقريب البعيد، وتوفير الوقت والجهد، والتنقل بين القارات بسهولة وسرعة، وتهيئة أسباب الراحة، من التكييف للهواء في الصيف، وتدفئته في الشتاء، وتبريد الماء أو تسخينه حسب الطلب، واختراع الغسالات الإلكترونيَّة، والأفران الكهربائيَّة، والميكروويف، والمنظفات الآلية، وغيرها وغيرها.

(١) آخر ما توصل إليه الإنسان في هذا المجال: ما أُعلن عنه والكتاب في المطبعة، وهو اكتشاف «خريطة الجنيات البشريَّة»، أو ما يسمى «الجينوم البشري»، وقد أعلن عنه الرئيس الأمريكي «كلينتون» بنفسه. وقالوا: إنَّه أهم من اختراع البنسلين، وأهم من وصول الإنسان إلى القمر!

QaradawiBooks.com

كما أنتجت ثورة المعرفة والمعلومات أثرها في الاقتصاد وتطوره، حتَّى غدوا يتحدَّثون اليوم عن «الموجة الثالثة» فيه. وهي قفزة هائلة، استفاد منها العالم المتقدم، أو «العالم الأول» كما يسمُّونه، ولم يبلغ الآخرون درجة الاستفادة منها، حتَّى «روسيا» قصرت بها معرفتها أن تُجَاري الغرب المتقدم واليابان.

ولم يقف هذا عند المطالب المدنيَّة، بل تعدَّاها إلى المطالب العسكريَّة، من الدبابات والغواصات والطائرات الحربيَّة المتطورة، ممَّا رأينا بعضه في حرب الخليج الثانية، حتَّى تكاد تكون حربًا آلية، بلا خسائر من البشر المهاجمين. وقبل ذلك اخترع الغرب القنبلة النوويَّة، وضَرب بأوَّل قنبلتين مدينتي هيروشيما ونجازاكي باليابان، ثمَّ طوَّر القنبلة النوويَّة إلى هيدروجينيَّة، كما طوَّر قدرتها، فأصبحت شيئًا مخيفًا، لا يتصوَّر أثره، وكيف تكون حال البشريَّة لو قامت حرب استخدمت فيها الأسلحة النوويَّة؟

وهناك إنجازات على المستوى النظري مثل نظرية أينشتين في النسبية، وإنجازات أخرى، يعطى أصحابها جائزة «نوبل» في العلوم كل عام.

وتوجد إنجازات أخرى ذات تأثير كبير في حياة البشر، وسياسة الأمم، وذلك فيما يتصل بالعلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، مثل علوم النفس والتربية والاجتماع والاقتصاد والسياسة والفلسفة والقانون والتاريخ واللسانيات وغيرها، ممَّا أخذه بعض النَّاس في بلادنا كما هو بجذوره الفلسفية، وتأثراته الشخصيَّة والبيئيَّة، وتعصباته الدينيَّة والقوميَّة، الشعوريَّة منها واللاشعوريَّة، وهو ما أنكره عليهم دعاة الأصالة،

QaradawiBooks.com

والمحافظـون على اسـتقلال الأمة الحضـاري والثقافي، كاسـتقلالها العسكري والسياسي.

المهمُّ أنَّ هذه الإنجازات الكبيرة والهائلة خلال القرن لم يكن لأُمَّتنا فيها نصيب، بل كانت كلُّها بما أنجزه الغرب بكل فصائله وأممه، ونحن في المســرح مجرَّد متفرِّجين، نصفِّق أو ننكر، ولا دخل لنا فيما يجري على خشبة المسرح.

كان منَّا من غير ريب علماء مُبَرِّزون لهـم وزنهم وقيمتهم، ولكنَّهم في سـياق البلاد المتخلِّفة، لم يجدوا من يعترف بهـم أو يبرزهم على الساحة، فعاشـوا مغمورين، أو ماتوا مجهولين أو شبه مجهولين، ومن وجد منهم فرصة للحاق بالغرب، وبأمريكا خاصَّة، فقد وجد الطريق إلى العالَميَّـة، كما تجلَّى ذلك فـي الدكتور أحمد زويـل، العالم المصري الأصل، الأمريكي الجنسيَّة، الَّذي حصل على جائزة «نوبل» في العلوم، لسنة ١٩٩٩م.

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

قرن الحرِّيَّات وحقوق الإنسان

ومن أعظم إنجازات القرن عند الغربيِّين: شيوع الحُرِّيَّات العامَّة فيه، وإعلان مواثيق حقوق الإنسان، وخصوصًا فئات المستضعفين من البشر، مثل حقـوق العمال في مواجهــة أرباب العمل، وحقوق الشـعوب في مواجهة الحكام، وحقوق النساء في مواجهة الرجال، وحقوق الفقراء في مواجهــة الأغنياء، وحقوق المسـنِّين والأطفال والمعوقين على الأسـر وعلى المجتمع والدولة.

ولم يكن تقرير هــذه الحقوق والحريات، مجرد فكرة فلسـفية، أو دعوة نظرية، أو حبر على ورق، بل قد سنَّت قوانين، وقامت مؤسسات محليَّــة وإقليميَّــة ودوليــة؛ لرعاية هــذه الحقوق والحريــات ومعونة أصحابهــا، والدفاع عنهم، أمام مــن يجحدون حقوقهــم، أو يجورون عليها، أو ينتقصونها.

أصبح من حق الشعوب أنْ تختار حكامها عن طريق الانتخاب الحر، تشرف عليه هيئات قضائية نزيهة، وأن تُسائِل هؤلاء الحُكَّام بعد ذلك، ومن حقِّها أن تُقدِّمهم للمحاكمة أمام قضاء عادل، وأن تسحب منهم الثقة أو تُسقطهم أو تخلعهم وَفْق ما يُحدِّده الدستور من نُظم وإجراءات.

ليس هناك حاكم أكبر من أن يسأل، ولا محكوم أصغر من أنْ يُسائِل.

QaradawiBooks.com

ومن حـــقِّ كلِّ فرد في الشـــعب أنْ يحاكم إذا ارتكـــب مخالفة أمام قاضيه الطبيعي، وأنْ يحامي عن نفسه، أو يُوكِّل من يحامي عنه، بل من حقِّه في قضايا معينة أنْ تُوكِّل الدولة عنه من يحامي عنه.

ولا يجوز أن يُسجن إنسان أو يُعتقل بغير جرم جناه، يثبت القضاء أنَّه قد اجترمه، ولا يجوز القبض عليه والتحقيق معه بغير إذن القضاء. والأصل في المُتَّهم أنَّه بريء حتَّى تثبت عليـــه التهمة بحكم المحكمة، ولا يجوز بحال تعذيب المتهم حتَّى يدلي باعترافات رغم أنفه، بل تحت سياط العذاب.

ولا يُنكر منصف ما ارتقى إليه الغرب في حقوق الإنســـان، ورسوخ الديمقراطيَّة، ونزاهة الانتخابات، حتَّـــى إنَّ حكومة حزب معين تجري الانتخابات، وهي الَّتي تحكم وتملك الســـلطة التنفيذيَّة، ثمَّ تأتي نتيجة الانتخابات فتســـقط، وتدع الســـلطة طواعية للحـــزب المنافس، وهكذا تتداول السلطة بشكل سلمي، ويتلقى الحزب المهزوم مصيره بشجاعة، ويحاول أن يبذل من الجهود، ما يُحسِّـــن صورته فـــي أعين الجمهور، ويجعله أكثر قبولًا من خصمه في الانتخابات القادمة.

ورأينا في ظل الديمقراطيَّة الوزراء يُحاكَمون، بل الرؤســـاء أنفسهم يُحاسَبُون، وربَّما يُعزَلُون، كما حدث للرئيس الأمريكي نيكسون، الَّذي اضطر إلى التخلي عن منصب رئاســـة الجمهوريَّة بسبب ما عرف باسم «فضيحة ووترجيت».

وكذلك حوكم الرئيـــس الأمريكي الحالي كلينتون، وكاد الكرســـي يطير من تحته، لولا استعطافه للشـــعب الأمريكي أن يسامحه ويغفر له، وقد اعتـــرف بخطئه، وهـــو خطأ شـــخصي لا يتناول سياســـة الحكم، ولا سياسة المال، ولا شأنًا من الشؤون العامة.

QaradawiBooks.com

وهذا وأمثاله ممَّا يُرْصَد في حسنات المجتمع الغربي وإنجازاته في القرن العشرين.

ملاحظات ثلاث على الحريات في الغرب:

ولي على هذا الإنجاز الغربي حول الحريات والديمقراطيَّة وحقوق الإنسان الَّتي تميَّز بها الغرب ودافع عنها: ملاحظات ثلاث مهمة، أودُّ أنْ أسجِّلها هنا بأمانة وإنصاف:

ازدواجية الغرب في الحقوق والحريات:

الملاحظة الأولى: أنَّ الغرب يهتمُّ بالحرِّيَّات والديمقراطيَّة وحقوق الإنسان غاية الاهتمام، ويقيم الدنيا ويقعدها إذا اعتدى عليها معتد، أو اجترأ عليها مجترئ، وداس حِماها المقدَّس، إذا كان ذلك في دياره نفسها، أعني: في ديار الغرب، وأوطان الغرب؛ فمن حق كل شعب فيها وكل فرد فيها أنْ ينعم بالحرِّيَّة، وأنْ يمارس حقَّه في الديمقراطيَّة، وأنْ يكون له حقه في اختيار حكامه، ومحاسبتهم، وعزلهم إذا خرجوا على الدستور. ولا يجوز لحاكم ـ مهما بلغ شأنه ـ أن يتجاوز حدوده الدستوريَّة، فينتهك حقوق الأفراد، أو يصادر حرِّيَّاتهم أو أموالهم، أو يفصلهم من أعمالهم، أو يحاكمهم أمام محكمة غير عادية، ومن فعل ذلك فهو حاكم دكتاتوري ظالم، متعد على دستور الأمة، يجب خلعه وعزله، ولا حقَّ له في البقاء فوق كرسيِّه يومًا واحدًا.

هذا ما عليه الغرب إزاء الحقوق والحريات في ديار الغرب، أما خارج ديار الغرب، فهو يكيل بكيل آخر، ويتعامل بمعيار آخر، فليس الحرام في الغرب حرامًا في الشرق، وليس الواجب المفروض في الغرب

QaradawiBooks.com

واجبًا مفروضًا في الشـرق، إنَّه يتعامل تبعًا لمصالحـه ومنافعه، وكثيرًا ما تؤدي به هذه النظرة «البراجماتية» النفعية، إلى تحليل ما هو حرام في الغرب، وإسقاط ما هو واجب ولازم في الغرب.

لهذا يسكت الغرب عن حكام العرب والمسـلمين الَّذين يحكمون أوطانهم وشعوبهم حكمًا استبداديًّا طاغوتيًّا، بل كثيرًا ما يقفون من خلف هؤلاء الطغاة، سرًّا في بعض الأحيان، وعلانية في أحيان أخرى، وكثيرًا ما يسندون الديمقراطيات الزائفة، الَّتي يحصل الرؤساء فيها على (٩٩٪)، وأحيانًا على (٩٩,٩٩٪)!

ولم نـرَ الغربيِّيـن احتجُّـوا يومًا على تجـاوزات هـؤلاء الحُكَّام المتجبريـن، ومظالمهم الَّتي ظهرت فـي البرِّ والبحر، ومسَّت الكبار والصغار، والرجال والنساء.

بل رأيناهم يُرحِّبون بإلغاء الانتخابات في الجزائر سنة (١٩٩١م)، الَّتي حصل الإسـلاميون فيها على الأغلبيَّة الساحقة، ويشـجعون المؤسسة العسكريَّة الَّتي استولت على السلطة بالقوَّة الجبرية.

وممَّا لا يخفى علـى دارس أو مراقـب لما يجري فـي العالم من أحـداث وتقلُّبات: أنَّ الغرب يعـادي كل نظام دكتاتـوري، وكل حركة دكتاتورية تصل إلى الحكم، إلَّا في بلاد الإسـلام؛ فهو يؤيد الانقلابات العسكريَّة، والحكومات الاسـتبداديَّة، ما دام استبدادها يصب في اتجاه التضييق على الإسلام والإسلاميِّين.

إقامة الكيان الصهيوني المغتصب:

ومن المآسي البشعة، الَّتي تحسب على الغرب، وتجسِّد ازدواجية المعايير عنده في هذا القـرن: إقامته لهذا الكيان العدواني المغتصب

QaradawiBooks.com

المسمَّى «إســرائيل» الَّذي احتلَّ فلســطين، وطرد أهلها منها بالقوَّة ليحل محلَّهم.

فالغرب هو منشــئ هذا الكيان من عدم، وهو الَّذي نفخ فيه الروح بعد إيجاده، وهو الَّذي غذَّاه ورعــاه بعد ولادته، وهو الَّذي قوَّاه ودافع عنه بعد نشــأته، وهو الَّذي ما زال يُمِدُّه بالوقــود والطاقة كلَّما أعوزه شيء من ذلك.

بريطانيا هي الَّتي وعدت اليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، كما تجلَّى ذلك في «وعد بلفور» وزير خارجيَّــة بريطانيا في (٢ نوفمبر ١٩١٧م). أي في الوقت الَّذي كان يحارب بعض العرب مع بريطانيا دولة الخلافة التركية، ودخل القائد الإنجليزي «اللنبي» القدس في تلك السَّنَة، وهو يقول بشماتة: اليوم انتهت الحروب الصليبيَّة! يعني أنَّه حقَّق بدخوله القدس ما فشلت فيه الحروب الصليبيَّة قديمًا.

وقد عيَّنت عصبة الأمم: بريطانيا منتدبة لحكم فلسطين، فكان عهد الانتداب البريطاني لفلسطين عهد تمكين وتوطين للصهاينة، وفتح الباب لهجراتهم الجماعية إلى فلسطين، ولم يكن لهم وجود يُذكر بها، وإتاحة الفرص لهم لبناء المستعمرات تلو المســتعمرات، في حين يُضيَّق على أهل فلسطين كل التضييق، ويُنكَّل بهم بأدنى سبب وبلا سبب.

وقامت ثورات غاضبة في فلســطين ضدَّ التسلُّل الصهيوني المنظم، وضدَّ الانتداب البريطاني الممالئ والمتواطئ، ولكنَّها لم تستطع مقاومة مكــر بريطانيا العظمــى، ووراءها الغرب كلُّه، الَّذي يســاند المشــروع الصهيوني، حتَّى أصبح الحلم حقيقة، وقامت «دولة إسرائيل» على أرض ليســت لها في (١٥ مايو (أيَّار) ١٩٤٨م) واعترفت أمريــكا بها في لحظة

QaradawiBooks.com

ولادتها، وتتابعت دول أوربا بعدها تعترف بها وتؤيدها، من المعسكر الرأسمالي، إلى المعسكر الشيوعي، وأعلن الجميع بصراحة مرَّة: أنَّ إسرائيل خلقت لتبقى.

وما زالت إسرائيل تصول وتجول، وتعربد إلى اليوم، وتفرض سلامًا على هواها، في فترة برز فيها الاستسلام الفلسطيني، والعجز العربي، والوهن الإسلامي، أمام الاستكبار الإسرائيلي، والتفرُّد الأمريكي، مع التخاذل الأوربي، والغياب العالمي.

والسلام في هذه الآونة يعني الرضا بالدون، والحياة الهون، والقبول لأرباع الحلول، بل لأعشار الحلول. ورحم الله أبا الطيِّب حين قال:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ   مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ(1)!

الحريَّة الشخصيَّة في الغرب معناها التسيُّب:

الملاحظة الثانية: أنَّ لنا ـ نحن المسلمين ـ تحفظًا على الحرِّيَّة الَّتي ينادي بها الغرب، وذلك في مجال «الحُرِّيَّة الشخصيَّة» الَّتي يرى الغربيُّون أنَّ مجالها مفتوح، ولا تقف إلَّا عندما تصطدم بحُرِّيَّة الآخرين.

ومعنى هذا أنَّ الإنسان حرٌّ في أن يفعل ما يشتهي لا ما ينبغي، وإنْ خالف القِيَم العُليا، أو أضرَّ بنفسه، أو آذى من لا يستطيع أن يشكو، مثل الحيوان أو البيئة، أو العلاقات الكونيَّة من حوله.

ومعنى هذا: إمَّا النزول بالإنسان إلى «درك الحيوان» الَّذي يتحرك بمقتضى غرائزه وحدها، وليس عنده عقل يمنعه أو ضمير يردعه.

(١) ديوان المتنبي صـ ١٦٤، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

نسخة مجانية
غير مخصصة للطباعة
QaradawiBooks.com

أو الصعود به إلى «منزلة الإلٰه» الَّذي لا يُسأل عمَّا يفعل.

وكلا الأمرين خطأ وشرود عن الصواب، فحريَّة الإنسان ليست مطلقة بحيث لا يقيِّدها قيد، كما استقرَّ في الضمير الغربي، الَّذي حوَّل «الحُرِّيَّة» إلى «إباحيَّة»، تجعل الإنسان يركض وراء شهوته كالحيوان، وربَّما كان أضلَّ منه سبيلًا.

وبهذا بات من حقِّ الإنسان «العُري» ولو في الطريق العام، بل ارتكاب الفضائح الجنسيَّة في الحدائق العامَّة والمتنزَّهات والطرقات.

وأصبح الزنى والشذوذ الجنسي من حقِّ كلٍّ من الرجل والمرأة.

وصار زواج الجنس بالجنس مشروعًا.

وغدا من حق المرأة أنْ تجهض جنينها، باعتباره جزءًا من جسدها، وهي حرة في هذا الجسد، ولم ينظروا إلى هذا الكائن الحي أو المخلوق البشري الَّذي يسكن في أحشائها وأنَّ له حقَّ الحياة الَّتي وهبها له الخالق الأعلى، وأن ليس لأمِّه ولا لأبيه ولا لأحد من النَّاس حقَّ العدوان على حياته.

لقد أغفل الغربيُّون أنَّ الحرِّيَّة المطلقة غير موجود في العالم، فالسيارات في الطرق السريعة الرئيسة، تسير في حدود معيَّنة، حدَّدتها قوانين السير أو المرور، من خالفها يعاقب على قدر مخالفته، والسفن والبواخر في المحيطات الكبرى تسير في خطوط ملاحية مرسومة لها، إذا تعدَّتها تتعرَّض لكوارث مدمِّرة، والطائرات في جوِّ السماء ليست حُرَّة، تذهب كما تشاء يَمْنَة ويَسْرة، بل لها خطوط حدَّدتها لها نظم الملاحة الجوِّيَّة، لا يجوز لها أنْ تتعدَّاها.

QaradawiBooks.com

بل نقول: إنَّ الشمس والقمر والنُّجوم في السماء كلٌّ منها يجري في مدار محدود، ومسار معلوم ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

ثم إنَّ الفكر الغربي فصل الحياة الشخصيَّة عن الحياة العامَّة، وقالوا: إنَّ الحياة الشخصيَّة ملك للفرد يتصرَّف فيها كيف يشاء، يسكر ويعربد، ويحيا زانيًا أو شاذًّا أو قوَّادًا أو ديُّوثًا، أو ما شاء أن يفعل، فليس لأحدٍ أنْ يحاسبه على ذلك، أو يدخل ذلك في شؤون الحياة الاجتماعيَّة، أو الحياة العامَّة.

وهذا ليس صحيحًا، فحياة الإنسان متداخلة ومتلازمة، ويتَّصل بعضها ببعض، ويؤثِّر بعضها في بعض، ولا يتصوَّر أنْ يكون الإنسان فاسدًا في حياته الخاصَّة، صالحًا في حياته العامة، ولا أن يكون الإنسان الشاذُّ أو القوَّاد أهلًا لأن يؤتمن على مسؤوليَّة ذات شأن.

ومن هنا نجد أجهزة الاستخبارات في الدول الكبرى تصطاد جواسيسها من بين «أصحاب الشهوات» عن طريق الخمر والمخدِّرات والنساء، فهذه هي «المصايد» السحريَّة الَّتي تُوقع في شباكها هؤلاء الَّذين في قلوبهم مرض، ممَّن أضاعوا الصلوات، واتَّبعوا الشهوات.

أمَّا الإسلام فلا يفصل بين الحياتَيْن الخاصَّة والعامَّة، ولا بين العلاقتين: العلاقة بالله والعلاقة بالناس. ويرى أنَّ من خان الله، لم يبعد أن يخون قومه، ومن ضيَّع حق الله فهو لحقوق النَّاس أشد تضييعًا، ومن فسدت سريرته، فهيهات أن تَصْلُح علانيته، وكلُّ إناءٍ ينضح بما فيه.

QaradawiBooks.com

احترام المرأة في الظاهر لا في الحقيقة:

الملاحظة الثالثة: أنَّ الغرب أظهـر احترامه للمرأة، وحرَّرها من ظلم الرجال من الآبـاء والأزواج وأمثالهم، وخلَّصها مـن الاعتقادات الَّتي كانت تؤمن بأنَّها لا روح لها، وأنَّها أحبولة الشيطان، إلخ. ولكن المرأة في الغرب تُحترم ظاهرًا وتُمتهن باطنًا.

لقد عُوملت المرأة كالرجل، وطُولبت بما يطالب به الرجل، وسيقت إلى المعامـل والمصانع كالرجال، ناسـين أنَّ تكوينهـا ليس كتكوين الرجل، وأنَّ وظيفتها ليست كوظيفة الرجل، وهذا ما قاله العلماء الكبار المتخصصون، وأنكروه على الغرب، مثل «ألكسـيس كاريل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول».

إنَّ المرأة خلقت لتكون أمًّا، لتنشئ الأجيال في حضنها؛ ولذا تحمل وتضع وترضع وتربِّي، وتتوالى عليها الدورات الشهرية، وتعاني ما تعاني في الحمل والـولادة كما قال القـرآن: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. فكيـف تُطالَب بما يُطالَـب به الرجال؟ أليـس هذا ظلمًا للمرأة، وتحميلًا لها أكثر ممَّا تطيق، ومحاباة للرجل على حسابها؟

لا غرو أنْ نشأ في الغرب ما سُـمِّيَ «الجنس الثالث»، الَّذي أخرجه العمل اليومـي المنهك من نعومـة الجنس اللطيف، ولـم يدخله في الجنس الخشن (الرجال)، فبقي جنسًا ضائعًا، لا هو من النساء ولا هو من الرجال.

لقد أمسـت المرأة في الغرب أداةً للمتعة، والإثارة الجنسيَّة، ولهذا قامت فلسفة الأزياء النسـائيَّة في الغرب على إبراز المحاسن، وتجسيد المفاتن، وإظهار المثيرات، وليس على الستر والحشمة، كما هو عندنا.

QaradawiBooks.com

كما أنَّ المرأة باتت أهم عنصر في الإعلانات، حتَّى فيما يتعلق بالرجال، وما يحتاج إليه الرجال، تعلن عنه امرأة.

والويل كل الويل للمرأة الَّتي يذبل شبابها، وتذهب بهجتها ونضرتها، هنا تكسد سوقها، وتُلقى في سلَّة المهمَلات، ولا يكاد يزورها أحد، أو يهتمُّ بها أحد، وهذا ما حدث لأشهر الممثلات في أمريكا وفرنسا وغيرهما.

ونظرًا لانحلال الأسرة وانهيار القيم الأُسَريَّة، فقد أصبح كثير من الفتيات لا يتزوَّجن، ولا يعشن في أُسَرٍ تُظِلُّهن، وتجمعهنَّ بأزواجهنَّ السكينة والمودَّة والرحمة، الَّتي ذكرها القرآن أركانًا للحياة الزوجيَّة المنشودة، بل يعاشرن الرجال معاشرة المخادنة والمرافقة دون ارتباط بمسؤوليَّة الزواج وتبعاته الماليَّة والأخلاقيَّة والاجتماعيَّة والدينيَّة.

ويا مصيبة مَن تحمل من هذه المعاشرة، فماذا تفعل بهذا الجنين الَّذي لا يُعرف له أب، ولو عُرف له أب فهو ليس أبًا شرعيًّا مسؤولًا عن ولده وفلذة كبده.

ومن هنا راج في الغرب هذا البلاء المبين، وهو الدعوة إلى «إباحة الإجهاض» بصورة مطلقة، بلا ضوابط ولا قيود، باعتبار أنَّ المرأة حرة في جسدها، بلا أي مراعاة للدين والفضيلة والأخلاق، وأيُّ حرِّيَّة هذه الَّتي تبيح قتل مخلوق حيٍّ في أحشاء المرأة لا ذنب له ولا جريرة، إلَّا شهوة الأبوين البهيمية؟

ومن المؤسف أنْ تتبنَّى هذه الدعوة أحزاب كبرى في الولايات المتحدة وفي غيرها، وأنْ تُوضع على رأس قوائم الانتخابات، وأنْ تحاول الأمم المتحدة فرضها في وثائقها، كما حدث في مؤتمر السكان

QaradawiBooks.com

بالقاهــرة، وقد وقف رجال الدين في الإســلام والمســيحيَّة ضدَّ هذه الدعوة الفاجرة القاسية، الَّتي لا تليق بالإنســان، الَّذي زعم أنَّه ارتقى إلى قمَّة الحضارة.

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

قرن انهيار القِيَم الإيمانيَّة والأخلاقيَّة

ومن الإخفاقات، بل من المآثم والمنكـرات: موقف العالم الغربي وحضارته المعاصـرة من الإيمان والقيـم الأخلاقيَّة، الَّتـي جاءت بها رسالات السماء جميعًا، فقد خفت صوت الإيمان، وخبا نور اليقين بالله وبالجزاء في الآخرة، في ديار الغرب كلِّها، الليبراليَّة والشيوعيَّة.

أما الشـيوعيَّة، فهي قائمة على تفريغ الحياة مـن الإيمان بالله، واعتبار الدين أفيون الشعوب، ودسـتورها يعلن: أن لا إلٰه، والحياة مادة. فلا يتوقع في ديـار الشـيوعيَّة الملحدة، أنْ ترتفـع للإيمان رايـة، وأنْ يكون للدين سلطان، بل التعليم والتثقيف والإعلام، ومؤسساتها كلها قائمة على الإلحاد.

وأمَّـا الليبراليَّـة، فهـي لا تجحـد الله صراحـة، ولكـن ـ كمـا قال ليبوبولد فايس (أو: محمَّد أسد) ـ ليس لله مكان في نظامها الفكري الحالي.

إنَّ بلدان «العالم الحر» أو العالم الرأسـمالي أو المعسـكر الغربي تتبنَّى كلُّها «الفلسـفة المادِّيَّة» أساسًا لحياتها الفكريَّة والسلوكية. والدين لديها مسـألة فرديَّة، ولا يكاد يُرى للدين أثر في سلوك الأفراد، إلَّا لدى قلَّة قليلة، لا يُمَثِّلون الاتِّجاه العامَّ في أوطانهم، ولا يكاد يُذكر الدِّين إلَّا في مناسـبات معيَّنة، مثل أعياد الميلاد «الكريسـماس»، وقد أصبحت أعيادًا قوميَّة أكثر منها دينيَّة.

QaradawiBooks.com

كما يُذكر الدِّين أحيانًا باعتباره محـرِّكًا من المحركات، وحافزًا من الحوافز في السياسة، كما نجد ذلك عند المسـيحيِّين الأصوليِّين الَّذين يتديَّنون بتأييد الصهيونيَّـة، وكما نجد ذلك جليًّا عند عدد من رؤسـاء الولايات المتحدة الأمريكيَّة، مثل كارتر، وريجان، وبوش، وكلينتون.

ويُذكر الدِّين كذلك عند الغربيِّين عندما تظهر للإسـلام قوَّة بصورة ما، في صورة صحـوة عامَّة، أو حركة مُنظَّمـة، أو دولة حاكمة كما في إيران والسـودان، فهنا تثور الروح الصليبيَّة، الَّتي ترى الإسلام «عدوها الأول» كما رأيناهم في أمريكا بعد انهيار الاتِّحاد السـوفييتي يرشحون الإسـلام ليكون هو عدو المستقبل، ويسـمُّونه «الخطر الأخضر»، وقد كُتبت في ذلك كتب، وعُقدت ندوات ومؤتمرات.

أمَّا التديُّن الحقُّ، بوصفه يقينًا بالله ولقائه وحسابه، وباعتباره تقوى لله سبحانه، تقوم على رجاء رحمته، وخشية عقابه، فهيهات أنْ تجد له أثرًا في الغرب، إلَّا في القليل النادر.

ولهذا قال بعض مفكريهـم: نحن نعيش على ظـلٍّ لظل، فعلى أي شـيء يعيش من بعدنا؟ يريد بظلِّ الظلِّ: ظلَّ إيمان الجيل السابق الَّذي بنى الحضارة.

ومع خُفـوتِ صوت الإيمـان، خفت صوت الأخـلاق والفضائل، وغلبت الشـهوات والرذائل، فقد قامت فلسـفة الحضـارة الغربيَّة على الفصل بين العلـم والأخلاق، وبيـن الاقتصاد والأخلاق، والسياسـة والأخلاق، وبين الحرب والأخلاق.

ولهذا استخدم العلم الأسـلحة الفتَّاكة الَّتي تقتل الملايين، إذ العلم لا صلة له بالأخلاق.

QaradawiBooks.com

واســتخدم الاقتصاد كلَّ الوسائل لسحق المنافســين، وطردهم من الساحة بأيَّة وسيلة، وكذلك للكســب والإثراء ولو من عرق الكادحين، ودماء المستضعفين، ودموع المسحوقين؛ لأنَّ الاقتصاد شيء، والأخلاق شيء آخر.

واســتخدمت السياســة كلَّ الوســائل لقهر الخصوم، والتغلب على المنافســين بالكذب والخداع والمكــر والغش، فالغاية تبرِّر الوســيلة، والأخلاق لا لزوم لها في عالم السياسة!

ومثل ذلك الحرب، فتُســتخدم فيهــا كلُّ الوســائل والآليَّات، وإن هدمت قرى بكاملها، وقتلت الآمنين في دورهم، والمدنيِّين في معاشهم، والنساء والأطفال والشيوخ في بيوتهم.

وفي الحياة العامة، وجدنا غياب الأخلاق الَّتي تضبط شهوة الجنس، وتميِّز بين الإنسان والحيوان، وخصوصًا خُلق الحياء والعفاف والإحصان.

فالغرب يريد أنْ نفتح الباب على مصراعيه للجنسين، يستمتع بعضهما ببعض، دون قيود ولا ضوابط، إلَّا رغبة أحدهما في الآخر، فلا قيمة لعقد ولا لرباط زوجيَّة مقدَّس، ولا لأســرة ينشأ في رحابها الأولاد، ويتعلَّمون في ظلالها آداب البنوَّة والأخوَّة والتعاون والمحبَّة، وتوقير الكبير، ورحمة الصغير، واحترام المِلْكيَّات، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه.

لقد رأينا الدعوة إلى الإباحيَّة في الغــرب يعلو صوتها، ورأينا أندية للعراة، وأندية للشــواذِّ والمخنَّثين من الجنســين، ورأينا هؤلاء وهؤلاء يظهرون في مجموعات لها أصواتها المكثَّفة في الانتخابات الرئاسية في أمريكا وفي غيرها.

QaradawiBooks.com

بل رأينا من يمارس الجنس مـع أخته، بل مع ابنتـه، بل مع أمِّه! ورأينا ألوانًـا جديدة من الـزواج، غير الزواج الَّذي شـرعه الله، وعرفه النَّاس، وهـو: زواج الرجـل بالرجل، والمـرأة بالمـرأة! ورأينا بعض الكنائس الغربيَّة تبارك هذا الزواج، ورأينا من آباء الكنائس من يعلن في التلفاز أنَّه يعقد هذا الزواج، ورأينا بعض البلاد الأوربيَّة تُجيز هذا قانونًا، كما فعل مجلس العموم البريطاني.

ورأينـا «مؤتمر السـكان» الَّذي انعقد فـي القاهرة سـنة (١٩٩٤م)، و«مؤتمر المرأة» الَّذي انعقد في «بكين» بالصين سـنة (١٩٩٥م)، كلاهما يتبنَّى هذا الاتجاه الَّذي يقوم على فلسـفة الإباحيَّة، ويتبنَّى هذه الألوان الشاذَّة من العلاقات، مثل الأسرة الوحيدة الجنس «تتكون من رجلين أو من امرأتين»! أو الوحيدة التكوين «تتكون من امرأة تتبنَّى طفلًا»!

كما تبنَّيا إباحة الإجهاض بإطلاق، واعتبار الحمل جزءًا من جسـم المرأة تتصرَّف فيه كما تشاء، متناسين هذا الكائن الحيَّ الَّذي يجري في أحشائها، وأنَّ له حق الحياة، ولا حقَّ لها ولا لغيرها في قتله وإعدامه.

وقد وقف الأزهر ورابطة العالم الإسلامي والمؤسسات الإسلاميَّة مع الفاتيكان جنبًا إلى جنب «في مؤتمر السكَّان بالقاهرة»، في مواجهة هذه الموجه العاتية الَّتي تريد أنْ يتحلَّل النَّاس من سائر القيم والفضائل، وأنْ يعيشوا كالأنعام أو أضل سبيلًا.

الشيوع والإقرار والتقنين:

لقد عُرفت الخطيئة، وعُرف الشـرود عن الأخلاق، والانحراف عن الصراط المستقيم في كلِّ الأمم، وفي شـتَّى الأزمنة، ومن المعروف أنَّ الإنسـان مخلوق مزدوج الطبيعة، اختلط فيه الخير والشـرُّ، وامتزج فيه

QaradawiBooks.com

الطين والـرُّوح، واصطرع فيـه الفجور والتقـوى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠]. ولا بُعْدَ في أن يغلب الفجور التقوى لدى بعض الناس، ويغلب الشرُّ الخيرَ، ويعلو الطين على الرُّوح، فيُخْلِد الإنسان إلى الأرض ويتَّبع هواه. ولكن النَّاس كانوا يَسْتَخْفُون إذا وقعوا في الإثم، ويَسْتَحْيُون أن يراهم أحـد، أو يعرفهم به أحد، ويحاول أحدهم أن يبرِّئ نفسـه إذا اتُّهم به، وإذا غلبته نفسه أو شيطانه تضرَّع إلى الله أن يتوب عليه.

ولكنَّ المشكلة في فساد هذا القرن في الغرب، تكمن في شيوع هذا الفساد وانتشاره انتشار النار في الهشـيم، حتَّى أمسى عُرفًا عامًّا، يشبُّ عليه الصغيـر، ويهرم عليه الكبيـر، فلا تُنكره القلـوب، ولا تنهى عنه الألسنة، بله أنْ تُغيِّره الأيدي.

هذا هو الخطر في فُشُـوِّ المنكر والرذيلة والفساد في الأرض، وهذا ما عابه الله على اليهود وبني إسرائيل، إذ وقع فيهم الفساد ولم يُنكروه، بل سكت عنه العلماء والكبراء، فباؤوا بوزره، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٢، ٦٣].

واسـتحقَّ المجتمعُ كلُّه بهذا لعنة الله ﷻ وعقوبته: الفاعل باقترافه، والسـاكت بإقراره، كما قال سـبحانه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

QaradawiBooks.com

وقد حذَّر القرآن من هذه النقمة الإلٰهيَّة العامَّة في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقد ذكر لنا الحديث النبوي الشريف ما يصيب النَّاس من بلاء لم يعرفه السابقون، ولم يجرِّبه اللاحقون، بسبب شيوع الفساد والمنكر، وذلك فيما رواه ابن ماجه والحاكم عن ابن عمر مرفوعًا: «**ما ظهرت الفاحشة في قوم حتَّى يُعمل بها فيهم علانية، إلَّا سلَّط الله عليهم الطاعون والأوجاع الَّتي لم تكن في أسلافهم الَّذين مضوا**»(١).

وهذا الإنذار النبوي صدَّقه الواقع المشاهد، حيث ظهرت فاحشة الزنى والشذوذ، وأصبح يُعمل بها علانية، لا يستحي منها أحد، ولا يستخفي، فأصيب القوم بما أطلقوا عليه اسم «الإيدز» جزاءً وفاقًا، بما قدَّمت أيديهم، وما ربُّك بظلَّام للعبيد.

وقد حدَّثنا القرآن عن قوم انتشرت فيهم الفاحشة «الشذوذ الجنسي» وأدمنوها، حتَّى غدت آفة عامَّة فيهم، لا يُنكرها بعضهم على بعض، وأرسل الله فيهم رسولًا يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، واجتناب هذا المنكر الَّذي يأتونه في ناديهم، وقال لهم رسولهم لوط: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].

وصفهم لوط هنا بأنَّهم عادون، وفي مواقف أخرى بأنَّهم مفسدون

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٤٠/٤)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي. وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٠٦).

QaradawiBooks.com

ومجرمون ومسرفون وجاهلون، حتَّى ضيوفهم ما كانوا يدَعُونهم، وصدق القرآن حين قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

ولهذا كان لا بدَّ من تطهير الأرض من رجسِ هذه القرية الَّتي كانت تعمل الخبائث، إنَّهم كانوا قوم سَوْءٍ فاسقين ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

ومن ثَمَّ نرى أنَّ مشكلة الانحلال والفساد الخلقي في الغرب في هذا القرن إنَّما تتمثَّل أجلى ما تتمثَّل في ظهوره وشيوعه والإعلان به، وإقراره من العُرف العامِّ، وهذا أشدُّ ما يكون خطرًا على المجتمع الإنساني: أنْ يسكت عن المنكر فلا ينهى عنه، ثمَّ ينحدر الأمر أكثر، فيُؤْلَف المنكر ويُعتاد، فلا ينكر النَّاس منكرًا، ولا يعرفون معروفًا، ثمَّ يزداد الانحدار والسقوط، حتَّى يأمر النَّاس بالمنكر وينهوا عن المعروف، وهو مجتمع المنافقين، الَّذين هم في الدرك الأسفل من النَّار؛ ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

وأشد من ذلك سوءًا وانحطاطًا: أنْ «يُقنَّن المنكر»، وتُقِرُّه شرائع المجتمع وقوانينه السَّاريَة، وهذا هو منتهى السقوط والانحدار في الهاوية.

وهو ما انتهى إليه الغرب في أواخر هذا القرن حيث قنَّن «الشذوذ الجنسي» في بعض الأقطار وأجازته البرلمانات الَّتي تملك التشريع.

QaradawiBooks.com

فهذا ما هبط إليه الإنسان الغربي المعاصر[١]، في قرن الإنجازات التكنولوجيَّة، والثورات العلميَّة، ولا نملك إلَّا أنْ نقول: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

خطر فصل العلم والاقتصاد والسياسة عن الأخلاق:

وهنا أودُّ أن أزيد إضافة مهمَّة في موضوعنا هذا.

فقد لاحظت أنَّ كثيرًا من الكُتَّاب المسلمين إذا تحدَّثوا عن سقوط القِيَم الأخلاقيَّة في الغرب، ركَّزوا على جانب العفاف والإحصان والطهارة من الزنى والشذوذ ونحو ذلك ممَّا يتصل بفضائل «الجنس».

وهذا حقٌّ لا ريب فيه، ولكن السقوط الأخلاقي عند الغربيِّين أوسع دائرة من ذلك، وذلك أنَّ فلسفتهم ـ كما أشرنا من قبل ـ تقوم على الفصل بين العلم والأخلاق، وبين العمل والأخلاق، وبين الاقتصاد والأخلاق، وبين السياسة والأخلاق، وبين الحرب والأخلاق.

وانفصال هذه الأمور الجوهريَّة عن الأخلاق، معناه: أنَّ الحياة كلَّها قد عُزلت عن الأخلاق، وأنَّ الأُمَّة في علمها وعملها، وفي سياستها واقتصادها، وفي حربها وسلمها تمضي وَفْق أهوائها ومنافعها المادِّيَّة، ولا يحكمها عنصر القيم والأخلاق.

وهذا سِرُّ ازدواج المعايير في السياسة الغربيَّة؛ فهم يحرِّمون الشيء على قوم، ويُحلُّونه لآخرين، وقد يعاقبون شعبًا على فعل، ولا يعاقبون عليه إذا اقترفه آخرون، كما نراهم أبدًا في موقفهم من إسرائيل، فهم

---

(١) انظر كتابنا: الإسلام حضارة الغد صـ ٣٢ ـ ٦٤، فصلَي: الانحلال الأخلاقي، والتفسخ العائلي، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

يدينون الإرهاب إلَّا إذا ارتكبته إسـرائيل، ويدينون قتل المدنيين ما لم ترتكبه إسرائيل.

وهذا أيضًا سِرُّ استخدام العلم الغربي في التدمير والإهلاك بغير حساب.

وسِرُّ استخدام القوَّة العسكريَّة الغربيَّة في تنفيذ سياستها رغم أنوف الشعوب المستضعفة في الأرض «تحكَّم الذئبُ فاخضعْ أيُّها الحملُ»!

وهذا هو السِّرُّ في أنَّ الاقتصاد الغربي لا يبالي أنْ يُسحَق الصغار لمصلحة الكبار، وأنْ يطرد من السوق كل النَّاس لينفرد به وحده، وأن يُرخِّص الأسعار مدَّة من الزمن لسلعة معيَّنة، حتَّى يعجز الآخرون عن مجاراته، فيفلسوا وينسحبوا من الميدان، ويبقى هو وحده لا شريك له. ولله دَرُّ شاعرنا أحمد شوقي حين قال:

وَلَيْسَ بِعَامِرٍ بُنْيَانُ قَوْمٍ إِذَا أَخْلَاقُهُمْ كَانَتْ خَرَابَا[1]!

قدرة الحضارة الغربيَّة على معالجة أخطائها:

ولكن لكي نكون منصفين يجب أنْ نعترف للحضارة الغربيَّة المعاصرة ـ برغم ماديَّتها ونزعتها النفعية والإباحيَّة ـ أنَّها قادرة على نقد ذاتها، واكتشاف أخطائها، وتشخيص دائها، ووصف دوائها، وبهذا تستطيع ـ إلى حدٍّ كبير ـ أنْ تعالج كثيرًا من الخلل والاضطراب الواقع في مسيرتها أو في كيانها نفسه، وخصوصًا الغرب الليبرالي، المؤمن بالحريات العامة، وبحُرِّيَّة التفكير، وحرِّيَّة التعبير، وحرِّيَّة النقد، من خلال الصحافة والكتب وأجهزة الإعلام والبرلمانات وغيرها.

(١) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (٦٥/١)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

ولهذا سرعان ما يسقط اتجاه ويأتي آخر، وتسقط حكومة وتأتي أخرى.

لقد رأينا مستر تشرشل يقود أُمَّته «بريطانيا» إلى النصر في الحرب العالميَّة الثانية، فلمَّا وضعت الحرب أوزارها، غيَّره الشعب واختار غيره، فللحرب رجالها، وللسلم رجاله.

ولقد رأينا كيف نشأ الاتِّحاد الأوربي، وتطور بسرعة من سوق أوربيَّة مشتركة إلى برلمان أوربي، إلى كيان سياسي يتقارب ويتلاحم يومًا بعد يوم، لم تقف في سبيله عقبة التاريخ، وما كان فيه من صراع دامٍ استمرَّ قرونًا، وسالت فيه دماء عزيزة وغزيرة، نتيجة لخلافات دينيَّة أو عرقية أو إقليميَّة، أو مصلحية، وآخرها الحربان العالميتان اللتان حصدتا الملايين من أبناء أوربَّا بأيديهم بعضهم لبعض، لم تحُل عقبة التاريخ دون الاتحاد، ولا عقبة الواقع وما فيه من تنافس وتناقض وتعارض مصالح، بل تغلَّبوا على ذلك كله في ضوء نظرة موضوعية مستقبلية مستوعبة، وفي ضوء ما نسمِّيه «فقه الموازنات» و«فقه الأولويَّات».

فانظر إلى هذا النجاح الباهر، وانظر في مقابله إلى خيبتنا نحن العرب، حيث لم نستطع إلى اليوم عقْدَ قمة عربيَّة ـ مجرَّد قمة ليومين أو ثلاثة ـ لمناقشة مشكلاتنا الكبرى المعلَّقة، فقد وقفت حرب الخليج الأخيرة عقبة في سبيلنا، وإنْ كنت شخصيًّا لا أعلِّق أملًا على هذه القمم، ولكنَّها مظهر من مظاهر الوَحدة على أيَّة حال.

* * *

QaradawiBooks.com

قرن الحروب والدماء

ومن أبرز معالم هذا القرن: أنَّه قرن الحروب والدماء، الَّتي لم يعرفها قرن من القرون قبل ذلك، ومن قرأ أرقام الضحايا، ارتَعَدَتْ فرائصُه من هولها وضخامتها؛ فكل ضحايا البشـريَّة منذ ابتدأت الخليقة إلى أواخر القرن الماضي، لا تبلغ عشر معشـار ما حصدته هذه الحروب الوحشيَّة من أبناء آدم في هذا القرن وحده.

لا شكَّ أنَّ الصراع بين البشـر قديم، وقد تلا علينا القرآن قصة ابني آدم بالحق، حين قتل الأخ أخاه ابن أمِّه وأبيه، ظلمًا وعدوانًا، قتل قابيلُ هابيلَ ـ كما تسمِّيهما الإسرائيليات ـ وذلك في فجر التاريخ، حين كانت البشريَّة أسـرة واحدة، تتكوَّن من أبوين وأولادهما، وحين كان الإنسان لا يعرف كيف يواري جثة أخيه، فقد كان هذا أوَّل ميت في تاريخ البشر. ومن المؤسـف أنْ يكـون أوَّل ميت قتيـلًا، وأنْ يكون قتلـه بيد أخيه ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠].

واستمرَّ الصراع والقتال بين البشر لأسباب شتَّى، طَوال القرون، وفي مختلف البيئـات والبلـدان، ولا يُعرف عصر خـلا من القتل والقتال وإراقة الدماء، حتَّى قال بعض الأدباء والمُفكِّرين: الإنسـان حيوانٌ مُحارِب!

QaradawiBooks.com

ولكن البشـريَّة في تاريخها الطويـل، لم تعرف قرنًـا وقع فيه من الحروب الكبرى، وجرى فيـه من أنهار الدماء، مثـل ما جرى في هذا القرن الدموي الأحمر.

ذلك أنَّ الحروب في العصور الماضية كانت حروبًا محليَّة، وكانت الأعداد فيها قليلة، وكانت أدوات الحرب محدودة التأثير، فقلَّما يصيب السلاح إلَّا واحدًا من النَّاس إذا جاء ممَّن يُتقِن استعماله، سواء كان ضربًا بالسيف، أم طعنًا بالرمح، أم رميًا بالنبل والسهام، حتَّى الرمي بالمنجنيق ونحوه قلَّما كان يصيب غير المباني والقلاع والتحصينات.

أمَّا حرب هذا العصر، فقد تطوَّرت أسلحتها تطوُّرًا هائلًا، منذ اختراع البارود، ثمَّ الأسـلحة الأتوماتيكيَّة والصاروخيَّة، والدبابات والمدرعات والغواصات والسفن الحربيَّة، والطائرات المقاتلة، وحاملات الطائرات، ثمَّ الأسلحة الكيماويَّة والجرثوميَّة، والأسلحة النوويَّة. وما زال الإنسان ـ في الغرب خاصَّة ـ يطوِّر أسلحته باطِّراد وسـرعة جنونيَّة، حتَّى تغدو الأسلحة الحديثة، بعد مدة قليلة، أسلحة قديمة عفَّى عليها الزمن، يبيعها لأمثالنا الَّذين نشتري مخلفات أسلحته بعشرات المليارات.

كما تطوَّرت مساحة الحرب، فلم تعد بين قبيلتين، ولا بين شعبين، بـل ولا بين عدَّة شـعوب، بل كتـل هائلة من البشـر، انقسـمت إلى معسكرين يقاتل بعضهما بعضًا، حتَّى شملت العالم كلَّه.

وهذا ما شـهدناه في الحربين الكونيَّتين الكبيرتيـن في هذا القرن: الحرب العالميَّة الأولى ما بين سنتي (١٩١٤ ـ ١٩١٨م)، والحرب العالميَّة الثانية ما بين سنتي (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م)، وهي في الأساس بين دول أوربيَّة، ومع كلٍّ منهم حلفاء من أنحاء العالم.

QaradawiBooks.com

ومِمَّا ضاعف حجم الخسـائر البشـريَّة في حروب هذا القرن: زيادة أعداد السكان في قارات العالم كلها؛ ولهذا غدت هذه الآلات العسكريَّة الجهنَّميَّة تقتل الآلاف تلو الآلاف مرَّة واحدة، بل عشـرات الألوف، بل مئات الألـوف، حتَّى كانت الحصيلـة النهائية بالملايين بل بعشـرات الملايين، كما ستقرأ ذلك بالأرقام الَّتي أحصاها أهل الاختصاص.

ومن الفوارق بين هذه الحروب الكونيَّة في هذا القرن، وبين الحروب القديمة: أنَّ الحرب قديمًا، كثيرًا ما كانت تنتهي في يوم أو أيام، كما رأينا في الغزوات النبويَّة في عصر الرسـالة، وفي عصور الفتوح الإسـلاميَّة، ومعارك التاريخ الإسلامي الكبرى، كانت الحرب تنتهي في يوم مثل غزوة بدر أو أحـد أو حنين، وكذلك نرى المعارك الحاسـمة في التاريخ، كان معظمها يحسـم في يوم، مثل معركة اليرموك مع الروم، ومعركة القادسية مع الفرس، ومعركة حطين مع الصليبيِّين، ومعركة عين جالوت مع التتار.

والعرب في الجاهليَّة أطلقـوا على معاركهم التاريخيَّـة كلمة «أيام العرب»؛ لأنَّ الأصل فيهـا أن تقع في يوم واحـد، وإن كان بعضها قد استمر مدة طويلة، مثل حرب البسوس، الَّتي دامت أربعين عامًا، ولكن ليس معنى هذا أنَّ هذه الأربعين عامًا كانت كلهـا حروبًا بين القبيلتين المتصارعتين: بكر وتَغْلب، بل العداوة هي المسـتمرَّة، وقد يقع ما بين الحين والحين اشتباكات تكبر أو تصغر.

أمَّا الحربان العالميتان، فقد اسـتمرَّ كلٌّ منهما نحو خمس سنوات، مشتعلة الأُوَار ملتهبة السعير، تغذِّيها الرُّوح العدائيَّة الكامنة، وينفخ فيها شـيطان الكبر والاسـتعلاء في الأرض، ويُغَذِّيها العلـم بما يخترع من أسلحة جبَّارة، وتُبَرِّرها السياسة بما لها من مطامع وأهواء.

QaradawiBooks.com

قرن الحربين العالميتين:

وقعت الحربان العالميتان الكبريان في حوالي ثلاثين سنة (١٩١٤ ـ ١٩٤٥م) بين أوربا بعضها وبعض: ألمانيا ومن انضم إليها من حلفاء، وإنجلترا ومن كان معها من حلفاء في القارات المختلفة. هذه الحرب لم تكن كحرب البسوس، أو حرب داحس والغبراء عند العرب، ولا كالحرب بين الفرس والروم في أوائل الإسلام، ولا كالحرب بين المسلمين والمشركين في غزوات الرسول وقد بلغت (٢٧) غزوة، وسرايا أصحابه وهي نحو (٥٦) سَرِيَّة، فقد كان كل حصيلة هذه الغزوات والسرايا لا يزيد على ٤٠٠ شهيد وقتيل من المسلمين وخصومهم.

ولم تكن هذه الحرب كالحروب الَّتي وقعت بين المسلمين والفرس أو الروم في أيام الفتح الإسلامي، ولا كالحروب الَّتي نشبت بين الأوربيِّين والمسلمين فيما سُمِّي بالحروب الصليبيَّة، وإن سالت فيها دماء غزيرة، ولا سيَّما من المسلمين على أيدي الصليبيِّين، ولا بين الأوربيِّين بعضهم وبعض، خلال ما سمَّوه القرون الوسطى، ولا سيَّما بين الكاثوليك والبروتستانت، وقد كانت حروبًا قاسية ومجازر رهيبة انتقم فيها بعضهم من بعض بشكل رهيب، وحقد أسود بغيض، قَلَّ أنْ يوجد له نظير.

لقد كانت هذه الحرب أو هاتان الحربان أشدَّ وأنكى من ذلك كلِّه بمئات المرَّات بل آلاف المرَّات، فقد استخدمت فيها أدوات حديثة لم يكن يملكها الإنسان القديم، واستُبيحت فيها الحرمات والدماء، بما لم يُعرف من قبل، واتَّسعت مساحتها، حتَّى شملت العالم كلَّه أو كادت.

QaradawiBooks.com

وقد كان عدد القتلى في الحرب العالميَّة الأولى ـ حسَب إحصاءاتهم أنفسهم ـ نحو تسعة ملايين (٩,٠٠٠,٠٠٠) قتيل.

أمَّا الحرب العالميَّة الثانية ـ وقد تطوَّرت فيها أسلحة القتل والدمار ـ فقد بلغ نحو واحد وستِّين مليونًا من البشر (٦١,٠٠٠,٠٠٠).

وهــذه تفاصيل الضحايــا والقتلى في الحــرب العالميَّــة الثانية بالأرقام:

الاتِّحاد السوفييتي	٢٥,٥٦٨,٠٠٠
الصين	١١,٣٢٤,٠٠٠
ألمانيا	٧,٠٠٠,٠٠٠
بولندا	٦,٨٠٠,٠٠٠
اليابان	١,٨٠٠,٠٠٠
يوغسلافيا	١,٧٠٠,٠٠٠
رومانيا	٩٨٥,٠٠٠
فرنسا	٨١٠,٠٠٠
هذا بالإضافة إلى بريطانيا وبعض الدول الأخرى	
المجموع	**٦١ مليونًا**

وهذه بعض الأرقــام الناطقة بعدد القتلى خــلال القرن المنصرم، المعبِّرة عمَّا اقترفته البشــريَّة من جرائم شــنيعة، في قــرن الإنجازات العلميَّة:

QaradawiBooks.com

الاتحاد السوفييتي: من عام (١٩١٧ ـ ١٩٩١م): (٦٢) مليونًا.

الحرب العالميَّة الثانية: (١٣ ـ ٢٥) مليونًا.

الصين: من عام (١٩٢٣ ـ ١٩٨٧م): (٣٨) مليونًا.

منذ عام (١٩٧١م): (١١٠) مليون حالة إجهاض متعمَّد، قال مؤلِّف الكتاب: وإذا اعتبرت هذه جريمة، تكون أكبر جريمة في التاريخ.

ونحن ـ المسلمين ـ لا نشك في أنَّها جريمة اعتداء على إنسان حي، وإنْ يكن في المرحلة الجنينيَّة، إلَّا أنَّه إنسان!

مجاعة الستينيات: (٢٧) مليونًا.

الحرب العالميَّة الأولى: (١٩١٤ ـ ١٩١٨م): (٩) ملايين.

الحرب العالميَّة الثانية: (٦١) مليونًا.

قتلى الحكومات خلال القرن: (١٧٠) مليونًا (دون الحروب) وهذه هي التفاصيل:

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

البلد	السنة	العدد
الاتِّحاد السوفييتي	١٩١٧ ـ ١٩٨٧	٦١,٩١١,٠٠٠
الصين الشيوعيَّة	١٩٤٩ ـ ١٩٨٧	٣٥,٢٣٦,٠٠٠
ألمانيا النازيَّة	١٩٣٣ ـ ١٩٤٥	٢٠,٩٤٦,٠٠
الصين القوميَّة	١٩٢٨ ـ ١٩٤٩	١٠,٠٧٥,٠٠٠
اليابان	١٩٣٦ ـ ١٩٤٥	٥,٩٦٤,٠٠٠
الثورة الشيوعيَّة في الصين	١٩٢٣ ـ ١٩٤٩	٣,٤٦٦,٠٠
كمبوديا	١٩٧٥ ـ ١٩٧٩	٢,٠٣٥,٠٠٠
تركيا	١٩٠٩ ـ ١٩١٨	١,٨٨٣,٠٠٠
فيتنام	١٩٤٥ ـ ١٩٨٧	١,٦٧٨,٠٠٠
كوريا الشماليَّة	١٩٤٨ ـ ١٩٨٧	١,٦٦٣,٠٠٠
بولندا	١٩٤٥ ـ ١٩٨٧	١,٥٨٥,٠٠٠
باكستان	١٩٥٨ ـ ١٩٨٧	١,٥٠٣,٠٠٠
المكسيك	١٩٠٠ ـ ١٩٢٠	١,٤١٧,٠٠٠
يوغسلافيا	١٩٤٤ ـ ١٩٨٧	١,٠٧٢,٠٠٠
روسيا	١٩٠٩ ـ ١٩١٧	١,٠٦٦,٠٠٠
تركيا أتاتورك	١٩١٩ ـ ١٩٢٣	٨٧٨,٠٠٠
بريطانيا	١٩٠٠ ـ ١٩٨٧	٨١٦,٠٠٠
البرتغال	١٩٢٦ ـ ١٩٨٢	٧٤١,٠٠٠
إندونيسيا	١٩٦٥ ـ ١٩٨٧	٧٢٩,٠٠٠
دول أخرى	١٩٠٠ ـ ١٩٨٧	٢,٧٩٢,٠٠٠
المجموع	**١٩٠٠ ـ ١٩٨٧**	**١٦٩,٢٠٢,٠٠٠**

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الثورة الشيوعيَّة الدمويَّة:

ولا يتسع المجال هنا لنذكر تفاصيل هذه المذابح البشريَّة، وما أريق فيها من دماء، قُدِّمت قربانًا لهذا الوثن الجديد «الشيوعيَّة»، الَّذي أنكر الإلٰه الواحد، وأقام «إلٰهًا جديدًا» هو: المادَّة، ولا شيء غير المادة.

ولا يُستبعد ممَّن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، أن يقترف أشنع الجرائم، وأبشع ألوان الفساد في الأرض، فلا دين يردعه، ولا ضمير يمنعه، ولا خوف من الله تعالى يقمعه.

ولهذا رأينا فرعون الطاغية المتألِّه في الأرض، يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم بالقهر والجبروت، لعدم يقينه بالله وحسابه، كما قال القرآن الكريم: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

ولا عجب أنْ رأينا «لينين» الَّذي أشعل الثورة البلشفيَّة، وأقام الدولة الشيوعيَّة في روسيا، يرتكب من جرائم التقتيل والتذبيح والترويع ما لا يتصوَّره بشر. وأعجب من ذلك أنَّه لم يشعر بأيِّ ألم أو وخْزة ضمير من جراء ما ارتكب، بل كتب في رسالة له إلى «ماكسيم جوركي» يقول: إنَّ قتل ثلاثة أرباع العالم يهون، في سبيل أن يصبح الربع الباقي شيوعيًّا[1]!

---

(١) انظر: الأيديولوجية الانقلابية للدكتور نديم البيطار صـ ٦٨٨، فصل: العنف الانقلابي، نشر المؤسسة الأهلية للطباعة، بيروت، ط١، ١٩٦٤م.

QaradawiBooks.com

يُتَمِّم هذه الصورة القبيحة ما فعله خليفته من بعده «ستالين»، حتَّى بالشيوعيِّين الأقحاح أنصار لينين، وما فعله بالمسلمين من تقتيل وتنكيل وتهجير إلى صحراء سيبيريا.

وعلى كلِّ حال، قد قامت الثورة الشيوعيَّة في روسيا في سنة (١٩١٧م) من هذا القرن، وأقامت الاتِّحاد السوفييتي، وأدخلت فيه عددًا من الجمهوريات الإسلاميَّة العريقة وراء ستارها الحديدي بالقوَّة والغلبة المادِّيَّة، وكانت القوَّة الثانية، والقطب الثاني في العالم، ثمَّ قبل أنْ ينقضي القرن انهار هذا البنيان الضخم، وهو يملك ترسانة عسكريَّة هائلة، من الأسلحة النوويَّة والتدميرية، لأنَّه بُني على شفا جُرُف هارٍ، فانهار بأهله، وكان مصادمًا لفطرة الله الَّتي فطر النَّاس عليها، وما صادم الفطرة لا بدَّ أن تغلبه الفطرة، وأنْ يعاقبه القدر الأعلى، بقدر مصادمته لها.

وقد كانت مصادمة الشيوعيَّة للفطرة مصادمة ضخمة، فكانت العقوبة الإلٰهيَّة على قدرها، سُنَّة الله في خلقه، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلًا.

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

إنجازاتنا في القرن العشرين

- التحرُّر من الاستعمار.
- انتشار التعليم.
- ظهور حركات الإحياء والتجديد الإسلامي.
- مقاومة التغريب والغزو الفكري.
- انطلاق الصحوة الإسلاميَّة.

* * *

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إنجازاتنا في القرن العشرين

هل أنجزنا شيئًا في القرن العشرين؟

أعنـــي بنا: نحن العــرب الَّذين بلغنـــا في آخر القــرن ما يقرب من ثلاثمائة مليون إنســان في الوطن العربي من محيطه الهادر إلى خليجه الثائر، كما يهتف الهاتفون.

ونحن ـ المســلمين ـ الَّذين بلغنا في آخر القرن ـ بما فينا نحن العرب ـ نحو ألــف وثلاثمائة مليون، أي نحو مليــار وثلث المليار مــن البشر.

ولا شكَّ أنَّ القوَّة البشريَّة نعمة عظيمة امتنَّ الله بها على عباده حين قـــال على لســـان نبيِّه شـــعيب لقومـــه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

وقال الشاعر العربي يفتخر ويباهي بكثرة عدد قومه:

مَلَأْنَـا البَـرَّ حتَّـى ضَـاقَ عَنَّـا ... ونحن البَحْـرَ نَمْلَـؤُهُ سَـفِينَا[1]

(١) وهو عمرو بن كلثوم، والبيت من معلقته الشهيرة، انظر: ديوانه صـ ٩١، تحقيق د. إميل بديع يعقوب، نشر دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

وقال الآخر:

تُعيِّرنا أنَّا قليلٌ عَدِيدُنا فقلتُ لها: إنَّ الكرامَ قليلُ(١)

فحاوَل أن يعتذر عن قلَّة العدد.

ولكن لا قيمة لهذه الكثرة البشريَّة إذا لم تنجز من الأعمال الكبيرة ما يكافئ عددها، وإلَّا كانت كمًّا بلا كيف، وأمست «كثرةً كغثاء السَّيْل»، كما جاء في الحديث النبوي الَّذي أخبر عن تداعي الأمم على أُمَّة الإسلام، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، أي أنَّ هذه الأمم الَّتي يدعو بعضها بعضًا، ويتكتل بعضها مع بعض، تريد أن تلتهم الأمة المسلمة التهام الجياع لطعام القصاع. وحين سأل الصحابة الرسول ﷺ: أمِنْ قلَّة نحن يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: «**بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنَّكم غثاء كغثاء السيل**»(٢).

الخير والبركة إذنْ ليس في مجرَّد الكثرة، بل في العمل والإنجاز والعطاء.

وسؤالنا: هل أنجزنا شيئًا؟ يعني: هل أنجزنا شيئًا كبيرًا ذا بال، يُرصد في سجلِّنا، ويرفع من قدرنا، ويجعل لنا في العالمين شأنًا؟

هذا هو المقصود بالإنجازات، فالإنجازات العادية يشترك فيها الذكي والغبي، والضعيف والقوي، والمتقدِّم والمتخلِّف، والعظيم والحقير.

أمَّا ما يُسمَّى «إنجازًا» حقًّا، فهو الأمر المتميِّز، الَّذي يُبهر الأبصار والعقول، ويعترف النَّاس جميعًا لصاحبه: أنَّه أنجز أمرًا مهمًّا.

---

(١) هو السموءل بن عادياء اليهودي. انظر: البيان والتبيين (١٢٨/٣)، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ، وديوانه صنعة عبد الله نفطويه صـ ٦٧، تحقيق د. واضح الصمد، نشر دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م.

(٢) رواه أحمد (٢٢٣٩٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٥٨)، عن ثوبان.

QaradawiBooks.com

فماذا أنجزت أُمَّتُنا في هذا القرن العشرين؟

لا نزاع في أنَّ هناك عددًا من الإنجازات الكبيرة لأُمَّتنا، لا يجوز أنْ نغفلها، أو نُقلِّل من شـأنها، حتَّى لا نصاب بالإحباط والمرارة، وحتَّى لا نكون جائرين على أنفسـنا، فنكون نحن والزمن عليهـا. وجُلُّ هذه الإنجـازات إنَّما هي من عمل الشـعوب والجماهيـر، وليس من عمل الأنظمة الحاكمة، إلَّا ما ندر منها. وهذا ما يُخيفنا ويُفزعنا، فقد جاء في حديث البخاري: «**إذا ضُيِّعت الأمانةُ فانتظِرِ الساعة**». قيل: وكيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «**إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظِر الساعةَ**»(١). ولكل أمة ساعتها الَّتي تذهب فيها عزتها وسيادتها واستقلالها.

وسـنتحدَّث في الفصل التالي عن هذه الإنجـازات، الَّتي نرى لها أهمية خاصَّة في مسيرة أمَّتنا.

* * *

(١) رواه البخاري في العلم (٥٩)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

التحرُّر من الاستعمار

لا شكَّ أنَّ أهم الإنجازات الَّتي أتمَّتها الأُمَّة في هذا القرن، هو: التحرر من «الاستعمار»، الَّذي احتل أرضها، وأذلَّ شعوبها، على نحو ما ذكر القرآن الكريم على لسان ملكة سبأ: ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤]. فهي هنا تشير إلى الملوك إذا دخلوا بلدًا فاتحين مستعمرين؛ فهم يفسدون البلاد، ويُذلُّون العباد.

وقد احتلَّ الاستعمار الغربي ديار المسلمين في المشرق والمغرب، والشمال والجنوب، في غفلة من الشعوب، وتتابع من الكروب، وتخاذل من الحكام، وفرقة في الصف، وغياب عن العصر، ولم ينج من هذا الاستعمار إلَّا اليمن والمملكة العربيَّة السعوديَّة. وأمَّا ما عداهما من بلاد الإسلام في آسيا وأفريقيا: فقد وُزِّع بين الاستعمار البريطاني والفرنسي والإسباني والإيطالي والهولندي، فقد احْتلَّت هولندا الَّتي كان تعدادها في ذلك الوقت خمسة ملايين أو أقل إندونيسيا الَّتي كان تعدادها خمسين مليونًا أو أكثر.

وكان لهذا الاستعمار خطره على البلاد المستعمرة ماديًّا ومعنويًّا؛ فقد امتصَّ خيراتها، ووجَّه اقتصادها لصالحه؛ استفاد من الموادِّ الخام الَّتي

QaradawiBooks.com

وجدها في أرض الإسلام، فأخذها مجانًا أو بأرخص الأسعار، كما استفاد من الأيدي العاملة الَّتي كانت تعمل بأقصى جهدها، ولا تنال من الأجر ما يُحييها حياة طيبة، رغم كدِّ اليمين، وعرق الجبين، وتعب السنين، وجعل من هذه البلاد سوقًا لتوزيع سلعه ومنتجاته، فهو مستفيد من كل ناحية، كالمنشار، يأكل صاعدًا، ويأكل هابطًا.

وقد أشاع أنَّ هذه البلاد لا تصلح إلَّا للزراعة، ليُبعدَها عن الصناعة، ليخلو الجوُّ له وحده فيها، وحتَّى الزراعة لم يحاول أن يُطوِّرها ويُحسِّنها كمًّا ونوعًا.

وقد أدار دولاب التعليم بحيث يصبُّ في النهاية لصالحه، فهو يُخرِّج موظفين يعملون في دوائره ومكاتبه، لا مبتكرين ولا مبدعين، ولا أناسًا ينتمون إلى دينهم، ويعرفون حضارتهم وثقافتهم ورسالتهم التاريخيَّة. فيتخرج الفرد من مدارسه وكلياته، وقد عَلِمَ عن الغرب وتاريخه ورجاله أضعاف ما يعرف عن الشرق المسلم ونبيِّه وكتابه ودعوته، إنَّه يعرف الكثير عن نابليون، ولا يكاد يعرف شيئًا عن محمَّد ﷺ.

وأيُّ معهد لا يخضع لهذه السياسة مثل الأزهر، فهو يعتبر «ناشزًا» ومتمرِّدًا، ويجب أنْ نرسم الخطط على أساس عزله عن الحياة، وتركه يموت بالاختناق والحصار.

وقرَّب الاستعمار الفئات الَّتي تقبل التعاون معه، وأبعد الفئات الَّتي ترفضه، ووضع المناهج، لتغيير هُوِيَّة الأُمَّة، عن طريق إلغاء الشريعة الإسلاميَّة، لتحل محلَّها قوانينه الوضعيَّة، وعن طريق إحلال الأفكار والمفاهيم والتقاليد الغربيَّة، محل المفاهيم والآداب والتقاليد الإسلاميَّة، وسيادة القيم الغربيَّة على القِيَم الإسلاميَّة.

QaradawiBooks.com

ولم تستلم الأُمَّة في مجموعها لهذا الاستعمار يومًا ما، بل قاومت ما وسعتها المقاومة، ربما سكتت فترة من الزمن، حتَّى ربما ظن الظانُّون أنَّها قد استكانت ورضخت للأمر الواقع، ولكنْ سرعان ما تأتي الأحداث، فتهبُّ الأمة هبَّتها، وتشعل ثورتها، وتنطلق كالشهاب الثاقب، يرجم ويحرق.

في مصر قاوم رجال مثل مصطفى كامل ومحمد فريد، وبعدهما سعد زغلول، وثورة سنة (١٩١٩م)، حتَّى حصلت على استقلال منقوص، ثمَّ استكملته بعد ذلك بعد كفاح مُسلَّح خاضه الشباب المسلم في مصر في معارك قناة السويس سنة (١٩٥١م) حتَّى انتهى إلى صورته الأخيرة في عهد الثورة.

في الجزائر قاوم الأمير عبد القادر ورفاقه الفرنسيِّين، وفي ليبيا قاوم الطليانَ عمرُ المختار ورجاله، وفي المغرب عبد الكريم الخطَّابي وأنصاره، وفي فلسطين عز الدين القسام وأبطاله، والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر، وسطَّر كل من هؤلاء صفحات مجيدة في كتاب الجهاد ضدَّ الاستعمار.

وفي الهند ـ قبل التقسيم ـ كان للمسلمين دور كبير في تحرير البلاد من الاستعمار البريطاني، وبرزت رموز إسلاميَّة لها وزنها، مثل مولانا أبي الكلام آزاد، وشيوخ الهند الكبار.

وفي إندونيسيا كان حزب ماشومي، وحزب دار الإسلام وغيرهما ممَّن كان الإسلام هو حافزه الأول.

لقد بلغ الاستعمار ذروته بعد الحرب العالميَّة الأولى، وقد اقتسم «تركة الرجل المريض» كما كانوا يسمُّونها، يعنون بها: بلاد الخلافة

QaradawiBooks.com

العثمانيَّة، وانتدبت «عصبة الأمم» بريطانيا على فلسطين، فكانت فرصة لا تعوَّض لتحقِّق بها وعد «بلفور» وزير خارجيتها، بإقامة وطن قومي لليهود، ولتغرس فيها هؤلاء المستقدمين من أقطار شتَّى، وخصوصًا من روسيا وأوربا الشرقيَّة، وأمسى العالم العربي من محيطه إلى خليجه، والعالم الإسلامي من محيطه إلى محيطه، من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، أو من جاكرتا إلى نواكشوط، تحت وطأة الاستعمار.

وكما قال الشاعر:

مَا طَارَ طَيْرٌ وَارْتَفَعْ إِلَّا كَمَا طَارَ وَقَعْ(١)

فهذا ينطبق على الاستعمار الَّذي ارتفع إلى أقصى ما يمكن في هذا القرن، ثمَّ لم يلبث أن وقع وسقط في القرن نفسه.

انتفضت الشعوب المستعبدة، تطالب بالحرِّيَّة، وهو حقٌّ طبيعي لها، وكما قال شوقي:

يَفْزَعُ الطَّيْرُ للوُثُوبِ مِنَ الْأَسْـ ـرِ فَكَيْفَ الْخَلَائِقُ العُقَلَاءُ(٢)؟!

وتكلَّلت جهود المقاومة المستميتة والكفاح المستمرِّ للاستعمار بالنجاح، برغم عدم تكافؤ القوَّة المادِّيَّة للطرفين، ولكن الحق يجعل صاحب الدار دائمًا أقوى من الغاصب وأسلحته وعدده وعتاده.

---

(١) هو أبو العتاهية. كما في المنتحل للثعالبي (٢٥٧/١)، نشر المطبعة التجارية، الإسكندرية، ١٣١٩هـ ـ ١٩٠١م.

(٢) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٩/١) وفيه: يسكن الوحش، بدل: يفزع الطير.

QaradawiBooks.com

وقد سجَّل التاريخ دور الدوافع الدينيَّة والتيار الديني في تأجيج نار المقاومة ضدَّ المحتل المستعمر، وهذا ما شهدنا بعضه بأعيننا فيما عاصرناه من أحداث، وما قرأناه لمن راقب وأنصف من المؤرخين.

وقد شهد المؤرخ المعروف برنارد لويس في كتابه عن «الغرب والشرق الأوسط» بأثر الحركات الدينيَّة وشيوخ الدين في معارك التحرير في البلاد الإسلاميَّة، ومطاردة الاستعمار الغاصب، حتَّى يخرج من دار الإسلام.

تحرير غير كامل:

ومع ما أثمرته المعارك الضارية الشريفة في مكافحة الاستعمار من تحرير البلاد العربيَّة والإسلاميَّة من الاستعمار الغربي العسكري، نرى هناك شوائب تعكِّر صفو هذا التحرر، إذ لم يكن تحررًا كاملًا، كما تريد الأمة. تتمثل هذه الشوائب فيما يلي:

الاستعمار الشرقي لا يزال قائمًا:

أوَّل هذه الشوائب: أنَّنا تخلَّصنا من الاستعمار الغربي الرأسمالي، ولكنَّنا لم نتحرَّر من الاستعمار الشرقي الشيوعي، وكلاهما استعمار، بل نرى أنَّ الاستعمار الشرقي أشدُّ وأنكى وأقسى من الاستعمار الغربي، فهو يحارب دِين الجماعة، ويحاول تغيير هويتها، وسلخها من ذاتيَّتها.

فقد بقيت الجمهوريات الإسلاميَّة الآسيويَّة العريقة في إسلامها، مثل أوزبكستان وطاجكستان، وكازاخستان، وغيرها تحت سيطرة الاتِّحاد السوفييتي المتسلط، وراء الستار الحديدي الغليظ.

QaradawiBooks.com

وقد كان الكثيرون يعدون هذه الأوطان الإسلاميَّة ضمن الأقليات الإسلاميَّة، فهي أقلية في الاتحاد، ولكنَّها في واقع الأمر، أقطار مستقلَّة ضُمَّت قهرًا إلى السوفييت، ودخلت قسرًا تحت سلطانهم.

وحتى حين انهار الاتِّحاد السوفييتي، وسقطت الشيوعيَّة، وتحررت روسيا من حكم الشيوعيِّين، وتحرَّرت أوربا الشرقيَّة (رومانيا والمجر وبولندا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا وغيرها) من النظام الشيوعي، ومن الحُكَّام الشيوعيِّين، وانضمَّت إلى الأنظمة الديمقراطيَّة، واختار كل شعب الحُكَّام الَّذين يريدهم.

إلَّا الجمهوريَّات الإسلاميَّة، فقد اتَّفق الروس مع الغرب على عدم تغيير الوضع القائم في تلك البلاد، وبقي الشيوعيُّون فيها قابضين على أزِمَّة الأمور، وما ذلك إلَّا للخوف من انبعاث الإسلام وصحوته، وأن يكون هو البديل والوارث للشيوعيَّة في حال سقوطها، وسقوط ممثليها. فكان عجبًا كل العجب أن تسقط الشيوعيَّة في روسيا نفسها، وتبقى مسلطة، شاهرة سيفها، في الجمهوريات الإسلاميَّة وحدها.

الاستعمار الصهيوني:

وثاني هذه الشوائب: أنَّنا تحرَّرنا من الاستعمار الغربي، وابْتُلِينا باستعمار أخبث منه وأخطر، وهو الاستعمار الصهيوني، وهو أعلى مراحل الاستعمار، وشرُّ أنواعه، فهو استعمار استيطاني عدواني، ولكنَّه ليس كالاستعمار الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، فقد كان الاستعمار الفرنسي في الجزائر يزاحم أهل البلاد في أراضيهم وأملاكهم، ويبقيهم معه شركاء. أما الاستعمار الصهيوني، فهو يعمل على اقتلاع أهل البلاد

QaradawiBooks.com

من جذورهم، وتهجيرهم من ديارهم بالعنف والإرهاب والمذابح البشريَّة، ليحتل مكانهم، ويغتصب بلادهم.

ولا ريب أنَّ هذا الاستعمار الخبيث من ثمرات الاستعمار الغربي، فهو الَّذي مهَّد له، وساعده منذ وعد «بلفور» وقبله وبعده، وخصوصًا الاستعمار البريطاني، أيام انتدابه على فلسطين لمدة ثلاثين عامًا. غرس فيها البذرة الصهيونيَّة الخبيثة وتعهَّدها ونمَّاها، في حين حارب أهل فلسطين، وجرَّدهم من كل قوَّة تمكِّنهم من المحافظة على وطنهم، ولم يخرج من فلسطين، إلَّا بعد أن سلَّمها للعصابات الصهيونيَّة، الَّتي أعلنت دولة إسرائيل في (١٥ مايو ١٩٤٨م)، واعترفت بها أمريكا في الحال، ثمَّ روسيا وإنجلترا وبلاد الغرب، وأعلنت أمريكا وروسيا كلتاهما: إنَّ إسرائيل إنَّما خُلقت لتبقى.

وسنعود إلى قضيَّة الصهيونيَّة ومشروعها في الحديث عن «الإخفاقات» وعن «التحدِّيات».

الاستعمار الجديد:

وثالث هذه الشوائب: هو أنَّنا تحرَّرنا من الاستعمار القديم، ولكنَّنا استسلمنا للاستعمار الجديد، الَّذي تمثِّله أمريكا بقوتها العسكريَّة والاقتصاديَّة والعلميَّة، وتفرُّدها بالنفوذ في العالم، بعد سقوط الاتِّحاد السوفييتي. فقد كان وجوده رحمة للشعوب والبلاد المستضعفة، فإنَّ تصارع الأقوياء، دائمًا من مصلحة الضعفاء، وقد كان من دعاء سلفنا الصالح: اللهم اشغل الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين!

QaradawiBooks.com

الاســتعمار الجديد لا يقوم على احتلال الأرض، والتحكم المباشر في الشعب، بل يقوم على إملاء الإرادة من وراء ستار، بالنصائح الملزمة، والتهديدات المبطَّنة، وقد تبعث بقوات عسكريَّة لها، إلى بعض الأقطار بدعوى الاتفاقيات الثنائية، ولا يتصور اتفاق حقيقي بين قوي مستكبر، وضعيف مغلــوب، إنَّما هو الفــرض والإملاء، الَّــذي لا يملك الطرف الضعيف فيه إلَّا أن يقول: سمعنا وأطعنا.

ونفوذ هذا الاســتعمار في المنظَّمات الدوليَّــة، مثل مجلس الأمن، والبنك الدولي، وصنــدوق النقد الدولي، يُمَكِّنه مــن الإغراء والتهديد بالإعطاء والحرمان، لمن يشاء، وكيف يشاء.

وقد يتدخل هذا الاستعمار تدخُّلًا مباشرًا عند اللزوم، كما تمثَّل ذلك في ضربه للسودان ولأفغانستان.

وقــد بلغ مــن قُوَّتــه أن يؤثِّــر في أوربــا رغــم تقدُّمهــا العلمي والتكنولوجي، وهذا ما جعلها تتناسى ما كان بينها من صراع وحروب، وتتنــادى بإقامة «اتِّحاد أوربــي» يجعل منها قوَّة لهــا وزنها الاقتصادي والسياسي في مقابلة القوَّة الأمريكيَّة الرهيبة.

الاستعمار الثقافي:

ورابع هذه الشــوائب: هو أنَّ الاستعمار الغربي العسكري قد حمل صولجانه ورحــل عن البلاد، ولكنَّه أبقى وراءه اســتعمارًا، أشــدَّ منه خطرًا، وأعمق في الحياة أثرًا، وهو «الاســتعمار الثقافي» وقد يُعبَّر عنه بـ «الغزو الفكري».

وهذا الاســتعمار لا يحتلُّ الأرض ولا السهول أو الجبال، بل يحتلُّ العقول والأنفس، ويؤثِّــر في الأفــكار والمفاهيم، والقيــم والمعايير،

QaradawiBooks.com

والأذواق والميول، والأخلاق والسلوك، والتشريعات والتقاليد، وفي الحياة المعنويَّة للأُمَّة كلها.

وسنعود للحديث عن هذا اللون من الاستعمار، عندما نتحدَّث عن مقاومة التغريب؛ بالتفصيل المناسب.

الإسلاميون يزرعون والعِلمانيون يحصدون:

وخامس هذه الشوائب: أنَّ الإسلام كان هو المحرك للطاقات، والمعبِّئ للقوى والقدرات، والمُوقِد لحماس الشعوب، والمقوِّي لإرادتها في البذل والتضحية، والصمود أمام بطش الاستعمار وجبروته وحديده وناره، وكان علماء الدين ودعاة الإسلام هم الَّذين يوقظون هذه الشعوب ويلهبون صدورها للدفاع عن حوزتها، وطلب استقلالها وحريتها. وخاضت الشعوب معارك التحرير بدوافع إسلاميَّة، وحوافز إيمانيَّة، حتَّى انتصرت في معركتها، وكسبت سيادتها واستقلال أرضها.

وكان من المفترض أن يكون الإسلام الَّذي قاد معركة التحرير والدفاع، هو الَّذي يقطف ثمرة النصر، فتكون له السيادة، ولشريعته السلطان والتمكين.

ولكن الَّذي حدث في الأقطار الإسلاميَّة كلِّها: أنَّ الإسلاميِّين كانوا يزرعون ويتعبون، والعِلمانيِّين يَجْنُون ويحصدون؛ فهم مدرَّبون تدريبًا عاليًا على سرقة الثورات الشعبيَّة، وتحصيل الثمرات لهم، على حين يُحرم أصحاب الحقِّ الطيِّبون؛ لأنهم لم يدركوا ألاعيب هؤلاء، فأُتُوا من حيث لا يحتسبون، وسُرق مجهودهم وجهادهم من حيث لا يشعرون.

QaradawiBooks.com

وهذا ثابت كما ذكرت في كل بلاد الإسلام، حتَّى تركيا الَّتي كانت أوَّل بلـد تحكمه العِلمانيَّة، ويسـيطر عليه العِلمانيـون، بعد حربه ضدَّ الحلفاء، فقد كان الشـعب التركي يحـارب بروح إسـلاميَّة، أعداء الله والدِّين والوطن، ويحسـب أنَّ أتاتورك يقاتل من أجل الإسـلام، وكان المسـلمون في أنحاء العالم يظنُّونه كذلك، بل كانوا يُسـمُّونه: «الغازي مصطفى كمال»، وأنشأ له شوقي أمير شعراء العرب قصيدةً هنَّأه فيها بعد إحدى معاركه قال في مطلعها:

اللهُ أَكْبَرُ كَمْ فِي الْفَتْحِ مِنْ عَجَبِ ... يَا خَالِدَ التُّرْكِ جَدِّدْ خَالِدَ الْعَرَبِ[1]!

وخاب ظنُّ شوقي وظنُّ المسـلمين جميعًا، حين انكشف اللثام عن عِلمانيٍّ حقيقيٍّ قبيح الوجه، أخذ حَـبَّ الحَصِيد كلَّه له، وترك الزَّارِعين والغارسين، وليس في قبضتهم غير الريح.

* * *

(١) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (٥٩/١).

QaradawiBooks.com

انتشار التعليم

ومن أبرز الإنجازات الَّتي تمَّت خلال القرن: انتشار التعليم في البلاد الإسلاميَّة، حتَّى لا تكاد توجد قرية، إلَّا وفيها مدرسة ابتدائيَّة، وربَّما إعداديَّة، يتعلَّم فيها البنون والبنات، وفي القرى الأكبر، والمدن توجد المدارس الثانويَّة، والمدارس المهنيَّة.

وفي العواصم الكبرى للإقليم ـ وربَّما المحافظات المختلفة ـ أنشئت الجامعات والمعاهد العالية، لتخريج المهنيِّين والمثقَّفين، من الأطبَّاء والصيادلة والرياضيِّين، والمهندسين والعِلْميِّين، والزراعيِّين، والمحاسبين والمعلِّمين، وغيرهم. هناك في البلاد العربيَّة أكثر من مائة جامعة يضمُّها «اتِّحاد الجامعات العربيَّة»، وفي البلاد الإسلاميَّة أضعاف ذلك، تضمُّ الكثير منها «رابطة الجامعات الإسلاميَّة».

وتخرَّجت أعدادٌ كبيرة من هؤلاء، كما انخفضت نسبة الأُمِّيَّة، وإن كان لا يزال هناك بعض الأقطار الإسلاميَّة في بداية الطريق.

وبعض هؤلاء هاجروا إلى بلاد الغرب لاستكمال تعليمهم، ثمَّ طاب لهم المقام فاستقروا فيه، إذ أغرتهم المؤسسات والجامعات، فاستبقوهم في القفص الذهبي، للاستفادة من نبوغهم وتفوُّقهم، في حين أنَّ بلادهم أحوج ما تكون إلى كفاءتهم.

QaradawiBooks.com

ومع هذا كلِّه، هناك مآخذُ على التعليم في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة، من ناحية الأهداف، ومن ناحية الطرائق والآليَّات، ومن ناحية الفلسفة الَّتي توجِّهه.

لا زال هذا التعليم في كثير من البلاد الإسلاميَّة مقسمًا إلى قسمين: ديني ومدني؛ فالدين هو الَّذي يحافظ على هوية الأُمَّة، وقيمها وثقافتها، وإن كان يؤخذ عليه أنَّه غالبًا ما يعيش في الماضي أكثر من الحاضر، وفي التراث أكثر من العصر.

والمدني هو التعليم العصري، الَّذي يُعلِّم العلوم العصريَّة طبيعيَّة وإنسانيَّة، ويستخدم الوسائل التربويَّة المعاصرة، ويقيم أبنية تعليمية مجهَّزة بأدوات العصر من مختبرات ومعينات سمعية وبصرية وغيرها.

وانقسام التعليم في البلد الواحد إلى هذين النوعين، أشبه بانقسام القضاء إلى شرعي ومدني أيضًا، وهو دليل على أنَّ الأُمَّة لا تزال تعاني مرض الفصام وازدواجية الحياة.

ولا زال التعليم بصفة عامَّة يحتاج إلى فلسفة واضحة ترتكز عليها أنظمته وبرامجه، ويستند إليها مُعلِّموه وموجِّهوه، والمشرفون عليه؛ فما هو الإنسان الَّذي ننشده بالتعليم والتربية؟ فالماركسيَّة مثلًا تنشد إنسانًا معينًا، وكذلك الليبراليَّة أو الرأسماليَّة تنشد إنسانًا معينًا، والوجودية تنشد إنسانًا معينًا، فأي إنسان ننشده نحن المسلمين، ونريد أن نربِّيه؟

لا شكَّ أنَّه إنسان متميِّز عن هؤلاء وأولئك جميعًا، إنَّه الإنسان الصالح في نفسه، البارُّ بأسرته، النافع لمجتمعه، المنتمي لأُمَّته، المعتز برسالته: رسالة الهداية والإصلاح للبشريَّة جمعاء. إنَّه الإنسان الناجي من الخُسْر

QaradawiBooks.com

في سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

هذا الإنسان يأخذ من علوم العصر ما وسعه أن يأخذ، ويجتهد أنْ يتفوَّق فيها ما استطاع، ولكنَّه يسخِّرها لهدف كبير، هو خدمة الحق والخير والنفع للبشريَّة. وهو يدرس قوانينها على أنَّها سنن الله في الكائنات، لا تجد لها تبديلًا ولا تحويلًا.

وهو يستفيد من تقنيات العصر وآليَّاته، ولكن لا ينسى الهدف الَّذي يحيا من أجله.

وهذا الروح هو الَّذي ينقص التعليم في أوطاننا المسلمة، فإنَّ الَّذي وضع لبناته الأولى كان المستعمر، ففرَّغه من الأهداف الإيمانيَّة والأخلاقيَّة والرساليَّة. ولقد قرَّر اتحاد الجامعات العربيَّة في إحدى دوراته ـ وكانت في الدوحة عاصمة قطر ـ ضرورة تدريس مادة «الثقافة الإسلاميَّة» في الجامعات كلِّها، في كل الكليَّات وكل الأقسام، أدبية أو علميَّة، للمسلمين وغير المسلمين.

وذلك لِمَا لوحظ أنَّ كثيرًا من الخريجين يتخرَّجون في تخصُّصاتهم المختلفة، ولا يكادون يعرفون شيئًا عن ثقافتهم أو ثقافة أُمَّتهم الأصلية، ولا يعرفون الخطوط العريضة لهذه الثقافة الَّتي تُعبِّر عن هويتهم وأصالتهم.

فكان لا بدَّ من إعطاء جرعة ثقافيَّة مناسبة، تلائم الطالب الجامعي في سنِّه ومعرفته وتطلُّعه، وتجيب عن التساؤلات الَّتي يطرحها، أو تُطرح عليه، وتهتم بالأساسيات لا بالهامشيَّات، بالأصول والكليَّات لا بالفروع والجزئيَّات، بحيث يأخذ الطالب منها فكرة أو أفكارًا كُلِّيَّة عن مقومات

QaradawiBooks.com

الإسلام وخصائصه العامَّة، وأهدافه في تكوين الفرد الصالح، والأسرة السعيدة، والمجتمع الفاضل، والأمة الواحدة، والعالَم المتعارف، المتعاون على البر والتقوى، وخير البشريَّة.

يعرف ذلك المسلم وغير المسلم، أما المسلم فمن باب الفقه في دينه الَّذي آمن به، والتزم بتعاليمه. وأمَّا غير المسلم فمن باب الثقافة الَّتي لا يجوز أنْ يجهلها؛ لأنَّها ثقافة مجتمعه كلِّه؛ فالإسلام ـ بالنسبة للمسلم ـ عقيدة وعبادة، وهو ـ بالنسبة لغير المسلم ـ ثقافة وحضارة، ولهذا كان الزعيم المصري المسيحي المعروف مكرم عبيد يقول: أنا مسيحي دينًا، مسلم وطنًا.

وعلى كلِّ حال، أنشأ اتحاد الجامعات العربيَّة لجنة من عدَّة أشخاص من بلاد شتَّى لوضع تصوُّر كامل عن هذه المادَّة أو هذا المقرَّر، كنت عضوًا فيها، واجتمعنا في الرياض لعدَّة أيام برئاسة الأستاذ الدكتور محمَّد مرسي أحمد الأمين العام للاتحاد، ووضعنا برنامجًا مفصَّلًا ـ إلى حدٍّ كبير ـ لهذه المادَّة، ثمَّ نام الموضوع بعد ذلك، ولم يَصْحُ إلى اليوم.

هذا جزء من الفلسفة الَّتي تجب مراعاتها في التعليم، ولكنَّها للأسف لم تأخذ حقَّها.

ولو غضضنا الطرف عن هذه الفلسفة المفتقدة، لوجدنا أنَّ هذا التعليم ـ إذا قيس بمثله في البلاد المتقدِّمة ـ ينقصه أشياء كبيرة وكثيرة جدًّا.

فهو من حيث الكمُّ لا يُغَطِّي حاجات النَّاس في المناطق المختلفة، فلا الأبنية كافية، ولا الأجهزة والمُعدَّات متطوِّرة بالقدر المطلوب، ولا المعلِّمون مؤهَّلون كما ينبغي، ولا البرامج تتطوَّر التطوُّر المنشود، ولا توجد آليَّات للتقويم والمراجعة المفروضة بين الحين والحين، لنرى

QaradawiBooks.com

فيم نجحنا، وفيم أخفقنا، وإلى أي مدى انتهى نجاحنا وإخفاقنا، وكيف السبيل إلى زيادة النجاح، وإلى تفادي الإخفاق، «فهناك بلاد لم تصلها المدارس، والبلاد الَّتي وصلتها المدارس لا تجد فيها أماكن كافية لأولادها، وتستخدم هذه المدارس لأكثر من مرَّة في اليوم».

ولقد رأينا أكبر دولة متقدمة في العالم منذ عدَّة سنوات تفتح الباب لنقد نظامها التعليمي، وظهر في ذلك كتاب شهير، بعنوان: «أُمَّة على حافة الخطر» ترجمه للعربيَّة صديقنا المربِّي الفاضل الدكتور يوسف عبد المعطي بالكويت. وطلبت أمريكا من اليابانيِّين أن ينتقدوا نظامها التعليمي، ويكشفوا عن نقاط ضعفه، وما يصفونه من علاج له.

ونحن مستريحون لأوضاعنا، ساكتون على عيوبها، وكأنَّها على أحسن ما يُرام. وبعض النَّاس يعتقد أنَّ نقْد هذه الأنظمة إنَّما هو نقْد للملك أو الرئيس أو الأمير، ناهيك بالوزير المسؤول المباشر وأجهزته.

لقد كثرت الشكوى من الوزارات والمؤسسات العامَّة والخاصَّة من ضحالة مستوى الخريجين الجامعيين، وضعفهم العام في المعرفة، إلى جوار ضعفهم في تخصُّصهم. وقد أفرد الصحفي المعروف صلاح منتصر عموده اليومي في الأهرام عدَّة أيامٍ منذ سنوات للحديث عن هذا الضعف، بل هذا الانحطاط، حتَّى في الكتابة العاديَّة، وقد ذكر نموذجًا صارخًا لذلك من جامعي أرسل إليه يطلب المعونة في تعيينه، فكتب في رسالته «نحن» وهي ضمير الجمع للمتكلم هكذا: «نحنوا»! فتصوَّر هبوط المستوى إلى هذا الحدِّ المُفْزِع. أمَّا «النحو» فهو أمر لم يسمعوا به، ورفعُ المجرور، وجرُّ المرفوع شائع عند الجميع، بل هم لا يعرفون مرفوعًا من مجرور أو منصوب. ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله!

QaradawiBooks.com

وهناك موضوع أجمع أهل الاختصاص على أنَّنا مفرِّطون فيه غاية التفريط، وأعني به: موضوع «البحوث العلميَّة»، والعمل على تطويرها وتوسيعها وتعميقها، وتجنيد الطاقات البشريَّة لها، وتخصيص الميزانيات اللازمة لها، وإعطائها القدرة على سرعة الحركة بحُرِّيَّة واستقلاليَّة، إنَّنا نقرأ ما يُرصد لهذا الجانب في بلاد العالم المتقدم ومنها إسرائيل، وما نرصده نحن له، فنتحسر على أنفسنا وتخلُّفنا.

إنَّ العالم يتحدَّث عن «الموجة الثالثة» من الاقتصاد العالمي، ونحن لا زلنا في إطار الموجة الأولى، يتحدَّثون عن عصر الصناعة الثالث، ونحن لم نُتقن آليات عصر الصناعة الأول.

ألا يوجد عندنا نوابغ وعباقرة؟ وقد استفاد الغرب من كثير منهم، جذبهم إليه بما يتيحه لهم من أمن واستقرار وغنى، ونحن ـ للأسف ـ نرى أنفسنا قوَّة طاردة، بقدر ما نرى الغرب قوَّة جاذبة.

ألا يوجد عندنا مال؟ بلى، وكثيرًا ما نصرفه فيما يُسَمِّيه الفقهاء «التحسينات» في حين ندع «الضروريَّات». بل قد نصرفه للأسف في «المحظورات» المُحرَّمات دينيًّا، والمُحرَّمات أخلاقيًّا، والمُحرَّمات اقتصاديًّا. وهو ما سمَّاه القرآن «التبذير»، وجاء فيه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

إنَّ الَّذي ينقصنا هو حسن توظيف طاقاتنا البشريَّة، وطاقاتنا الماديَّة، والقدرة على تحريكها وتفعيلها، وإزالة العقبات من طريقها، حتَّى تحقِّق لأُمَّتِها ما يُناط بها من آمال.

* * *

QaradawiBooks.com

ظهور حركات التجديد والإحياء الإسلامي

ومن إنجازاتنا في هذا القرن: ظهور حركات التجديد والإحياء الإسلاميَّة، الَّتي تسعى إلى النهوض بالأُمَّة، لإحياء مواتها، وجمع شتاتها، وتجديد شبابها، وتحرير عقولها من الجمود، وعزائمها من الوهن، وضمائرها من السقم، وذلك عن طريق تجديد الدِّين، الَّذي هو جوهر وجودها، وسرُّ بقائها، ومصدر عِزَّتها وفخرها.

وقد حفظت هذه الأُمَّة عن نبيِّها حديثه الشريف: «**إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سَنَة من يُجدِّد لها دينها**» رواه أبو داود وغيره[1]، وقد بيَّن لنا هذا الحديث شرعيَّة التجديد للدين، والمعنى: تجديد الفهم له، وتجديد الإيمان به، وتجديد الالتزام بتعاليمه، وتجديد الدعوة إليه. وليس معناه إصدار طبعة جديدة من الدين، تُغيِّر «الثوابت» وتجتهد فيما لا يقبل الاجتهاد من «القطعيَّات» الَّتي تُجَسِّد وَحْدة الأمة في عقائدها وعباداتها وتشريعاتها وأخلاقياتها.

لهذا أعني بحركات التجديد: الَّتي تُمَثِّل الإسلام الحقيقي بشموله ووسطيته وعمق نظرته.

(١) سبق تخريجه صـ١١.

QaradawiBooks.com

حركة الإخوان المسلمين:

فقامت حركة «الإخوان المسلمين» الَّتي انطلقت من مصر سنة (١٩٢٨م) على يد الشابِّ الملهَم حسن البنَّا، وامتدَّت بعد ذلك لتشمل العالَم العربي، ثمَّ لتمتد اليوم في أواخر القرن ليكون لها وجود في أكثر من سبعين دولة في العالم الإسلامي وخارجه(١).

ولقد عملت الحركة على تكوين جيل أو أجيال جديدة، تُحسن الفهم للإسلام ـ بعد حملات التضليل والغزو الفكري، والاستعمار الثقافي، الَّتي لوَّثت العقل المسلم ـ وتُحسن الإيمان به هدفًا للأُمَّة، ومرجعًا لها، تهتدي به إذا ضلَّت، وتحتكم إليه إذا اختلفت، وتُحسن العمل به والاستقامة على مناهجه في شؤون حياتها كلِّها، فيصلح منها ما فسد، ويُقوِّم منها ما اعوج، ويُقوِّي منها ما ضعف، ويُزكِّي منها ما دُسِّي، وتُحسن العمل له والجهاد في سبيله، بكلِّ وسيلة مشروعة، علميَّة أو عمليَّة، مادِّيَّة أو روحيَّة، حتَّى تكون كلمته هي العليا، وشريعته هي الحاكمة، وأُمَّته هي السائدة.

وقد استشهد مؤسِّس الحركة في سبيلها، واستشهد بعده رجال مخلصون من أبنائها، من أمثال عبد القادر عودة، ومحمد فرغلي، ويوسف طلعت، وسيِّد قطب، وكمال السنانيري، وغيرهم، كما استشهد تحت آلات التعذيب عدد من الشباب الصادقين الصابرين، رأيت بعضهم بعيني، وقد لُفَّ في بطانية ـ بعد أنْ خرَّ صريع العذاب الطويل ـ ليُوارى في الصحراء في سواد الليل، ويُكتب أمام اسمِه في السجن: أُفرج عنه يوم كذا!

---

(١) راجع كتابنا: الإخوان المسلمون سبعون عامًا في الدعوة والتربية والجهاد، نشر مكتبة وهبة، القاهرة.

QaradawiBooks.com

وهناك ثلاثة وعشرون رجلًا في «ليمان طره» قتلوا برصاص حُرَّاسهم في السجن، لا لشيء إلَّا أنَّهم طالبوا بتحسين معيشتهم في السجن، والسماح لأهليهم بزيارتهم.

ولقي آلاف مؤلَّفة من أبناء الحركة في عهد الملكيَّة، وعهد الثورة في مصر، ما لقوا من أذًى واضطهاد، وتنكيل وتعذيب، في بطون السجون والمعتقلات، وقاست عائلاتهم ما قاست من جرَّاء التشريد والتجويع والمصادرة، والفصل التعسُّفي من العمل، أو منعهم منه، وسدِّ أبوابه في وجوههم.

ومع هذا كلِّه بقيت الحركة، حيَّة لم تمت، قويَّة لم تهن، متحركة لم تتوقف، آملة لم تيئس، على الرغم ممَّا أصابها من تعويق، أخَّر سيرها، وأثَّر في امتدادها، بغير شكٍّ، وقد أصبح للجماعة امتداد ووجود في أكثر من سبعين قُطرًا في أنحاء العالم، ولهم أتباع يقلون أو يكثرون، يعملون تحت واجهات شتَّى، وبعضهم يعمل علانية، بأسماء أحزاب مجازة قانونًا، كما في الأردن واليمن وإندونيسيا.

ويبدو للمراقب المتأمل أنَّ قاعدة الحركة تتسع وتقوى، وإن لم تقابلها قوَّة مكافئة في القمة والقيادة، على أنَّ القيادة في السنوات الأخيرة أثبتت قدرتها على التطور والتجديد في قضيتين مهمتين، وهما: التعددية والمرأة.

حركة الجماعة الإسلاميَّة:

وقامت في شبه القارة الهنديَّة: حركة «الجماعة الإسلاميَّة» الَّتي أسَّسها العلامة أبو الأعلى المودودي سنة (١٩٤١م) معلنة عن أهدافها، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بمعنى أن يُعبِّد النَّاس

QaradawiBooks.com

أنفسهم لله تعالى في كل شؤون حياتهم، فلا يرضوا بغير الله ربًّا، ولا يبتغوا غير الله حكمًا، ولا يتَّخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، يشرِّعون لهم ويحلِّلون ويحرِّمون، وبهذا يغتصبون حقَّ «الحاكميَّة» التشريعيَّة من الله، ويعطونه لأنفسهم.

كما دعت الجماعة إلى محاربة «الجاهليَّة» بكلِّ معانيها، وانتزاع السلطان من أيدي أهلها، ووضعها في يد الَّذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا.

وأكَّدت دعوة الجماعة الإسلاميَّة أن يُطهِّر النَّاس عقائدهم من الشرك، وعباداتهم من الرياء، وأخلاقهم من النفاق، وحياتهم من التناقض.

كان الإمام المودودي يملك ـ مع إيمانه بربِّه واعتزازه بدينه ـ عقلًا قادرًا على التنظير، وثقافة واسعة، ورؤية واضحة، وهمَّة عالية، وإرادة صادقة، وقد رأى أنَّ البشريَّة في قرن تفوق العلم والتقنية أحوج ما تكون إلى «نظرية راشدة» وإلى «جماعة صالحة» تتخذ منها الأسوة والمثل، وليس هناك أرشد من الإسلام، ولا أصلح من الملتزمين به.

وبذل الأستاذ جهدًا مشكورًا، ليبين شمول الإسلام لكل جوانب الحياة، من العقيدة والعبادة، ومن الأخلاق والآداب، ومن الشرائع والأنظمة، ويجب أنْ يكون الحكم في ذلك كله لله، أي لشرعه ﷻ، ولهذا أكَّد فكرة «الحاكميَّة» لله، الَّذي اقتبسها منه الشهيد سيِّد قطب، وأضفى عليها من بيانه وروحه ما زادها وضوحًا ونصاعة.

وقد زعم بعض الكتاب الَّذين لم يدرسوا الثقافة الإسلاميَّة: أنَّ المودودي اخترع هذه «الحاكميَّة» ولم يكن لها وجود سابق في «الفكر

QaradawiBooks.com

الإسـلامي» إلَّا عند الخوارج. وهـذا غير صحيح، فقـد وجدنا علماء الأصول، يبحثون في كتبهم عـن مقدِّمات يرونهـا ضروريَّة في العلم، تتعلق بـ «الحكم»، ومن مباحث الحكم عندهـم «الحاكم». وقد اتفقوا علـى أنَّ «الحاكم» هـو الله تعالى، والرسـول إنَّما هو مبلـغ عن ربِّه، والمجتهد إنَّما هو مستنبط أو موضِّح ومفسِّر لحكم الشارع سبحانه.

قال شارح «مُسَلَّم الثبوت» في أصول الفقه: «وهذا مجمع عليه بيننا وبين المعتزلـة»[1]، فالمسـلمون جميعًا متفقون علـى أنَّ الحاكم ـ أي المشـرع الأعلى ـ هو الله. وقد قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

سـاندَتْ الأسـتاذ المودودي في دعوتـه نخبة متميِّـزة من مثقفي المسـلمين، الملتزمين بدينهم، الَّذين آمنوا معه بالإسـلام دعوة ودولة، وعبادة ومعاملة، وعقيدة ونظامًا. وكتب في ذلك المودودي كتبه القيِّمة، ورسـائله النيِّرة، الَّتي تُرجم جُلُّها إلى العربيَّة وإلى عـدَّة لغات عالميَّة وإسـلاميَّة، كما أصدر كتابه الشـهير في تفسـير القرآن الكريم، وسمَّاه «تفهيم القرآن».

كانت الجماعة الإسلاميَّة في عهد المودودي، تعتمد على الخاصَّة أو الصفوة، ولم تكن تهتم كثيرًا بالجماهير والقواعد الشعبيَّة، إلَّا فيما يتعلَّق بالطلاب، فقد كانت لها بهم عناية مشهودة.

ولكن يبدو أنَّهم بعد ذلك، وبعد اختلاطهم بالإخوان المسلمين في بلاد العرب، بدؤوا يهتَّمون بالشـعب، وينزلون إلى سـاحته، ويجنِّدونه

(١) انظر: فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت (٢٣/١)، تحقيق عبد الله محمود محمد عمر، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

QaradawiBooks.com

معهم في معاركهم ضد أعداء الأُمَّة في الداخل والخارج. وهذا ما لاحظناه في مسيرتهم في السنين الأخيرة في عهد إمارة القاضي حسين أحمد.

زرت الجماعة الإسلاميَّة في مقر قيادتها في «لاهور» سنة (١٩٦٩م)، وكان الإمام المودودي حيًا، وسعدت بلقائه في بيته وفي دار الجماعة، وفي عددٍ من بيوت إخوانه الَّذين أقاموا ولائم الغداء والعشاء، احتفالًا بي. وكنت لقيته قبل ذلك بالقاهرة، وبالدوحة، ولقيته آخر مرَّة في أمريكا وهو يعالج هناك، وقلت للإخوة في لاهور: أنتم الإخوان المسلمون في باكستان، ونحن الجماعة الإسلاميَّة في البلاد العربيَّة.

والحقُّ أنَّه لا يوجد فرق في الأهداف بين الإخوان والجماعة، إلَّا أنَّ الإخوان أكثر اهتمامًا بالتربية، والجماعة أكثر اهتمامًا بالفكر، وأنَّ النزعة الروحيَّة في الإخوان أقوى، وأدبيات الإخوان تساعد على ذلك، ولعل شخصيَّة كلٍّ من القائدين لها تأثيرها في قاعدة كلٍّ منهما، فالمودودي مُفَكِّر أكثر منه مُرَبِّيًا، والبنَّا مربٍّ أكثر منه مفكِّرًا. كما أنَّ عناية الإخوان بالجانب الجهادي أوضح منها عند الجماعة، والعناية بالجماهير أيضًا، كما ذكرنا من قبل.

وقد بدأت هذه الفروق الطفيفة تضيق بحكم التلاحم والتلاقي في ميدان العمل المشترك، حتَّى تكاد تذوب الفوارق بين الجماعتين.

جمعيَّة علماء الجزائر:

وقامت في الجزائر حركة إسلاميَّة تجديديَّة قادها العالم السلفي المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس، الَّذي أسَّس مع جماعة من إخوانه العلماء الراشدين: جمعيَّة علماء الجزائر. وكان عملها إنشاء

QaradawiBooks.com

المدارس الَّتي تردُّ الشعب إلى إسلامه وعروبته، وتقاوم تيار «الفرنسة» الَّذي تبنَّته الدولة المستعمرة «فرنسا»، لتغيِّر من هوية الشعب وانتمائه وولائه، وأساس هويته بلا نزاع هو: الإسلام دينًا، والعربيَّة لغةً.

لذا عمل الشيخ وجمعيَّته على إعادة انتماء الشعب، وإرجاع هويته إليه، عن طريق المسجد والمدرسة والصحيفة، والنشيد. ولا غرو أنْ بدأ الشعب كله ينشد معه:

شَعْبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ   وَإِلَى الْعُرُوبَةِ يَنْتَسِبْ
مَنْ قَالَ: حَادَ عَنَ اصْلِهِ   أَوْ قَالَ: مَاتَ، فَقَدْ كَذَبْ(١)

كان الشيخ ابن باديس يُفَسِّر القرآن في المسجد، ويصدر مجلة «الشهاب»، ويكتب فيها هو وإخوانه من أمثال العلامة الأديب البارع الشيخ محمَّد البَشير الإبراهيمي، الَّذي ظلَّ يكتب بعد ذلك في مجلة «البصائر» مقالاته المضيئة الملتهبة، الَّتي كانت تشع نورًا، وتشتعل نارًا. وكان يتحرك في الولايات المختلفة ليحدِّث أبناء الشعب، ويجمعهم على كلمة الإيمان، وتحت لواء الإسلام.

ولا شكَّ أنَّ هذه الحركة هي الَّتي أيقظت الشعب الجزائري وهيأته عقليًّا ونفسيًّا، ليقوم بثورته الفذة الَّتي حررته من الاستعمار الفرنسي الاستيطاني الخبيث.

ومن آثارها «ملتقيات الفكر الإسلامي» الشهيرة بعد استقلال الجزائر.

---

(١) انظر: آثار ابن باديس (٣٣٤/٤)، تحقيق عمار طالبي، نشر دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط١، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

QaradawiBooks.com

حركة النور:

وقام للإسلام عمل في «تركيا» الَّتي سيطر عليها العِلمانيون بقيادة أتاتورك، وألغوا فيها كل مظاهر الإسلام الحيَّة من الخلافة، وأحكام الشريعة، حتَّى في الأحوال الشخصيَّة، وفي الثقافة والتعليم، وفي التقاليد ومظاهر الاحتشام للمرأة، وفرض على الشعب بالنار والحديد ألَّا يلبس الرجل على رأسه غير القبعة، ولو كان شيخًا دينيًّا، يسمح له فقط أنْ يلبس العمامة عند الإمامة والخطابة داخل المسجد. ولا يجوز للمرأة أن تلبس الحجاب، ولا يُتعلم الدين في المدرسة. وأكثر من ذلك محاربة الحرف العربي الَّذي كانت تكتب به اللغة التركيَّة، ولها تراث هائل فيه، ويستبدل به الحرف اللاتيني، وأدهى من ذلك أن يمنع الأذان في المساجد باللغة العربيَّة.

كانت محنة قاسية على الشعب التركي، الَّذي قاوم ما استطاع، وسقط منه الشهداء تلو الشهداء، ثمَّ غُلب على أمره، وانتصرت القوَّة على الحقِّ إلى أن يشاء الله.

في هذا الوقت العصيب، والزمن الرهيب قام رجل رباني بحركة إسلاميَّة تقوم على استبقاء الإيمان في صدور الناس، وإشعال جذوته في القلوب، حتَّى لا تخبو، وإذا بقي الإيمان كان جديرًا أن ينهض الشعب يومًا على أساس من هداه، وقبس من سناه.

لقد قام العلَّامة بديع الزمان سعيد النورسي بإنشاء «حركة النور»، وهي حركة تثقيفيَّة تربويَّة، تقوم على تنوير العقول، وإيقاظ القلوب، وشحذ الهمم، بثقافة إيمانيَّة، صحيحة المضمون، قويَّة التأثير.

QaradawiBooks.com

وقد حوكم الشيخ أمام محاكم أتاتورك، وحكم عليه بالسجن، ولم يبال الشيخ بالسـجن، وقال ما قال يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسـف: ٣٣]. وظلَّ مثابرًا على دعوتــه، حتَّى وافاه الأجل سنة (١٩٦٠م).

الحركة الإسلاميَّة الشاملة في تركيا بقيادة نجم الدين أربكان:

ولا ريب أنَّ من آثار حركة الشيخ النورسـي، وتفاعل حركة الشيخ البنَّا والمودودي: أن قامت الحركة الإسـلاميَّة الشـاملة، بقيادة الرجل الصلب المحنك الناضج الدكتور نجـم الدين أربكان، الَّتي هزت قوائم العِلمانيَّة المتسلِّطة على تركيا، والَّتي يسندها جيش فُرِّغ زمن طويل، من كل العناصر الإسلاميَّة، والتوجهات الإسلاميَّة.

لقد أسَّـس «حزب السـلامة»، ووصل به إلى البرلمان والوزارة ثمَّ منعوه، فأنشـأ بعد مدة «حزب الرفاه» ووصل به إلى البرلمان، فرئاسـة الحكومة، فجرَّموه وأسـقطوه، ومنعوا الحزب، فأنشـئ حزب الفضيلة، ولا زال الصراع ضاريًا[1].

حركة النهضة الإسلاميَّة:

وفي شـمال أفريقيا قامت في تونس حركة النهضة الإسلاميَّة بقيادة زعيمها الشاب المثقف المسـتنير المعتدل، الَّذي جمع بين فهم التراث وثقافة العصر «الشيخ راشد الغنوشـي»، لمقاومة «العِلمانيَّة البورقيبيَّة» الَّتي جعلت من بلد «جامع الزيتونة» بلدًا غربيًا، لا يمتُّ بصلةٍ إلى قرآنه

(١) حكمت المحكمة ـ والكتاب في المطبعة ـ على أربكان بالسـجن لمدة سـنة، ومنعه من ممارسة العمل السياسي طوال حياته؛ لأنَّه نقد «العلمانية» في خطابه منذ سنوات!

QaradawiBooks.com

أو سُنَّة نبيه، أو تراث أسلافه. وكان بورقيبة رجلًا لا دين له، وكان يرى نفسه أفضل من محمَّد رسول الله ﷺ! ويعيب على قومه أن يتَّبعوا رجلًا أُميًّا، ولا يتَّبعوا مثله وهو خريج السوربون! وله مقولات ومواقف تُنبئ عن كفرٍ بَواحٍ، وردَّةٍ صُراحٍ(١).

ووجدت الحركة تجاوبًا ضخمًا، ولا سيَّما من الشباب المثقَّف، وجاء ابن علي، فعقد معها صلحًا مؤقتًا، من باب «التكتيك» كما يقولون، ثمَّ انقلب عليها منكِّلًا ومشرِّدًا، ومستخدمًا أقصى وسائل التنكيل والتعذيب والتجويع.

ولم يقف الأمر عند محاربة الحركة، بل أُعلنت حرب على الدِّين والتديُّن، حتَّى اعتُبرت «الصلاة» وخصوصًا في المساجد جريمة يُحاسب من يحرص عليها، ويُوضع في القوائم السوداء، كما حُورب «الحجاب» واعتُبرت كلُّ محجبة متطرِّفة، ومُنعت من دخول المدرسة والجامعة والوظيفة الحكوميَّة، بل لا يجوز لها أن تدخل المستشفى للعلاج أو الولادة ما لم تخلع حجابها.

وتجلَّت هذه العِلمانيَّة المتطرفة في الإعلام والتعليم والثقافة، حتَّى في الجامعة الدينيَّة العريقة: الزيتونة نفسها، الَّتي أُنشئ فيها حمام للسباحة يجمع بين الطلاب والطالبات!

وأشد من ذلك خطرًا: ما انتهجته الدولة من سياسة «تجفيف المنابع» أي منابع التديُّن في التعليم والثقافة والإعلام(٢).

---

(١) انظر في ذلك كتابنا: التطرف العلماني في مواجهة الإسلام: نموذج تركيا وتونس صـ ١٢١ وما بعدها، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

(٢) انظر في ذلك كتابنا: التطرف العلماني في مواجهة الإسلام: نموذج تركيا وتونس صـ ١٤١.

QaradawiBooks.com

حركة العدل والإحسان:

وفي المغرب قامت في ثلث القرن الأخير حركة «العدل والإحسان» الَّتي أسَّسها رجل الدعوة والتربية الشيخ عبد السلام ياسين، وهو ـ وإن كان رجلًا صوفيًّا أساسًا ـ يؤمن بشمول الإسلام، وشمول حركته، وضرورة شمول الإصلاح لكل جوانب الحياة: روحيَّة وسياسيَّة واقتصاديَّة وثقافيَّة.

وللشيخ مجموعة من الكتب والإصدارات تمثل منهجه، وتوضح رؤيته، وهو يعتمد التربية الإيمانيَّة، والأسوة المحمَّديَّة، والنظرة الثوريَّة، في الإصلاح والتجديد.

حركة التوحيد والإصلاح:

وكذلك قامت في المغرب: حركة التوحيد والإصلاح، بقيادة الأخ العالم الأصولي الداعية الدكتور أحمد الريسوني، ومن معه من الإخوة الدعاة القدماء، مثل عبد الإلٰه بن كيران، الَّذين ضمُّوا إلى فقه النصوص: فقه المقاصد، وفقه الواقع، وجمعوا بين الثبات والمرونة، وبين الأصالة والمعاصرة، واستفادوا من تجارب الدعوات المعاصرة في تنظيم حركتهم، وفي مواقفهم السياسيَّة.

حركة المجلس الأعلى للدعوة الإسلاميَّة:

وفي إندونيسيا قامت منذ ثلث قرن حركة «المجلس الأعلى للدعوة الإسلاميَّة» بقيادة الرجل المجاهد الدكتور محمَّد ناصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الَّذي وقف بقوَّة في وجه حركة «التبشير» الهائلة، الَّتي هدفت إلى «تنصير» إندونيسيا في خمسين عامًا، كما كانوا يأملون. وقد خلفه اليوم عدة أحزاب، كما قام «حزب العدالة» وهو امتداد لحركة «الإخوان

QaradawiBooks.com

المسلمين»، ويضمُّ مجموعة طيِّبة من الشـباب المثَّقف، الواعي لدينه ولوطنه ولعالمه ولعصره.

وفي إيران ـ حيث يكوِّن الشيعة الاثنا عشريَّة أغلبيَّة الشعب ـ انطلقت حركة «الإمام الخميني» الَّتي تقوم على «ولايــة الفقيه» بدلًا من انتظار الإمام الغائب، ونيابة عنه، فقاوم طغيان «الشاه» وفساده، وأوذي في سبيل ذلك مــا أوذي، ونُفِيَ إلى خــارج البــلاد، ولكنَّه ظلَّ يبعث برســائله وأشــرطته إلى قواعده في إيران، يُحَرِّك الساكن، ويُقَوِّي المُتَحَرِّك، ويُنَبِّه الغافل، ويشدُّ عزم المُتَنَبِّه، حتَّى تجاوبت جماهير الشعب مع قائد الثورة الإسلاميَّة، وتَحَرَّكت كالسيل الهادر، ولم تجد أسلحة الجيش الموجهة إلى صدور النَّاس، ولا مكر جهاز «السافاك» ولا غيرها فتيلًا أمام إصرار الجماهير، فسقطت الإمبراطوريَّة العِلْمَانيَّة، وفرَّ «الشاه» الَّذي كان يعتبر شرطي الغرب في المنطقة، وصديق إسرائيل، ولم يجد أرضًا تقبله، غير مصر السادات، وقامت «الجمهوريَّة الإسلاميَّة» الَّتي كانت قَذًى في عين إسرائيل وأمريكا الَّتي أطلق الخميني عليها اسم «الشيطان الأكبر».

الحركة الإسلاميَّة في السودان:

وفي الســودان قامت حركة إســلاميَّة، امتدادًا للحركة الإسلاميَّة في مصر، وإن كانت لها اجتهاداتها ومواقفهــا الخاصَّة، وكانت أكثر انفتاحًا على الواقع، وقدرة على التطور، فكوَّنت فترة من الزمن «جبهة الميثاق الإســلامي»، وفترة أخرى اصطلحت مع نظام النميــري وتعاونت معه، وفترة أخرى أقامت «الجبهة القوميَّة الإسلاميَّة». وفي الفترة الَّتي أصاب السودان فيها ما يشبه الفوضى، واضطربت الأحوال السياسيَّة والاقتصاديَّة اضطرابًا عظيمًا، أقامت «ثورة الإنقاذ» بالتحالف بين الجبهة وعســكرها

QaradawiBooks.com

الموالي للإسلام، وقامت دولة جديدة في السودان تتبنى أحكام الشريعة برؤية عصرية، وتعلن انتماءها إلى الإسلام بوضوح، وهذا ما جلب عليها سخط إسرائيل وأمريكا والغرب، وقد تآمروا على إسقاطها، وسلَّطوا عليها جيرانها المناوئين لها من الخارج، والمعارضة الجنوبيَّة والشماليَّة من الداخل، حتَّى تستنزفها الحرب الَّتي تأكل ولا تشبع، وقد ضربت أمريكا أحد مصانعها للدواء علنًا، وحتَّى رفضت وزيرة الخارجيَّة الأمريكيَّة المبادرة المصريَّة الليبيَّة للمصالحة بين الحكومة والمعارضة، معلنة وقوفها مع «قرنق» بصراحة متحدِّية.

وقد حدثت فتنة في المدَّة الأخيرة بين الرأسين الكبيرين في السودان: الفريق عمر البشير، والدكتور حسن الترابي، فرح لها أعداء المشروع الإسلامي في السودان، ولكن سرعان ما انطفأت الفتنة بفضل الحكماء الثقات من أبناء الحركة الإسلاميَّة، ولله الحمد والمنَّة. وأدعو الله أنْ يكون انتفاؤها إلى الأبد(١).

حزب التحرير الإسلامي:

وفي الأردن نشأ «حزب التحرير الإسلامي» أسَّسه الشيخ تقي الدِّين النَّبهاني، مركزًا على قضيَّة «الخلافة» وعودة «الخلافة» دون أن يُعنى بالعوائق وإزالتها، والتقريب بين الشعوب، والثقافات والتيارات بعضها وبعض تمهيدًا للخلافة، كما وجه عنايته للفكر أولًا، ولا يكاد يُعنى

(١) هذا ما كنا نرجوه حين قدمت لجنة المصالحة ـ المنبثقة من مجلس شورى حزب المؤتمر الحاكم برئاسة د. عبد الرحيم علي ـ مشروع معالجة شاملة، ظننَّا أنَّ الطرفين سيقبلانه، ولكن ممَّا نأسف له أنَّ الشرخ ازداد اتساعًا، رغم محاولات الإصلاح، وقد ذهبتُ على رأس وفد إسلامي لإصلاح ذات البين، وباءت محاولتنا بالإخفاق، وانقسمت جماعة الإنقاذ إلى جماعتين أو حزبين متعارضين، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

QaradawiBooks.com

بالسلوك، كما لا يكاد يُعنى بالاجتهاد والتجديد، فهو يأخذ الموروثات الفقهية والفكريَّة قضايا مُسَلَّمة، ثمَّ يَصُبُّها في «قوالب» صارمة، ويُلَقِّنها لأتباعه، فيحفظونها عن ظهر قلب، ويجادلون عنها بلا هوادة، وإن كان له اجتهادات غريبة في بعض القضايا الجزئيَّة يعجب الفقيه الحقُّ لها.

الحركة السلفيَّة:

من المملكة العربيَّة السعوديَّة انطلقت «الحركة السلفيَّة» داعية إلى التوحيد بعناصره الثلاثة: توحيد الربوبيَّة، وتوحيد الألوهيَّة، وتوحيد الأسماء والصفات، مركِّزة على تحرير التوحيد من الخرافة والشرك والقبوريات والتأويل، مشدِّدةً النكير على كل من يُؤول صفات الله الخبرية من الأشاعرة والماتريدية وغيرهم، متخذة من تراث شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم رصيدًا للدعوة والمجادلة، وكذلك تراث مجدد الجزيرة الشيخ محمَّد بن عبد الوهاب.

وكان لها امتداد في مصر على يد الشيخ محمَّد حامد الفقي وجماعة «أنصار السُّنَّة»، وفي الشام على يد المحدِّث الشيخ محمَّد ناصر الدين الألباني، وفي الهند وباكستان على يد جماعة أهل الحديث، وعُرف عن كثير من هؤلاء التشدُّد في الفروع، والوقوف عند الظواهر، وقلَّة الالتفات إلى المقاصد، وإلى تغيُّر الزمان والمكان، والاشتغال بالمختلَف فيه عن المتَّفق عليه، وهم في عصرنا لهم أكثر من فصيل.

فمنهم «الجاميُّون» في المدينة المنورة ـ ربيع المدخلي ومن انضم إليه ـ وهم يعلنونها حربًا على كلِّ من سواهم من السابقين واللاحقين والمعاصرين، ولم يسلم منهم أحد حتَّى مثل الإمام

QaradawiBooks.com

النووي والحافظ ابن حجر وغيرهما ـ ناهيك بالمعاصرين من أمثال حسن البنَّا، وسيِّد قطب، والمودودي، والغزالي، وفهمي هويدي، ومحمد عمارة، ويوسف القرضاوي وغيرهم ـ على غير منهج الإمامين ابن تيمية وابن القيم.

ومنهم السلفيُّون الجدد، الَّذين يسمِّيهم بعض النَّاس «السروريِّين»[١] وهم الَّذين اهتمُّوا بالجانب السياسي، مع الجانب العقدي، ونقد الأوضاع العامَّة، المحليَّة والدوليَّة، وكان لهم موقفهم من دخول الأمريكان إلى المنطقة في حرب الخليج. وفيهم علماء ودعاة لهم وزنهم مثل المشايخ سلمان بن فهد العودة، وسفر الحوالي، وعائض القرني.

ومنهم الَّذين يعتزُّون بالشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ والشيخ ابن عثيمين وعلماء المملكة، ويعتبرونهم مراجع فذَّة لهم، ولا يقبلون العلم من أحد سواهم.

ومنهم من يتبعون الشيخ الألباني ويقلِّدون مذهبه، في حين أنَّه ينكر المذاهب جميعًا، ومع هذا جعلوه مذهبًا خامسًا.

ومنهم، ومنهم.

جماعة الجهاد والجماعة الإسلاميَّة في مصر:

وفي مصر تأسست «جماعة الجهاد» و«الجماعة الإسلاميَّة» وكلتاهما تنادي باستخدام القوَّة في مقاومة الحُكَّام الَّذين لا يحكمون بشرع الله، وكان لهم امتداد في «الجزائر» وغيرها من البلاد الإسلاميَّة، وكانت لهم

(١) نسبة إلى داعية سوري اسمه محمد سرور بن نايف زين العابدين، كان من الإخوان ثم انشق عنهم، وكان يقيم في السعودية، ثم انتقل الآن إلى الإقامة في إنجلترا، على ما أعلم.

QaradawiBooks.com

مقاومات مع السلطة، لم يسلم المدنيُّون العزل من آثارها، ولم يبالوا بما أصاب البرآء من جرائها. وبعض هذه الحوادث كان سببها استفزاز السلطات الأمنية وتهوُّرها، وبخاصَّة أنَّ منشأهم كان في صعيد مصر، وأهله لا يقبلون الضيم، ولا ينسون الثأر.

وقد اختلطت أفكار هؤلاء بأفكار جماعة «التكفير والهجرة»، الَّذين يُكَفِّرون النَّاس بالجملة، ولا يقتصرون على الحُكَّام وحدهم، بما يترتَّب على ذلك من استباحة الدماء والأموال، وإن كان بين جماعة التكفير وجماعة الجهاد فروق في المنطلق. وقد اخترقت السلطات وبعض الجهات المشبوهة ـ وخصوصًا في الجزائر ـ صفوف هذه الجماعات، فارتكبوا أشياء فظيعة نُسِبَتْ إليهم، وهي في حقيقة الأمر من صُنْع هؤلاء الدخلاء.

ولا أعرف لهؤلاء تراثًا مكتوبًا ذا بال، حتَّى نُحَاكمهم إليه، فيما عدا كُتَيِّب «الفريضة الغائبة» ويعنون بها «الجهاد»، وهذه لا تسمن ولا تُغْني من جوع في الإجابة عن تساؤلات النَّاس حول رؤيتهم في القضايا الكبرى المطروحة على الساحة سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا.

والمهمُّ أنَّ الجوانب السلبيَّة لهذه الفصائل والحركات كان لها تأثيرها السلبي على الحركات الأساسيَّة الكبرى، الَّتي تُمَثِّل الوسطيَّة والاعتدال، وترفض العنف والدم، والَّتي هي أرسخ قدمًا، وأطول عمرًا، وأوسع قاعدة من هذه الجماعات حديثة العهد، محدودة الجمهور. وقد غدا الإعلام الغربي ينفخ فيها عمدًا ويُضخِّمها؛ قصدًا إلى تشويه وجه الإسلام، وتخويف النَّاس من ظهوره وانتشاره وصحوته. كما نرى تلفزيون «لندن» يبرز بعض الأشخاص المعتلين والمختلين في أفكارهم، بوصفهم يمثلون الإسلام، وهم ليسوا في العير ولا في النفير، أمثال

QaradawiBooks.com

«أبي حمزة» المصري، و«أبي قتادة» الأردني، الَّذي أصدر فتوى لبعض الشباب الأغرار بجواز قتل آبائهم وأمَّهاتهم!

وقد قرأنا أخيرًا: أنَّ جماعة الجهاد في مصر ـ وخصوصًا قادتهم في السجون ـ قد اقتنعت بأنَّ العنف لا طائل تحته، ولا جدوى من ورائه، إلَّا بذل الضحايا، وإراقة الدماء من الطرفين، ولذا أرادوا أن يدخلوا المعترك السياسي، وطالبوا بإنشاء «حزب جديد» يُمَثِّلهم، ويتبنَّى أفكارهم.

وهكذا انتهوا إلى ما عابوا به الإخوان من قبل، وإن كان الإخوان لم يبلغوا في العنف يومًا عُشْر مِعْشَار ما بلغ هؤلاء.

وممَّا يؤسف له: أنَّ كل جماعة تبدأ من الصفر، ولا تريد أن تأخذ العبرة من غيرها، وتجعل من تجاربها درسًا لها، لا بدَّ أن تجرِّب هي بنفسها، ثمَّ بعد مدَّة من الزمن تعود إلى ما أنكرته من قبل، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

كما أنَّ الحركات الإسلاميَّة الكبرى لم تطور نفسها ورؤيتها، بالقدر الَّذي يُرجى منها، وإن كان هناك تطوُّر ملموس في عدد من القضايا، وهو يبشر بالقابلية للتجدد، وغلبة تيار التجديد على تيار التقليد، الَّذي لم يزل يمثله أنصار أقوياء.

وكم تمنَّى بعض الإخوة الدعاة والمُفَكِّرين أنْ تتوحَّد هذه الحركات الإسلاميَّة في حركة عالميَّة واحدة، وهي أمنية حلوةَ المذاق، لكنَّها ـ وَفق سنن الله ـ بعيدة المنال.

فإنَّ قيام حركة واحدة يقتضي أن يتَّفق أعضاؤها على وحدة الأهداف، وعلى ترتيب الأهداف، وعلى وحدة الوسائل وترتيبها أيضًا، وعلى وحدة

QaradawiBooks.com

المفاهيم الأساسيَّة، وعلى الأشخاص الَّذين يقودون السفينة، وهذا ليس من الأمور السهلة، بل هو يكاد يكون مستحيلًا.

ولهذا نحن لا نمانع من تعدُّد الجماعات والحركات الإسـلاميَّة إذا كان تعدُّد تنوُّع وتخصُّص، وننكره إذا كان تعدُّد صراع وتناقُض.

لا مانع من تعـدُّد الجماعات على أن يكون بينها قدر من التناسـق والتفاهـم، وأنْ تقف فـي القضايـا المصيريَّة صفًّـا واحـدًا، كالبنيان المرصوص، يشدُّ بعضه بعضًا.

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مقاومة التغريب والغزو الفكري

ومن أهم المعارك الَّتي خاضها العالم الإسلامي في هذا القرن: معركته الدامية في مقاومة أخطر أنواع الاستعمار، وهو الاستعمار الثقافي أو الغزو الفكري، والَّذي يُعبَّر عنه بكلمة واحدة هي «التغريب» الَّذي هدف إلى تغيير هوية الأمة ومسارها، ونقلها من الشرق إلى الغرب، ومن الإسلام إلى المسيحيَّة أو ـ على الصحيح ـ إلى اللادينيَّة.

إنَّ هذا النوع من الاستعمار أو الغزو أشدُّ وأنكى من الاستعمار العسكري والسياسي. فإنَّ هذا يحتل الأرض، وذاك يحتل العقل والنفس، واحتلال الأرض يُرى ويُحس فيُحارب ويُقاوم، واحتلال العقل قلَّما يُحس به، فيُستسلم له.

فكيف دخل هذا الغزو المدمر لشخصيتنا المسلمة إلى أوطاننا؟

هذا ما نحاول بيانه في الصحائف التالية.

تمسك المسلمين بمرجعيَّة الإسلام خلال القرون:

لقد عاش العالم الإسلامي ـ نحو ثلاثة عشر قرنًا ـ ملتزمًا بمبدأ واحد، ومنهج واحد، لا يحتكم إلَّا إليه، ولا يعوِّل إلَّا عليه، ولا يستفتي في شؤون حياته وما بعد حياته غيره، ولا يفكر في حلٍّ لمشكلاته إلَّا على

QaradawiBooks.com

أساسه وبالاستمداد منه، ذلك المبدأ وذلك المنهج هو الإسلام، الَّذي ارتضته هذه الأُمَّة، وارتضاه الله لها، وأتمَّ به عليها نعمته: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

لم يفكِّر حاكم من الحُكَّام طول هذه القرون الثلاثة عشر أنْ يرفض الالتزام بمبدأ الإسلام، والاحتكام إلى شرعه، وإن بلغ في الاستبداد والطغيان ما بلغ. ولم يخطر ببال شعب من الشعوب المسلمة أنْ يحكمه يومًا ما منهج غير منهج الإسلام، أو تسود فيه فكرة غير فكرة الإسلام.

وجد في تاريخ الإسلام حكام ظلمة، وحكام مستبدون، وحكام انحرفوا عن منهج الشريعة في سياسة الحكم وسياسة المال، ولكن لم يوجد حاكم واحد من هؤلاء رفض مرجعيَّة الإسلام.

كان الاعتزاز بهذا المنهج جزءًا من عقيدة كل فرد مسلم. فقد كان يغالي به ويزهى، ويعتقد أنَّه وحده الحقُّ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

كان يؤمن أنَّ في هذا المنهج الإلٰهي لكلِّ داء دواء، ولكلِّ معضلة علاجًا، ولكلِّ عقدة حلًّا، وأنَّ علاجه لا يدانيه علاج آخر يضعه البشر لأنفسهم، أو يستمدُّونه من أديان منسوخة محرَّفة، انقضى زمنها وانتهت مهمَّتُها.

كان كلُّ مسلم يعتقد أنَّ «الحلَّ الإسلامي» لمشكلات الحياة هو الحل الناجع، والحلُّ الفذُّ؛ لأنَّه حلٌّ وضعه الله لعباده ورضيه لهم، وهو بهم برٌّ رحيمٌ، كما أنَّه بهم عليمٌ خبير: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

QaradawiBooks.com

الزحف الغربي الحديث على الإسلام وأمته:

كان هذا الاعتقاد هو السائد في العالم الإسلامي، حتَّى كان هذا القرن العشرون، والَّذي قبله، حيث واجه الشرق الإسلامي زحفٌ كثيف من العالم الغربي المسيحي. ولم يكن هذا الزحف عسكريًّا فحسْب، كزحف الحروب الصليبيَّة من قبل، بل كان زحفًا عسكريًّا سياسيًّا اجتماعيًّا ثقافيًّا.

وواجه العالم الإسلامي بهذا الزحف الحاقد الطامع المستكبر وهذا الغزو المنظم، فقاوم كثيرًا، ووقف موقفًا صُلبًا من الحضارة الغازية، في مختلف أقطاره، ولكنَّه لم يستطع أن يحرز النصر.

كان هناك انحطاط عام في كل ميدان من ميادين الحياة الإسلاميَّة، نتيجةً لبعد المسلمين عن الإسلام الصحيح فهمًا وتطبيقًا. أجل كان هناك تخلُّف في العلم، وجمود في التفكير، وركود في الفقه والتشريع، وقصور في التربية والتوجيه، وفساد في الإدارة والحكم، وكان العدو الزاحف المنتصر متفوقًا في هذه المجالات، فبهر أبصار الكثيرين، وخلب ألبابهم، فبدؤوا يسيروا في دروبه، ويتَّبعون سننه، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع.

وبدأ العدو الزاحف الماكر يخطط للاستيلاء على شعوب هذا العالم الإسلامي بعد أن استولى على أرضه، فقد علِم أنَّ الاستيلاء على الأرض ليس معناه الاستيلاء على أهلها. إنَّ الاستيلاء على الأرض يتم بقوَّة السلاح، أما الاستيلاء على البشر فلا تجدي فيه الأسلحة ولا تغني الجيوش والأساطيل. فلا بدَّ - إذن - من عمل منظم «لتغريب» العالم الإسلامي عقليًّا، حتَّى يقبل الاستعمار الغربي، ويهضم حضارته، ويتتلمذ على أهله. ولهذا رسم خطته بدهاء ومكر، وشرع ينفِّذها بأناةٍ وصبر. لم

QaradawiBooks.com

يصنع ما كان يصنع الفاتحون الأولون من تدمير المساجد أو تحريق المصاحف، أو إلقاء الكتب في البحار والأنهار، فيستثير الشعوب ضدَّه، وإنْ كتمت مشاعرها ضعفًا وعجزًا، حتَّى ينفجر غيظها عليه في يوم قد لا يكون بعيدًا.

لقد صمَّم الغرب الصليبي الزاحف أنْ يهدم ويدمِّر، ولكن بأسلوب غير أسلوب التتار والصليبيِّين القدماء، لقد اتَّجه إلى تدمير العقائد والأفكار، وهدم القيم والأخلاق، وتحطيم الآداب والتقاليد، بمعاول خفيَّة لا تراها الأعين بسرعة، ولا تلمسها الأيدي بسهولة، وبأساليب ماكرة لا تثير الشعوب، ولا تغضب الجماهير. وبهذا نجح في قتل الشعوب، ولكن بغير إطلاق الرصاص، وضرب السيوف، بل بطريقة السمِّ البطيء، يوضع في الدسم والحلوى!

لم يكن من هَمِّ المستعمر الدخيل في أوَّل الأمر: أن يوجِّه عمله إلى الشعب ليزحزحه عن دينه، ويُشكِّكه في منهجه الإلٰهي، فيهيِّجه على حكمه، ويحرِّضه على مقاومته، بل ترك الشعوب في غفلاتها، ووجَّه أكبر همِّه إلى تكوين «قادة للمستقبل»، قادة يصطنعهم لنفسه، ويصنعهم على عينه، ويربِّيهم في أحضانه، ويغذيهم بثقافته وأفكاره، ويغرس فيهم الخضوع ـ عن طواعية ـ لنظمه وتقاليده، والتقديس لمناهجه وفلسفته.

إنَّ صناعة هذا الجيل الَّذي قاد السفينة فيما بعد، وقبض على زمام التوجيه والتثقيف والتربية والإدارة والسياسة والتشريع، كانت أهم ما عُني به الاستعمار الخبيث، وكان النجاح في صناعته أعظم نصر حقَّقه في المعركة بينه وبين الشرق الإسلامي، لا أقول: منذ عهد الحروب الصليبيَّة، بل منذ عهد هرقل ومعركة اليرموك وما بعدها حتَّى اليوم.

QaradawiBooks.com

آثار الدعوة إلى التغريب في العالم الإسلامي:

كان للغزو الفكري الغربي المنظم المخطط ـ الَّذي تساندت فيه كل القوى الاستعمارية، واستخدمت فيه كل الوسائل والأساليب ـ آثاره ونتائجه الخطرة في حياة المسلمين. تلك الآثار الَّتي بدأت تبرز وتتسع يومًا بعد يوم. ومن أظهرها بروز من يدعو من المسلمين إلى «تغريب» الأُمَّة فكرًا وشعورًا وسلوكًا. وهو ما هدف إليه المبشِّرون حين قالوا: إنَّ الشجرة لا يقطعها إلَّا أبناؤها أنفسهم.

صحيح أنَّ الفكر الاستعماري لم يستطع أن ينفرد تمامًا بالتوجيه، وأن يستقلَّ استقلالًا مطلقًا بالتأثير، فقد كان الفكر الإسلامي المتغلغل في أعماق الأُمَّة يتحدَّاه ويقاومه على الرغم من ضعف إمكاناته، ومن تضييق الخناق عليه. إلَّا أنَّ الغلبة والتأثير الأقوى والأوسع كان للفكر الدخيل، المسلح بالدهاء والمكر، وبالعلم والمال، والمستند إلى سلطان القوة، وقوة السلطان، والَّذي كان يملك في قبضته أجهزة التعليم، ووسائل الإعلام. وكان أخطر نتائجه ولا شكَّ هو شيوع التبعيَّة الفكريَّة للغرب، والعبوديَّة الذليلة لكل ما يصدر عنه من مبادئ وقيم، ومناهج وأنظمة، وأخلاق وتقاليد، وأفكار ومفاهيم، وتشريعات وقوانين.

وكان من مظاهر هذه العبوديَّة بروز أناس يدعون إلى اتباع الغرب في كل شأن من شؤون حياته الفرديَّة والأُسَريَّة والاجتماعيَّة، المادِّيَّة والروحيَّة والثقافيَّة.

فقد كان الاستعمار في أوَّل أمره يعتمد على جيش مكوَّن من كتيبتين يجندهما لتغريب المسلمين:

QaradawiBooks.com

الأولى: كتيبة المستشرقين، الَّذين كان كثير منهم مستشارين لوزارات الاستعمار ونحوها.

والثانية: كتيبة المبشرين، الَّذين تجنِّدهم الكنيسة لتنصير المسلمين.

ولا فرق بين المستشرقين والمبشرين في غالب الأمر، إلَّا أنَّ الأولين يلبسون مسوح العلم، والآخرين يلبسون مسوح الدين.

ومن المستشرقين من هم رجال دين أساسًا.

ثم استراح هؤلاء وأولئك إلى حدٍّ كبير، حين خرج من تلاميذهم من أبناء المسلمين من يكفيهم مؤونة الدعوة إلى التغريب، فقد قاموا بها عنهم.

وبرز من بين ظهراني المسلمين من يدعو ـ في صراحة حينًا، وبالتواءٍ أحيانًا ـ إلى طرح الإسلام، وشريعة الإسلام، وثقافة الإسلام، وحضارة الإسلام.

رأينا ذلك في الهند، ورأيناه في تركيا، ورأيناه في مصر، وفي غيرها من بلاد العرب والإسلام.

رأينا في الهند مثل السيد أحمد خان مؤسس الكليَّة الإسلاميَّة الإنجليزية ـ الَّتي سمِّيت فيما بعد جامعة «عليكره» ـ يدعو إلى السير وراء الحضارة الغربيَّة وأخذها بحذافيرها، وقال: إنَّه لا بدَّ للمسلمين أنْ يقبلوا حضارة الغرب بتمامها، حتَّى يُعدُّوا في الشعوب المتمدينة والمثقفة، ولا تزدريهم أعين الأمم المتحضرة!

لم يدع أحمد خان إلى اقتباس الجانب العلمي والصناعي من حضارة الغرب، الَّذي هو سرُّ قوَّة الغرب ومبعث نهضته وتقدُّمه. وهو الجانب الَّذي كانت تحتاج إليه الهند وغيرها من البلاد الإسلاميَّة. بل

QaradawiBooks.com

كان أكثر ما عُني به ودعا إلى تعلُّمه وأخذه هو الجانب الآخر من الحضارة: جانب الآداب والعلوم الاجتماعيَّة. حتَّى إنَّه في بعض الأحيان عارض تعليم الصناعات والعلوم معارضة شديدة، وكتب في هذا الموضوع مقالات عنيفة اللهجة مريرة النقد[1]!

ورأينا في تركيا مثل «ضياء كوك ألب» الأديب التركي الَّذي يعتبر أحد المؤسسين الفكريِّين لتركيا العِلمانيَّة الحديثة يقول: «علينا أنْ نختار إحدى الطريقتين: إما أنْ نتقبل الحضارة الغربيَّة، أو نظل مستعبدين لقوى الغرب، لا بدَّ أن نختار أحد الأمرين».

ثمَّ تحوَّلت تركيا إلى «تغرُّب شبه كامل» على يد كمال أتاتورك وجماعته، الَّذين فرضوا «العِلمانيَّة الغربيَّة» على تركيا الإسلاميَّة بالحديد والنَّار، فاتَّبعت الغرب في التشريع والتربية والتعليم والثقافة والتقاليد، حتَّى استبدلوا بالحرف العربي الحرف اللاتيني، وكان أبلغ مُعبِّر عن ذلك هو تحريم لبس «الطربوش» والعمامة، وإيجاب لبس «القبَّعة»!

كان من أبرز الَّذين دعوا ـ في العالم العربي ـ إلى تقليد الغرب واتباع مناهجه في الخير والشر الدكتور طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»، فهو يرى في هذا الكتاب أنَّ سبيل النهضة «واضحة بيِّنة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوربيِّين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا، ونكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحب منها وما يُكره، وما يُحمد منها

---

(١) انظر في تقويم حركة أحمد خان: الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي صـ ١٩ ـ ٢٥، ط ٢، ١٩٦٠م، والصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للأستاذ أبي الحسن الندوي صـ ٨٢ ـ ٩٢، نشر الدار الكويتية، ط ٢، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

QaradawiBooks.com

وما يُعاب»[١]، «وأن نُشـعِر الأوروبي بأنَّا نرى الأشياء كما يراها، ونقوِّم الأشياء كما يقوِّمها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها»[٢].

ويقول: «فأمَّا الآن وقد عرفنا تاريخنا وأحسسـنا أنفسنا، واستشعرنا العزَّة والكرامة واستيقنا أنَّه ليس بيننا وبين الأوروبيِّين فرق في الجوهر، ولا في الطبع ولا في المزاج، فإنِّي لا أخاف على المصريين أن يفنوا في الأوروبيِّين»[٣]! وهكذا بلغت الدعوة إلى حدِّ الفناء في الأوربيِّين.

النصارى أجهر بالدعوة إلى التغرب الكامل:

وقد دعا إلى سلوك هذا السبيل في العالم العربي نصارى ومسلمون، ولكن النصارى كانوا أسـبق وأصرح وأجرأ، ولعل أبرز مثال لهؤلاء هو الكاتب المصري المسيحي المعروف «سلامة موسى» الَّذي كتب في هذا الموضوع عدة مقالات نشرت خلال سنتي (١٩٢٥ ـ ١٩٢٦م)، ثمَّ نشرها في كتاب «اليـوم والغد» بعد أن أضاف إليها مقالين آخرين سـنة (١٩٢٧م)، يقول المؤلف فـي مقدمة كتابه بكل وضوح: «أنا كافر بالشـرق، مؤمن بالغرب. يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا»، ومعلوم أنَّ مصر ليست من آسـيا، ولكنَّه يريد الخروج من ثقافة الإسلام وحضارته وتعاليمه الَّتي جاءت من آسيا.

يريد الكاتب «حرِّيَّة المرأة كما يفهمها الأوروبي» كما يريد من الأدب «أن يكون أدبًـا أوروبيًّا ٩٩٪». ويريد مـن التعليم «أن يكـون أوروبيًّا لا سـلطان للدين عليه ولا دخول له فيه» ويقـول: «نحن في حاجة إلى

(١) مستقبل الثقافة في مصر للدكتور طه حسين صـ ٣٩، نشر دار المعارف، القاهرة، ط٢.

(٢) المصدر نفسه صـ ٤١.

(٣) المصدر نفسه صـ ٤٩.

QaradawiBooks.com

ثقافة أبعد ما تكون عن الأديان، ولا بأس أن تعتمد على الترجمة إلى حدٍّ بعيد».

وهو يريد أن يعطل شريعة الإسلام في تعدُّد الزوجات وفي الطلاق «بحيث يعاقب بالسجن كل من يتزوج أكثر من امرأة، ويمنع الطلاق إلَّا بحكم محكمة»!

وهو ينكر أشدَّ الإنكار كلَّ دعوة تنادي بالتعاون أو التقارب بين المسلمين، وتوثيق الروابط بينهم كما أمر الله، ويقول في ذلك بكل جرأة: «إنَّ الرابطة الدينيَّة وقاحة، فإنَّنا ـ أبناء القرن العشرين ـ أكبر من أن نعتمد على الدِّين جامعة تربطنا»!

ويقول في صراحة يحسد عليها: «إنَّ الأجانب يحتقروننا بحقٍّ، ونحن نكرههم بلا حقٍّ»[1].

كما يدعو في غير مواربة إلى التعاون مع الإنجليز «المستعمرين» لتصفية الرجعية في مصر، يعني: القوى الإسلاميَّة، مثل الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعيَّة، والجماعات الإسلاميَّة[2].

ومثل سلامة موسى في مصر: زميل له من نصارى لبنان، لا يقل عنه جرأة أو وقاحة، هو: «جميل معلوف» الَّذي يقول في كتابه «تركيا الجديدة» أي بعد أتاتورك: «إنَّ خلاص الشرق يتوقف على تفرنج الشرقيِّين بكل معنى الكلمة»[3].

---

(١) اليوم والغد لسلامة موسى صـ ٨، ٧، ٢٥٢، نشر المطبعة العصرية، مصر.

(٢) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين (٢/٢١٢ ـ ٢١٨)، نشر مكتبة الآداب، مصر، ط ٢، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

(٣) تركيا الجديدة لجميل معلوف صـ ٣٤، نقلًا عن مؤامرة فصل الدين عن الدولة لمحمد كاظم حبيب صـ ٣٣، ط ١، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م.

QaradawiBooks.com

وكلمة الشرق كانت تعني «العالم الإسلامي» و«الشرقيِّين» تعني «المسلمين».

«لا عهدة شرعيَّة تربطنا بأسلافنا، يجب أن نكون أبناء اليوم لا بقايا الأمس، كلُّ جيلٍ يجب أن يعمل لذاته، وكلُّ سلالة يجب أن تشرع لنفسها»[١].

ونحن نقول: عمل كلِّ جيل لذاته لا يقتضي التنكُّر للإسلام، والانسلاخ من التراث، والسير في ركاب الآخرين.

ويقول: «استناد الشرقيِّين على الدِّين في أحوالهم العالميَّة عمل عقيم يبعدهم عن محجة التقدُّم، لا بل إنَّني أجد بلاء الشرق كله من الأديان، ومصيبة الشرقيِّين من الأنبياء».

«وعلى كلِّ حال فإذا اضطررتُ أن أختار لأبناء وطني واحدًا من أمرين:

الكفر أم التعصُّب، فأختار لهم الأوَّل، به يتوحَّد مبدؤهم، فيكسبون الدنيا على الأقل».

«ولا بدَّ أن يعقب هذا الانقلاب (يعني الانقلاب الَّذي أطاح بالخلافة الإسلاميَّة) السياسي الصغير ثورة أدبية عظيمة ضد المبادئ القديمة كلها؛ فيثور الابن على أبيه، والمرأة على زوجها، والخادم على سيده، والرعية على كاهنها وشيخها، ورجال الدين على كتبهم».

«إنَّ فصل الدنيا عن الدِّين أمر واجب لتقدُّم الشرق، وبدونه لا يستطيع الشرقي أن يدخل في دائرة المدنيَّة، ويتمتع بنفس الحرِّيَّة الحقيقية»[٢].

---

(١) تركيا الجديدة صـ ٤١.

(٢) تركيا الجديدة لجميل معلوف صـ ٩٦، ٩٨، ١١٢، ١٤١.

QaradawiBooks.com

تهافت دعوة التغريب:

هذه هي دعوة عبيد الغرب من مسلمين ونصارى، دعوة التبعيَّة المطلقة للحضارة الغربيَّة، والذوبان الكامل فيها، وأخذ كلِّ شيء منها، واستمداد كلِّ قيمة، وكلِّ مفهوم، وكلِّ تشريع، وكلِّ تقليد، منها: الخير والشرِّ، والحلو والمرِّ، والعلم والأدب، والمادة والفكر، والتصوُّر والسلوك.

لم يفرق هؤلاء بين ما يصح اقتباسه وما لا يصح، وما يجوز استيراده وما لا يجوز. ولو أنَّهم نادوا باقتباس الجانب «العلمي» المحض، الَّذي ينشأ عنه رقي الصناعة، وزيادة الإنتاج، ونموُّ العمران، وازدهار الحياة المادِّيَّة، ما رأينا بذلك بأسًا ولا حرجًا، فإنَّ العلم المحض ـ بطبيعته ـ عالَمي لا دين له ولا جنسية، ومن انتفع بقانون أرشميدس لم يكن به يونانيًّا، ومن أخذ بنسبيَّة أينشتاين لم يصر أمريكيًّا أو رأسماليًّا، ومن اقتبس قانون الجاذبيَّة لإسحاق نيوتن لم يصبح به إنجليزيًّا أو استعماريًّا، كما أنَّه من اقتبس نظريات ومكتشفات جابر بن حيان في الكيمياء أو الخوارزمي في الجبر أو البستاني في علم المثلثات، أو الحسن بن الهيثم في البصريَّات، لم يصر بذلك عربيًّا ولا مسلمًا!

إنَّ الولايات المتحدة الأمريكيَّة الَّتي تتربع على قمة الرأسماليَّة، والاتحاد السوفياتي ـ البلاد الأمُّ للاشتراكية العلميَّة ـ كلٌّ منهما قد استفاد من خبرة خصومهم ومحاربيهم الألمان في بحوث الذرة والفضاء بعد الحرب العالميَّة الثانية، وأصبح العلم الَّذي خدم النازيَّة الألمانية من قبل، يخدم الرأسماليَّة الأمريكيَّة والشيوعيَّة الروسية من بعد، وها هي كلتاهما تحاول أنْ تخطف الأسرار العلميَّة أو تختلسها من الأخرى إذا استطاعت، ولا ترى في ذلك خطرًا ولا ضيرًا، أما الَّذي تقف كلتاهما في

QaradawiBooks.com

وجهه، فهو الاتجاهات الثقافيَّة والأدبيَّة الَّتي تحمل فلسفة كل من البلدين، وتعبِّر عن وجهته في الحياة، ونظرته إلى الفرد والمجتمع، والله والإنسان، والكون والتاريخ.

لا حرج ولا بأس إذن من اقتباس العلم الطبيعي والرياضي ونحوه، وإنَّما الحرج والبأس في اقتباس الثقافة والتقاليد، والأفكار والمفاهيم، والقِيَم والموازين، والأخلاق والتشريع، الَّتي تتميَّز بها كُلُّ أُمَّة عن غيرها.

بل الواقع أنَّنا حين نقتبس الجانب العلمي من الغرب لا نفعل شيئًا إلَّا أنَّنا نسترد بضاعتنا، فنحن أصحاب هذا العلم وأولى النَّاس به، فقد أخذ الغرب أصول هذا العلم ومنهجه منَّا كما اعترف بذلك بريفولت ودوهرنج ولوبون وسارتون وغيرهم من المؤرخين المنصفين.

خطر التغريب على الحياة الإسلاميَّة:

لقد كان «التغريب» أشدَّ ما أصاب العالَم الإسلامي من أخطار، وكان له في الحياة الإسلاميَّة أبعد الآثار، ولقد شهد بشدة خطره كل المراقبين، والمؤرخين المعنيين بالشأن الإسلامي، مثل المؤرخ الغربي الأمريكي اليهودي المعروف الَّذي كان رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الشرقيَّة بلندن، والَّذي قال في كتابه «الغرب والشرق الأوسط»: «لقد مرَّت فترات من الخطر الشديد كان الإسلام مهددًا فيها في الوقت نفسه من الشرق والغرب، غير أنَّ الإسلام تغلَّب عليها، واجتازها دون أنْ يتأثَّر. جاءه الأتراك غزاة فاتحين فتحوَّلوا إلى مسلمين مؤمنين، وتمثَّلهم المجتمع الإسلامي الكبير فانصهروا في بوتقته، وكانوا هم أنفسهم من أقوى أعمدة الإسلام الَّتي أقامت مجتمعًا متدهورًا كاد يفنى اجتماعيًّا

QaradawiBooks.com

وسياسيًّا، بهذه القوَّة والحيويَّة تمكَّن الإسلام من الصمود، بل من دحر غزوات أعدائه الصليبيِّين الَّذين جاؤوه من الغرب.

ثمَّ واجه الإسلام بعد ذلك لطمتين أشد وأقسى وأحدث وأخطر، فلقد سُحق الشرق الأوسط الإسلامي مرَّتين، واحتلَّه الغزاة الأجانب الَّذين سيطروا عليه بقوَّة السلاح، وعلى الرغم من أنَّهم لم يستطيعوا تحطيم حضارته الإسلاميَّة القديمة الأصول، فإنَّهم لغَّموا أو «زلزلوا» ثقة الَّذين صانوا هذه الحضارة بأنفسهم، وهكذا حوَّلوا وجهتهم نحو اتِّجاهات جديدة.

أولى هاتين اللطمتين كانت الغزو المغولي في أواسط آسيا الَّتي حطمت الخلافة القائمة، وأخضعت للمرة الأولى ـ منذ عهد النبوَّة ـ قلب العالم الإسلامي لحكم غير إسلامي.

أمَّا اللطمة الثانية فهي تأثير الغرب الحديث»[١].

والَّذي يبدو لي أنَّ اللطمة الثانية كانت أقسى وأشد خطرًا من الأولى، فقد استطاع الإسلام بقوَّته الذاتيَّة أن يقاوم اللطمة الأولى، وينتصر عليها مرَّتين سجلهما التاريخ:

الأولى: في انتصاره العسكري الرائع، الَّذي ردَّ الثقة إلى الأُمَّة بالإسلام، والَّذي تحقَّق بعد سنتين فقط من سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ، وذلك في إحدى «المعارك الحاسمة» في التاريخ، وهي معركة «عين جالوت» الَّذي قادها الجيش المصري بقيادة الرجل الصالح، القائد

(١) الغرب والشرق الأوسط لبرنارد لويس صـ٣٢، ٣٣، ترجمة د. نبيل صبحي، لاجوس، ١٩٦٣م.

QaradawiBooks.com

المملوكي المظفر سيف الدين قطز، في ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨هـ، ولم يستطع التتار بعد ذلك أنْ يحقِّقوا نصرًا يُذكر.

والثانية: في انتصاره المعنوي علـى التتار الَّذي قلَّ أن وُجِدَ له نظير في تاريخ الأمم، وذلك حين استطاع الإسلام، باعتباره دينًا ورسالة ـ والتتار هم المتحكمون في عدد من دياره وأقطاره ـ أنْ يُؤثِّر في التتار المنتصرين، ويجذبهم إلى ساحته، ويغريهم بدعوته، فتقع المعجزة الإسلاميَّة، ويدخل التتار في دين الله أفواجًا، ويسجِّل التاريخ اعتناق الغالبين دين المغلوبين!

هكذا واجه الإسلام الغزو التتاري أو المغولي، وحوَّل التتارَ إلى مسلمين، وحسُن إسلامهم فيما بعد، ودافعوا عن الإسلام.

أمَّا اللطمة الأخرى: لطمة «التغريب» فقد كانت من القوَّة والنفاذ والخطر، بحيث لم تزل أُمَّة الإسلام تواجه نتائجها، وتعاني آثارها في الأنفس والعقول والحياة إلى اليوم[١].

وأخطر ما نجح فيه «التغريب» أنَّه كوَّن جيلًا أو أجيالًا من أبناء الأُمَّة نفسها، يقومون بمُهِمَّته، ويلعبون دوره، ويغنون عنه. هؤلاء هم «المتغرِّبون».

يقول برنارد لويس في مقام آخر:

«والتغريب الَّذي كان أكثره من عمل «المتغرِّبين» من أبناء الشرق، جاء بتغييرات يشَكُّ كثيرًا في قيمتها. أوَّل هذه التغييرات هو الانحلال السياسي الَّذي أدَّى إلى تفتيت المنطقة وتجزئتها، فقبل ذلك التاريخ كان

(١) انظر كتابنا: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا صـ ١٧ ـ ١٨، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٦، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

في الشرق الأوسط نظامٌ سياسيٌّ مستقرٌّ، فالشاه يحكم إيران، والسلطان هو عاهل المملكة العثمانيَّة الَّتي تشمل كلَّ ما بقي من الشرق الأوسط. وقد لا يكون كلُّ السلاطين الَّذين تعاقبوا على الحكم محبوبين من رعاياهم، ولكنَّهم كانوا في موضع احترام. والأهم من ذلك أنَّه لم يكن هناك خلاف على مشروعية الحكم، فالسلطان هو الحاكم بلا منازع، لأنَّه عاهل لآخر خلافة إسلاميَّة تضم جميع مسلمي العالم تقريبًا... ثمَّ عُزل السلطان، وهُدمت الخلافة، وقام مقامه عدد من الملوك والرؤساء والدكتاتوريِّين الَّذين دبَّروا لمدَّة معيَّنة أمرهم، وربحوا تصفيق وتأييد شعوبهم، ولكنَّهم لم يكونوا أبدًا موضع الرضا التام، والقبول الطبيعي، والولاء الأكيد، الَّذي كان ممنوحًا لحكومة السلطان الشرعيَّة، وهذا الولاء والقبول والرضا جعل السلطان غير محتاج للضغط والعنف والإرهاب أو للديماغوجية السياسيَّة(١) في الحكم.

وبضياع الشرعيَّة والولاء خسر أهل الشرق الأوسط «هويتهم الواحدة» القديمة، فبعد أنْ كان كلُّ مواطن عضوًا من أعضاء إمبراطورية إسلاميَّة كبيرة لها ألف سنة أو تزيد من التراث والتاريخ، وجد النَّاس أنفسهم مواطنين لسلسلة من الدول التابعة، والوحدات السياسيَّة الجديدة المفتعلة، والَّتي تحاول الآن إيجاد جذور لها في ضمير الشعب وولائه، وصاحب نسف وانهيار النظام السياسي القديم ـ على أيَّة حال ـ انحلال اجتماعي وثقافي موازٍ له. وربَّما كان النظام القديم في حالة تفسُّخ، ولكنَّه على أيَّة حالٍ كان قائمًا بوظيفته، حيث كانت الولاءات والمسؤوليَّات واضحة الحدود والمعالم، تجمع جميع فئات الشعب في

(١) مجموعة الحيل السياسية التي يلجأ إليها السياسيون لإغراء الشعب بوعود كاذبة ظاهرًا من أجل مصلحة الشعب، وباطنًا من أجل الوصول إلى الحكم.

QaradawiBooks.com

إطار واحد، ثمَّ دُمِّرت الأساليب القديمة، وسُخِر من القِيَم القديمة ثمَّ أُهمِلت، وقام محلها مجموعة من المؤسسات والقوانين والمقاييس الوضعيَّة المستوردة من الغرب، والَّتي بقيت لمدة طويلة غريبة عن أحاسيس وآمال المسلمين في الشرق الأوسط، بالإضافة إلى كونها تافهة بالنسبة لحاجاتهم»(١).

معركة المقاومة للتغريب:

وقد ذكرنا في دراسة لنا: أنَّ المسلمين لم يُبتلوا في تاريخهم بمثل هذا الغزو الفكري الغربي. لقد عرفوا لونًا من الغزو فيما سمِّي بـ «الإسرائيليات»، ولكنَّها ـ وإن كدَّرت الثقافة الإسلاميَّة ـ لم تؤثر فيها تأثيرًا يُذكر.

وعرفوا ما هو أشدُّ منها خطرًا حين تُرجمت فلسفة اليونان، وفُتن بها كثير من المسلمين، ولا سيَّما الجانب الميتافيزيقي منها، حتَّى اعتبر بعضهم «أرسطو» المعلِّم الأوَّل، وليس محمدًا ﷺ، واعتبروا فلسفة أرسطو «أصلًا» يرد إليها ما جاء في القرآن والحديث، فإنْ وافقها فبها، وإلَّا وجب تأويله.

ولكنَّ هذه الفلسفة لم تؤثِّر إلَّا في خاصَّة الخاصَّة، ولم تفعل ما يفعله الفكر الغربي الآن، الَّذي تغلغل في الحياة كلِّها.

والمهمُّ هنا: أنَّ الفكر الإسلامي لم يستسلم يومًا للغزو التغريبي المتمكِّن، المدجَّج بالسلاح، المعزَّز بالسلطان، المؤيَّد بالمال، بل قاوم منذ أوَّل يوم بما يملك من أسلحة ضعيفة، وربَّما هزم أنصاره في بداية

(١) الغرب والشرق الأوسط صـ ٦١، ٦٢.

QaradawiBooks.com

الأمر، وحَسِبَ الغزاة أنَّ الأمر قد استتبَّ لهم، وأنَّ الجوَّ قد خلا لهم، وأنَّ شمس الإسلام قد غربت.

وخاب فألُهم، فالأُمَّة المسلمة قد تنام، ولكنَّها لا تموت، والقوَّة الإسلاميَّة قد تكمن، ولكنَّها لا تزول، والمقاومة قد تتوقف فترة، ولكنَّها سرعان ما تنتفض، ويطلع فجرها مرَّة أخرى أشدَّ ضياءً وجلاءً.

إنَّ طبيعة الإسلام: بقرآنه المحفوظ، وبسُنَّة نبيِّه المبيِّنة، وبسيرته الحيَّة، وبهدي أصحابه الَّذين تربَّوْا في حجره، وببطولات سلف الأُمَّة وأخلاقيَّاتهم الهادية، يستحيل أنْ تخبو جذوته، أو ينطفئ سراجه، أو تغيب شمسه، قد تغيب عن قوم لتطلع عند آخرين، وقد يحجبها سحاب طارئ، لتبزغ بعدُ أضوأ وأنور.

لقد علَّمنا القرآن والسُّنَّة أنَّ هذه الأُمَّة لا تجتمع كلُّها على ضلالة ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]. وقد روى عدد من الصحابة حديث «الطائفة المنصورة» الَّتي تظل قائمة على الحقِّ حتَّى يأتي أمر الله وهم على ذلك[١]، وروى الحديث الآخر: «**يحمل هذا العلم من كلِّ خَلَفٍ عُدولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[٢].

---

(١) صحَّ من حديث عمر، ومعاوية، والمغيرة، وثوبان، وأبي هريرة، وقرة بن إياس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وعقبة بن عامر، وجابر بن سمرة، وأبي أمامة، انظر: الأحاديث (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦)، ومن (٧٧٠١) إلى (٧٧٠٤) من صحيح الجامع الصغير وزيادته.

(٢) رواه ابن وضاح في البدع (١)، والبيهقي في الشهادات (٢٠٩/١٠)، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٨)، عن إبراهيم بن عبد الرحمٰن العذري. والحديث ذكره الإمام ابن القيم وقوَّاه لتعدُّد طرقه في مفتاح دار السعادة (١٦٣/١، ١٦٤)، نشر دار الكتب العلمية، =

QaradawiBooks.com

ولا عجب أنْ هيَّأ الله للمسلمين في أقطار شتَّى مَن وقفوا في وجه هذا الغزو: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقامت حركات الإحياء والتجديد الَّتي تحدَّثنا عنها بدورها في هذه المعركة، الَّتي تكاد تكون أطول المعارك وأعنفها وأخطرها، وسرعان ما تراجع الغزاة المسلحون، وإن لم يُهزموا تمامًا، ولم يُلقوا أسلحتهم، فلا تزال لهم بقايا في كل الأقطار تعمل بجدٍّ ودأب، والمعركة مستمرة، والنصر في النهاية لأهل الدار، وأصحاب الحق، والعاقبة للمتقين.

هدف التغريب إلى «علمنة» الدولة، و«علمنة» المجتمع، بتشريعه وثقافته وتعليمه وإعلامه وتقاليده. ووقف رجال الإسلام لهذه العلمنة بالمرصاد، وقف رجال الجامعات الدينيَّة كالأزهر وغيره، والجماعات الإسلاميَّة، يعملون ويجاهدون لاستعادة هُوِيَّة المجتمع، وإفشال دعوة التغريب والعِلمانيَّة.

تطور الفكر الإسلامي من التبعيَّة إلى المواجهة:

وكلُّ دارس أو مراقب للفكر وتطوُّره خلال هذا القرن يلحظ: تطور الفكر لدى المسلمين من حالة التبعيَّة المطلقة إلى حالة الاعتزاز والمواجهة.

= بيروت. وكذلك العلَّامة ابن الوزير الذي استظهر صحَّته أو حُسْنه، لكثرة طرقه مع ما نقل من تصحيح الإمام أحمد له، والحافظ ابن عبد البر، وترجيح العقيلي لإسناده، مع سعة اطلاعهم وأمانتهم، فهذا يقتضي التمسك به. انظر: الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم لابن الوزير (٢١/١ ـ ٢٣)، نشر دار المعرفة، بيروت.

وانظر كلامنا عن هذا الحديث في كتابنا: كيف نتعامل مع السُّنَّة النبويَّة صـ ٣٦ ـ ٤١، نشر دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٠م.

QaradawiBooks.com

فقد مرَّ الفكر الإسلامي ـ أعني فكر المسلمين ـ بمراحل، ابتدأت بالهزيمة المطلقة أمام فكر الحضارة الغربيَّة الغازية، الَّتي كان يمثلها في ذلك الوقت الاستعمار المتمكِّن من جلِّ بلاد المسلمين في المشرق والمغرب.

كان الغرب في أوج تفوُّقه وتقدُّمه ونفوذه وقوته، علميًّا وتكنولوجيًّا وعسكريًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا، وكان المسلمون في حضيض ضعفهم وتخلُّفهم، في كل هذه النواحي، وكان لا بدَّ لهذه الحالة أنْ تعكس أثرها على العقول والأنفس، والفكر والثقافة.

وقد توهَّم بعض النَّاس المتعجِّلين الخاطفين للأفكار: كأنَّما الإسلام هو سبب تخلُّف الأمة، وكأنَّ التخلُّف ـ بطبيعته ـ إسلامي، والتقدم بطبيعته غربي! فلا غرو أنْ بهر الغرب أفكارهم، وخطف سَنَا بَرْقِهِ أبصارَهم.

ولو كان هذا صحيحًا ما سُدنا العالم، وسادت حضارتنا لنحو عشرة قرون، كنَّا فيها معلِّمي البشريَّة، وكانت جامعاتنا تستقبل الطلاب من أنحاء العالم، وكانت أسماء علمائنا أشهر الأسماء، وكتبهم هي مراجع العلم العالميَّة، واللغة العربيَّة هي لغة العلم الأولى، بل الفذَّة في تلك العصور.

ولو كان ما ذكروه صحيحًا ما كان الغرب لعدة قرون يعيش في عصور الظلام، ولا يرى الضوء إلَّا من سَم الخياط. فقد كان يشكو الفقر والأميَّة والقذارة والتفكك في كل جوانب الحياة، حتَّى مسَّته نفحة من الشرق الإسلامي، فهبَّ من رقود، وتحرَّك من جمود، في حين نحن بدأنا نسلك سبيل الانحدار واأسفاه!

QaradawiBooks.com

لقد رأينا رجالًا كبارًا سلَّموا للغرب الزمام، واستسلموا لتيار التغريب، بل منهم من كانوا دعاته ومروِّجيه من البدء، وكان غير المسلمين أشد جرأة، وأعلى صوتًا في ذلك من المسلمين، كما رأينا أمثال سلامة موسى وغيره.

ثم ظهر في أثناء ذلك مسلمون كان لهم نفوذهم وجاههم، مثل طه حسين ومنصور فهمي.

هناك من تَبَنَّوا الفكرة الداروينيَّة في النشوء والتطور ودافعوا عنها، وقاتلوا دونها مثل شبلي شميل في لبنان، وإسماعيل مظهر في مصر.

ومن تبنَّوا فكرة «دوركايم» في علم الاجتماع ومن تبنَّوا فكرة «فرويد» في التحليل النفسي.

ومن أهم هذه الأفكار الَّتي شغلت النَّاس وقسمتهم: فكرة «كارل ماركس» في فلسفة المادِّيَّة الجدلية، والصراع الطبقي، والفلسفة الجماعية، والتخطيط الاقتصادي المركزي، والَّتي قامت على أساسها الدول الشيوعيَّة الكبرى: روسيا، الاتِّحاد السوفيتي في الغرب، والصين في الشرق، وإن كان «ماو تسي تونج» قد أضفى على الشيوعيَّة الصينيَّة طابعًا خاصًّا. وقد قامت في بلادنا أحزاب وجماعات تتبنى هذا الفكر وتروِّج له، وتجمع الشباب عليه، وتخوض المعترك السياسي على أساسه. منهم من كانت قبلته «موسكو»، ومن كانت قبلته «بكين». منهم من كان زعيمه وملهمه «لينين»، ومن كان ملهمه «ماو»، ومن كان ملهمه «غيفارا»، وكلهم «ماركسيون».

وفي مقابل الفكرة الماركسيَّة: كانت الفكرة الليبراليَّة، الَّتي تتبنى الفلسفة الفرديَّة، وحرِّيَّة الفرد الاقتصاديَّة والسياسيَّة، والَّتي كان من

QaradawiBooks.com

ثمراتها العمليَّة: الرأسماليَّة في الاقتصاد، والديمقراطيَّة في السياسة. والَّتي قامت على أساسها الدول المتقدمة في أوربا الغربيَّة، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكيَّة.

وكانت معظم النخب المثقفة في أوطاننا في أوائل القرن وأوسطه منقسمة بين التيارين الجديدين والمتعارضين: التيار اليساري الماركسي، والتيار اليميني الليبرالي، وإن كان الليبرالي أكثر عددًا، وأقوى عدة. وكلاهما غربي النشأة والجذور والوجهة، كما أنَّ كليهما مادي الوجهة، حسي النزعة، نفعي التوجُّه.

أما الفكر الإسلامي الحقيقي فكان في أوائل القرن كأنَّه غائب عن الساحة إلَّا ما كان من أصوات هنا وهناك، تقاوم وتقاوم، مثل «مجلة المنار» وصاحبها محمَّد رشيد رضا ـ امتداد مدرسة محمَّد عبده ـ في مصر، ومثل جماعة ندوة العلماء ومؤسَّستهم «دار المصنِّفين» في الهند، وعلى رأسهم العلامة شبلي النعماني والسيد سليمان الندوي، في الهند، ومثل العلامة عبد العزيز الثعالبي في تونس.

وبعد مرحلة المناداة بالتبعيَّة المطلقة وبصراحة للفكر الغربي بخيره وشرِّه، جاءت مرحلة أخرى، هي مرحلة «التبرير» بمعنى أخذ مسلمات الفكر الغربي، ثمَّ محاولة تبريرها إسلاميًّا، وتمريرها لدى الأُمَّة، بالبحث عن فتاوى لتسويقها شرعًا.

وكانت هذه في الواقع عمليَّة تدليس أو تلبيس من إبليس؛ لأنَّه يريد منا أن نأخذ الخواجة الغربي، ونلبسه عباءة عربيَّة، أو عمامة إسلاميَّة.

وهذا كما رأينا الَّذين يحاولون أخذ الربا من النِّظام الرأسمالي الغربي، ثمَّ يسوِّغونه بأسانيد شرعيَّة فيما زعموا، مثل أنَّه ليس من ربا

QaradawiBooks.com

الجاهليَّة، أو أنَّه ليس من ربا الاستهلاك، أو أنَّه ليس أضعافًا مضاعفة أو غير ذلك من التبريرات، الَّتي ردَّ عليها العلماء الراسخون وأبطلوها.

وبعد هذه المرحلة جاءت مرحلة أخرى، هـي مرحلة «الدفاع» عن الإسلام، أو «الاعتذار» عن الإسـلام، أي اعتبار الإسلام كأنَّه في قفص الاتهام، وعلينا أنْ ندافع عنه، ونطلب له العفو والرحمة.

فكلُّ ما تميَّز به الإسـلام من أحكام وتعاليم يجـب أن يوضع هذا الوضع، مثل قضيَّة «حجاب المرأة» أو «ميراثها على النصف» من أخيها، وقوامة الرجل عليها في الأسـرة، أو «قضيَّة الربا» أو غيرها من القضايا الَّتي للإسلام فيها موقف مخالف لما استقرَّ عليه الأمر عند الغرب.

ثم جاءت بعد ذلك مرحلة الاعتزاز بالـذات، والمواجهة مع الفكر المغاير، وخصوصًا فكر الحضارة المادِّيَّة المعاصرة بشـقَّيها الرأسمالي والشـيوعي، وقد تجلَّى ذلك في تراث الدعاة الكبار في هذا القرن، في العالم العربي، وفي باكسـتان والهند وإيران وغيرها من بلاد الإسـلام، مثل المودودي في باكستان، وحسـن البنَّا، وسيِّد قطب، ومحمد البهي، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد الغزالي والشـعراوي وغيرهم في مصر، ومثل السباعي وحوَّى في سـوريا، ومثل باقر الصدر في العراق، ومثل علي شريعتي في إيران، وفي الأحياء كثيرون يصعب حصرهم.

وقد تميَّزت هذه المرحلة ـ مع الاعتـزاز والمواجهة ـ بالانفتاح والمرونة الفكريَّة والتسامح مع الآخر، المخالف في الدين أو المغاير في الفكر. ودعت إلى الحـوار، وغلب فيها «تيار الوسـطية» الَّذي يدعو إلى الاعتدال في فهم الدين وتنزيله على الواقع، وفي التعامل مع الآخرين.

QaradawiBooks.com

ومن أتباع التيارين الماركسي والليبرالي من استمروا على عبوديتهم لفكرهم القديم، ومنهم من تغيَّر إلى النقيض، وخصوصًا من الماركسيين، ومنهم مـن تغيَّر في السياسـة لا في الفكر، فأصبح مـن أتباع الموقف الأمريكي. وأحسب أنَّ منهم دعاة التطبيع المطلق مع إسرائيل في مصر وغيرها، وهم الَّذين عرفوا بـ «جماعة كوبنهاجن».

ومن هؤلاء وأولئك مَن تحوَّل إلى الإسلام صادقًا.

من هؤلاء الدكتور منصور فهمي.

ومنهم: الأستاذ إسماعيل مظهر.

ومنهم: الدكتور مصطفى محمود.

ومنهم: الأستاذ خالد محمَّد خالد، الَّذي خرج على الخط الإسلامي في كتابه الشهير «من هنا نبدأ» وما تبعه من كتب عدة، ثمَّ رجع إلى خطه الأصلي ـ الخط الإسـلامي ـ وخطَّأ نفسه في شـجاعة نادرة، وصراحة باهرة، في كتابه «الدولة في الإسلام» وما بعده من كتب.

ومنهم الدكتور محمَّد عمارة، والمستشـار طارق البشري، والأستاذ عادل حسـين، وقد كانوا في مرحلةٍ من حياتهم تأثَّروا بالماركسـيَّة بل دخل بعضهم السجن من أجلها.

وهـم الآن ـ ثلاثتهم ـ مـن أقـوى وأبـرز الدعاة إلى الإسـلام، والمدافعين عنه، كل في موقعه.

بل منهم الشـيخ علي عبد الرازق، الَّذي لم يسـع إلـى طبع كتابه «الإسـلام وأصول الحكم» طوال حياته، ولم يتابعه بأيِّ بحث أو مقال يؤيد الفكرة، بل نقل عنه الدكتور عمارة أنَّـه قال لبعض المجلات عن

QaradawiBooks.com

عبارة «الإسلام رسالة روحيَّة، ولا صلة لها بالدولة أو السياسة»: أنَّها عبارة ألقاها الشيطان على لسانه. وقد كان في أواخر حياته يصلِّي وراء الشيخ الغزالي في الجامع الأزهر، ويحرص على ذلك، ولم يكن الشيخ الغزالي يعرفه، فسأله أن يعرِّفه بنفسه، فقال له: أنا علي عبد الرازق. وجرى بينهما حديث سريع حول الماضي وكتابه الشهير، فقال له: تلك مرحلة انتهت. سمعت هذا من الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى.

وكذلك تغيَّر الدكتور محمَّد حسين هيكل من النزعة الفرعونيَّة إلى النزعة الإسلاميَّة، كما ظهر في كتبه المعروفة: «حياة محمَّد»، «الصِّدِّيق أبو بكر»، «الفاروق عمر»، «في منزل الوحي».

بل طه حسين نفسه في أواخر حياته غيره في أوائل حياته، كما يظهر ذلك في كتابه «مرآة الإسلام» وغيره. وقد حكوا أنَّه عندما كان وزيرًا للمعارف زار المدينة المنورة، فكان ممَّا كرَّمه به السعوديون: أنَّهم فتحوا له باب القبر النبوي ليزوره من الداخل. قال مرافقه: وعند دخول القبر وجدته يرتعش، وعيناه تدمعان، فسألته مندهشًا، فقال له: ألا تدري قبر من هذا؟ إنَّه قبر رسول الله محمد!

وكذلك العقَّاد، لم يكن في أوائل حياته، كما كان في آخرها، فقد غدا لسانًا من ألسنة الإسلام، دعوةً إليه، ودفاعًا عنه. وكتب عبقريَّاته الإسلاميَّة، و«الفلسفة القرآنيَّة»، و«الإسلام في القرن العشرين»، و«حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»، و«الشيوعيَّة والإنسانيَّة»، و«ما يقال عن الإسلام»، وغيرها.

وأحسب أنَّ الاستعمار لن يكون سعيدًا ولا قرير العين اليوم، إذا رأى أنَّ جهوده الطويلة المتتابعة المكثفة المخططة، لم تحقِّق هدفها الأساسي

QaradawiBooks.com

في تحويل أُمَّة الإســلام عن نهج دينها، وشــرع ربها، ونسخها إلى أُمَّة أخرى، فها هي الصحوة الإســلاميَّة تقلب الأوضاع رأسًــا على عقب، وترعب القوى المعادية للإسلام، في الغرب والشرق، حتَّى باتوا يكيدون لها كيدًا، ويمكرون بها مكرًا كُبَّارًا، والله من ورائهم محيط.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

لقد قلبت الصحوة الموازين، وغيَّرت الأفكار والأوضاع، حتَّى أصبح الشارع مع الحركة الإســلاميَّة في عامَّة الأقطار، في مصر، وفي الأردن، وفي اليمــن، وفي غيرها. حتَّى الجزائر الَّتي اســتمرَّ فيهــا أخبث أنواع الاســتعمار ـ وهو الاســتعمار الاســتيطاني ـ (١٣٠) مائة وثلاثين عامًا، تنتصر عسكريًّا على هذا الاستعمار، وتعود طوعًا إلى حقيقتها وذاتيَّتها، وتقوم فيها صحوة إســلاميَّة لا نظير لها، تنتهي بإيصال الإسلاميين إلى أغلبيَّة ســاحقة انتخبها الشعب مختارًا لمجلســه الوطني، وإنْ أبى ذلك العسكريون الموالون للثقافة الفرنسية.

وقامت للإسلام دولة شيعيَّة في إيران، ودولة سُنِّيَّة في السودان، ولو ترك الأمر للشعوب لقامت دول في أكثر من مكان.

وســنفرد الفصل القادم عن «الصحوة الإســلاميَّة» وأثرها في الحياة الإسلاميَّة.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

انطلاق الصحوة الإسلاميَّة

ومن أعظم إنجازاتنا نحن المسلمين في هذا القرن: ظهور حركة «الإحياء» أو «البعث» أو «اليقظة» أو ما شئت من التسميات الَّتي تدلُّ على ظهور الإسلام في صورة «تيار جديد» أثَّر في الحياة الإسلاميَّة، وجدَّد الثقة بعودة الإسلام إلى قيادة الحياة، وأقلق القوى المعادية للإسلام، والخائفة منه. هذه الحركة، أو هذا الانبعاث، أو هذا التيار هو ما عرف باسم «الصحوة الإسلاميَّة». ولا سيَّما في الثلث الأخير من هذا القرن.

ولا أعرف بالضبط من هو أوَّل من أطلق هذا الاسم أو صكَّ هذا المصطلح، لكنَّه مصطلح صحيح ومعبِّر عن مضمونه؛ فإنَّ الأُمَّة قد تنام أو تُنوَّم أو تعطى ما يسكرها أو يخدِّرها، ثمَّ تصحو وتفيق ممَّا أصابها من نوم أو تنويم أو سكر أو تخدير.

فالصحوة تعني «عودة الوعي» بعد غياب: الوعي بالنفس، والوعي بالغير «صديق أو عدو» والوعي بالرسالة، والوعي بالزمان والمكان.

وقد عاد الوعي، أو برزت الصحوة في أمتنا، وسرت في كيانها سريان الكهرباء في الأسلاك، وجرت في رجالها ونسائها، مجرى الدم في العروق، وانتشرت في بلاد الإسلام انتشار أضواء الصباح، وتنقلت

QaradawiBooks.com

من بلد إلى بلد، كما تنتقل الرياح الَّتي تسوق السحاب بشرى بين يدي رحمة الله، وهو المطر.

لا أعرف أين بدأت، ولكن أحسبها بدأت في مصر بلد الأزهر، والبلد الأم للدعوة الإسلاميَّة في العالم العربي، ومنشأ كبرى الحركات الإسلاميَّة، ومصر بلد مؤثِّر في العالم العربي والعالم الإسلامي كله، إنَّها تُصدِّر الخير، وتُصَدِّر الشرَّ. أعظم قارئي القرآن يخرج من مصر، وأعظم داعية إلى الدين يظهر في مصر، وأعظم مفسِّر للقرآن يبرز في مصر، وأعظم مطرب أو مطربة، وممثل أو ممثلة يظهر أيضًا في مصر.

فلا عجب أنْ يبزغ فجر الصحوة من مصر، ومنها انطلقت إلى البلدان الأخرى، مشرقة ومغربة: إلى العالم العربي، فالعالم الإسلامي، فالجاليات الإسلاميَّة في أوربا وأمريكا الشماليَّة والجنوبيَّة، والشرق الأقصى.

لقد رأيت هذه الصحوة رأي العين، ولمستها لمس اليد، وعايشت أبناءها وبناتها في المشارق والمغارب، والشمال والجنوب.

رأيت هذا الشباب الَّذي عاد إلى الإسلام بفهم جديد، وإيمان جديد، وعزم جديد. شبابًا يشرق كضياء الفجر، ويتدفَّق كأمواج البحر، نراه في رقة الزهر، وفي صلابة الصخر، يصوم الاثنين والخميس، يتلو القرآن ويتعبَّد بتلاوته، ويدرس سيرة الرسول ﷺ، ويتأسى بهديه، ويتابع سير الصحابة ويتمنَّى أنْ يقتدي بهم.

شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشرِّ أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، يمشون على الأرض وأعينهم ترنو إلى السماء، ويعيشون في الدنيا وقلوبهم موصولة بالآخرة. ولقد قلت يومًا في مصر:

QaradawiBooks.com

إنَّ هذا الشباب الَّذي خالطت قلبه بشاشة الإيمان، وعاش للإسلام وبالإسلام، هو أثمن ما في مصر من ثروات، إنَّه أثمن وأغلى من الذهب الأبيض (القطن) والذهب الأسود (البترول) والذهب الأصفر المعروف.

إنَّه الثروة الَّتي لا تدانيها ثروة، وهي الَّتي تغالي بها الأمم، وتعقد عليها الخناصر، وبها تقوم النهضات، وتنتصر الرسالات ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

لقد باتت الصحوة حقيقة واقعة في عالم الإسلام، لا ينكرها إلَّا جاحد أو مكابر، وقد سُرَّ بها كل من يحب الإسلام ويرجو له الخير، وكرهها أو خاف منها كلُّ عدو للإسلام، يتربص به السوء، أو يخاف من انتصاره، أو يكره علوَّ كلمته في الأرض. وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١].

كانت هذه الصحوة الإسلاميَّة ـ كما شهدناها ـ صحوة شاملة:

فهي صحوة عقول وأفكار.

وهي صحوة قلوب ومشاعر.

وهي صحوة عزائم وإرادات.

وهي صحوة سلوك والتزام.

وهي صحوة غيرة ودعوة.

وهي صحوة كفاح وجهاد.

وهي صحوة مسلمين ومسلمات.

ولقد أثبتت وجودها على هذه الأصعدة كلها.

QaradawiBooks.com

أسباب ظهور الصحوة وجذورها:

وقد تساءل الكثيرون عن ظهور هذه الصحوة الَّتي فاجأت الكثيرين، وصدمت الكثيرين، في الداخل والخارج، ممَّن ذهبت بهم الظنون: أنَّ الإسلام قد غربت شمسه، أو انتهت مدة صلاحيته، وأنَّ الضربات القاصمة الَّتي أنزلت بحركته ودعوته، وأصابت أصحابها بجراحات غائرة، شتَّت شملهم، وعوَّقت سيرهم، وقوَّضت خيامهم، فإذا هو يحيا من جديد، أشدَّ قوَّة، وأصلب عودًا، مرفوع اللواء، عالي النداء، متين الأسس، شامخ البناء.

أسباب مزورة للصحوة:

ما سبب هذه الصحوة؟ وما العامل المؤثِّر في ظهورها؟

كتب كاتبون كثيرون في ذلك، يمثلون شتَّى الاتجاهات، وكلٌّ يُغَنِّي على ليلاه، وكلٌّ يُفَسِّر الأحداث وَفْق فلسفته الَّتي يؤمن بها، وتبعًا لمدرسته الَّتي ينتمي إليها.

فهناك أتباع «التفسير المادي» الَّذين أرادوا أن يردوها إلى أسباب اقتصاديَّة برزت في المجتمع. وهذا هو ديدنهم في تفسير كل وقائع التاريخ، وتغيراته. حتَّى ظهور النبوَّات والرسالات السماويَّة، أسبابه اقتصاديَّة! ومن لم يؤمن بالله ولا بملائكته وكتبه ورسله، لا يستبعد عليه ذلك. وقد يكون للاقتصاد بعض الأثر في ظهورها، ولكنَّه ليس السبب الوحيد، ولا السبب الأول، ولا السبب القوي، من غير شكٍّ.

وآخرون ردُّوها إلى أسباب نفسيَّة، نشأت بعد نكبة سنة (١٩٦٧م)، الَّتي سمَّوها «النكسة»، والَّتي احتلت بها إسرائيل ما بقي من فلسطين بعد نكبة سنة (١٩٤٨م)، وأضافت إليها الجولان وسَيْناء.

QaradawiBooks.com

ولا غرو أنْ توقـظ النكبات الكبرى النـاس، ما داموا على بقية من سلامة الفطرة.

وقد بيَّن لنا القرآن موقف الإنسان ـ ولو كان مشركًا ـ إذا مسَّه الضر، ونابه الكرب؛ فهو يدعو ربَّه منيبًا إليـه. كما صوَّر موقف ركاب الفُلك، إذا عصفت بهـم الريح، وأحاط بهم الموج من كل مـكان، وظنُّوا أنَّهم أحيط بهم: دعوا الله مخلصين له الدين. أي: أنَّهم في هذه الحالة رجعوا إلى الفطرة، ولم يذكروا إلَّا الله وحده. فلا يستبعد أن تهز النكبة الثانية[1] ـ بعد نكبة سـنة (١٩٤٨م) ـ نكبة سـنة (١٩٦٧م): كيان الإنسان المسلم، وتردَّه إلى ساحة الله تعالى، بعد أن استنسر في أرضه البُغاث، وتجرَّأ عليه الجبان، وانتصر عليه اليهود، أحرص النَّاس على حياة!

هل الصحوة من صنع حاكم عربي؟

وأغرب ما كتبه بعض اليسـاريِّين والعِلمانيِّيـن العرب في مصر: أنَّ أحد الحُكَّام[2] هو الَّذي أنشـأ هذه الصحوة وأوجدها من العدم، ليقاوم بها التيار الشيوعي المتنامي في نظره!

وإنْ تعجب فعجب أن يقول ذلك الَّذين يزعمون أنَّهم ينطقون بلسان الجماهير! ولا أدري كيف جهل هؤلاء أنَّ صحوات الشعوب لا تصنعها إرادة الحكام، ولا سـيَّما إذا كانت صحـوة عميقة الجـذور في الفكر والشعور والإرادة والسـلوك، كما هو المشـاهد في الصحوة الإسلاميَّة المعاصرة، وليست مجرد زبد طاف على السطح!

(١) هكذا سمَّيناها في كتابنا: درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف ننتصر؟

(٢) يريدون: الرئيس المصري الراحل أنور السادات!

QaradawiBooks.com

لو كانت هــذه الصحوة من صنــع حاكم، لاســتطاع أنْ يلغيها كما أنشأها؛ فإنَّ الَّذي يقدر على البناء يقدر على الهدم، بل هو أسهل.

وليت شــعري، من الَّذي صنع الصحوة في ســائر ديار العرب غير مصر؟! ومن الَّذي صنعها في ســائر ديار الإســلام؟! ومن الَّذي صنعها خارج العالم الإسلامي؟!

قد يفكِّر حاكم ما في وقت ما اســتغلال الصحوة في إضعاف عدو له، لا محبة في زيد، ولكن كراهية في عمرو! وقد ينجح في ذلك، وقد يخفق، وقد يتفق هدفه هذا مع هدف الصحوة نفســها، وقد تعتقد أنَّها هي الَّتي تستغله! ومهما يكن، فلا يعني شيء من هذا أنَّ الصحوة مِن صنع يده.

ربما غاظ هؤلاء أنَّ هذا الحاكم أتاح للتيار الإسلامي ـ في وقت ما ـ أنْ يعبِّر عن نفســه، كما يعبِّر غيره، كما أتيح لكل التيارات من يمين ويسار أن تعبِّر عن نفسها، بل هيَّأ لها في سنوات طويلة أن تثب على أجهزة إعلام الدولة، وتســيطر عليها، وتُوجِّهها لخدمة فكرها، وتشــويه الفكر الإســلامي والافتراء عليه، ولا أحد يملــك الردَّ أو الاعتراض!

أجل، هذا ما ملأ قلــوب هؤلاء غيظًا؛ لأنهم يعلمــون ويوقنون من تجارب الماضي والحاضر: أنَّ التيار الإسلامي هو التيار الوحيد الأصيل المتجاوب مع فطرة الأُمَّة ووعيها وتاريخها، وأنَّ حرِّيَّة الكلمة والحركة هي دائمًا في مصلحة التيار الإسلامي، وأنَّه لا يقاوَم إلَّا بالحديد والنار، وقهر الشــعوب على غير ما تريد، وأنَّه يكمن، ولكــن لا ينمحي، وقد يضعف، ولكن لا يموت.

QaradawiBooks.com

إنَّ كلَّ ما يطلبه التيار الإسلامي: أن تترك له الحرِّيَّة ليخاطب الشعب، ويجنِّد الجماهير، ويدعو إلى حقائق الإسلام، ويرد على أباطيل خصومه. وهذا حقٌّ من حقوق الإنسان، كفلته المواثيق الدوليَّة، والدساتير المحليَّة، ونادت به الديمقراطيَّة الَّتي يتغنَّون بها.

أم يريدونها ديمقراطيَّة لهم وحدهم، وهم ـ بأفكارهم المستوردة ـ غرباء عن الأُمَّة، دخلاء عليها؟ فحرِّيَّة الرأي والتعبير والحركة والاجتماع حقٌّ لكل اتجاه وكل فلسفة، إلَّا الاتجاه الإسلامي صاحب الدار! ورحم الله شوقي الَّذي قال:

أَحَرَامٌ عَلَى بَلَابِلِهِ الدَّوْ حُ، حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ؟!
كُلُّ دارٍ أحقُّ بالأهلِ إلَّا في خَبِيثٍ من المذاهبِ رِجْسِ(١)

والغريب أنَّ هؤلاء الَّذين يدَّعون لأنفسهم ـ أو يدعي لهم مروجو بضاعتهم ـ القدرة على الغوص والتحليل، ينظرون إلى الصحوة كأنَّها ظاهرة شاذَّة، أو خارقة لقوانين الكون وسنن الاجتماع البشري.

وكأنَّ الأصل في الأُمَّة المسلمة، أن تنام فلا تصحو، وأن تفقد الوعي، فلا تفيق. وإذا أفاقت وصحت، وجب أن يكون صحوها وإفاقتها بغير الإسلام، ولغير الإسلام!

حقائق الدين والتاريخ:

ولعمري، إنَّ هذا كله باطل؛ فالأصل في أمتنا أن تصحو وتتنبه بالإسلام وللإسلام، ومن رجع إلى تراثنا وجد علماءنا يقولون: ما جاء على الأصل لا يُسأل عن علته. ذلك؛ لأنَّ من شأن الأُمَّة الإسلاميَّة ألَّا

(١) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (٤٦/٢).

QaradawiBooks.com

يطول غيابها عن وعيها، بمقتضى طبيعة الإسلام الَّذي تؤمن به، والَّذي تستمع لقرآنه صباح مساء، والَّذي لا تغيب عن ذاكرتها سيرة رسوله ﷺ وسِيَرُ أبطاله. طبيعة هذا الإسلام تأبى إلَّا أن توقظها من سُبات، وتحييها من موات؛ فالإسلام يدعوها أبدًا إلى العلم والعمل، ويرغبها في الفكر والنظر، ويحرِّضها على الكفاح والجهاد، ويَعدها بالنصر وعلو الكلمة، ويؤكد لها أنَّ الله مع المؤمنين، وأنَّ العاقبة للتقوى، وأنَّ النصر مع الحق، وأنَّ الباطل زاهق لا محالة: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ومن شأن هذه الأُمَّة ـ وَفْق ما جاء به القرآن وأخبر به الرسول، وما نطق به التاريخ ـ ألَّا تجتمع على ضلالة، وأنْ تظل فيها طائفة ثابتة على الحق، داعية للخير، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، حتَّى يأتي أمر الله وهم ظاهرون.

يقول الله في كتابه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

ويقول الرسول الكريم: «**لا تزال طائفةٌ من أُمَّتي قائمين على الحقِّ، لا يضرُّهم مَنْ خالفهم، حتَّى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك**»[(١)].

ويقول: «**إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سنة من يُجدِّد لها دينها**»[(٢)].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، عن معاوية. وصح عن عدد الصحابة.

(٢) سبق تخريجه صـ١١.

QaradawiBooks.com

ويقول: «**يحمل هذا العِلْم** ـ علم النبوة ـ **من كلِّ خَلَفٍ عُدُوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[1].

ويقول التاريخ: إنَّ هذه الأُمَّة قد أصابتها نكسات ونكبات كبرى، منذ فجر تاريخها، ظنَّ النَّاس معها بها الظنون، وابْتُلي بها المؤمنون وزُلزلوا زلزالًا شديدًا، ولكن الأُمَّة استطاعت أنْ تتغلب على عوامل الضعف من الداخل، وعوامل الغزو من الخارج، وأنْ تحوّل الهزائم إلى انتصارات، وأنْ تخلق من الضعف قوة، ومن التفرُّق وحدة، ومن الأشـلاء المبعثرة جسمًا عملاقًا.

وقال التاريخ أيضًـا: إنَّ هذه الصحـوات الكبرى لـم يصنعها غير الإسـلام حين يجد من يُعلي كلمته، وينادي باسـمه، ويجند قوى الأمة تحت رايته.

سـجَّل التاريخ ذلك في حروب الردَّة منذ عهد الخليفة الأول، يوم ارتدت قبائل العرب، وتبعوا المتنبئين الكذابين، ولم يبق على الإسـلام غير المدينة ومكة.

وسـجَّل ذلك في حروب الصليبيِّين في عهود عمـاد الدين زنكي، ونور الدين محمود الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي.

وسـجَّل ذلك مرَّة أخرى في غزو التتار للعالَم الإسـلامي، وبعد أن دمروا بغداد وأسـقطوا الخلافة العباسـية، ثمَّ لم يلبث الإسلام أن أثبت وجوده، وانتصر على التتار عسكريًّا في معركة حاسمة من معارك التاريخ، قادها سيف الدين قطز، مع جنود مصر، وهي معركة «عين جالوت» في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ، أي بعد سنتين فقط من سقوط بغداد (سنة ٦٥٦هـ).

---

(١) سبق تخريجه صـ١١٢.

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

وسجَّل ذلك في معارك التحرير والاستقلال في الأوطان الإسلاميَّة كافة. فقد كان الإسلام هو المحرك الأكبر، وهو القائد الحقيقي، لكل معارك الجهاد، ضد الاستعمار الغازي لبلاد المسلمين.

حركات الإحياء والتجديد والدعوة وأثرها في الصحوة:

على أنَّ هناك حقيقة يجب أن تُعرف وتُذكر، إذا تحدثنا عن أسباب الصحوة ومكوناتها، وهي: أنَّ الصحوة المعاصرة الَّتي نشهد آثارها ومظاهرها منذ أوائل السبعينيات، لم توجد من فراغ، ولا ولدت دفعة واحدة، ولا كانت «نباتًا شيطانيًّا» ظهر وحده، بغير زارعٍ ولا راعٍ، كما تصوَّر بعض الناس.

إنَّ هذه الصحوة امتداد وتجديد لحركات الإحياء، والبعث والتجديد الإسلاميَّة، الَّتي تحدَّثنا عنها في بحثنا هذا.

ابتداءً من حركة مُجَدِّد الجزيرة العربيَّة: محمَّد بن عبد الوهاب (ت: ١٢٠٦هـ ـ ١٧٩٢م) مرورًا بحركة مؤسس الدعوة السنوسية في ليبيا: محمَّد بن علي السنوسي (ت: ١٢٧٦هـ ـ ١٨٥٩م).

ثم بحركة الزعيم الديني الثائر المجاهد، الَّذي أقام حكم الشريعة في جنوب وادي النيل: محمَّد أحمد المهدي (ت: ١٣٠٢هـ ـ ١٨٨٥م)، ثمَّ بحركة عدو الاستعمار داعية «الجامعة الإسلاميَّة» جمال الدين الأفغاني (ت: ١٣١٤هـ ـ ١٨٩٧م).

وكذلك معاصره الأديب المصلح، عدو الاستبداد: الشيخ عبد الرحمٰن الكواكبي (ت: ١٣٢٠هـ ـ ١٩٠٢م).

ولن ينسى التاريخ تلميذ الأفغاني وصاحبه وشريكه في تحرير «العروة الوثقى» وفي حركة الإيقاظ والتجديد، رائد الإصلاح الفكري

QaradawiBooks.com

والتعليمي، وشـيخ المدرسة الإسـلاميَّة العقلية الحديثة: الأستاذ الإمام محمَّد عبده (ت: ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م).

رجال كان لهم أثرهم في الصحوة لا ينساهم التاريخ:

وكلُّ هؤلاء محسـوبون علـى ما قبل القـرن العشـرين، أمَّا القرن العشرون، فيذكر التاريخ رجالًا كان لهم دور يُذكر فيُشكر(١).

يذكر منهم تلميذ الشـيخ محمَّد عبده وصاحبه، وناشر علمه، الَّذي أخذ من شـيخه الاسـتقلال في الفكر، والثورة على الجمود والتقليد، وأضاف إليه التوغل في علم الحديث وآثار المدرسة السلفيَّة، فجمع بين القديم والجديـد، ووازن بين المعقول والمنقـول، وأصبح يمثل بجلاء «السـلفيَّة المجددة»، الَّتي تجسـد الأصالة والمعاصرة بحق. ذلكم هو: العلامة السـيد رشـيد رضا، صاحب مجلة «المنار»، و«تفسير المنار»، والكتب الَّتـي كانت في وقتها نمـاذج تحتذى، ومصابيـح بها يهتدى (ت: ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م).

ويذكر منهم الداعية المربي، المجاهد الصابـر، الَّذي قاوم علمانية الكماليين، وطغيان أتاتورك، وأشـعل جذوة الإيمان في قلوب الأتراك، بالتربية والقدوة، وبالكتب الرصينة، وبالرسائل الموجهة، وبالثبات على الحقِّ في مقاومة الباطل: الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي (ت: ١٩٦٠م).

ويذكر منهم الرجل القرآني، والمعلم الرباني، الَّذي جسَّـد بدعوته شمول الإسلام وتوازنه، وربانيَّته وواقعيته، فربط الفكر بالحركة، ومزج

---

(١) انظر كتابنا: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، نشر دار الشروق بمصر، ومؤسسة الرسالة ببيروت.

QaradawiBooks.com

العلم بالعمل، وجمع بين التربية والجهاد، كما جمع بين نقاء العقيدة السلفيَّة، وروحانيَّة الصوفية السُّنِّيَّة. ودعا إلى الإسلام عقيدةً ونظامًا، دينًا ودولة، عبادة وقيادة، مصحفًا وسيفًا. وحارب الفساد والظلم في الداخل، والاستعمار والصهيونيَّة في الخارج. وربَّى على الإسلام جيلًا جعل اللهَ غايته، والرسولَ أسوته، والقرآنَ شرعته، والجهادَ وسيلته، والموت في سبيل الله أسمى أمانيه. إنَّه مؤسس كبرى الحركات الإسلاميَّة الحديثة في العالم: الإمام الشهيد حسن البنَّا (ت: ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م)، واضع أسس العمل الإسلامي الجماعي، الَّذي انتشرت رسائله وتلاميذه، وتلاميذ تلاميذه في العالم كله انتشار أنوار الفجر. وشاء الله أنْ تكون المحن المتتابعة الَّتي صُبَّت على إخوانه وتلاميذ مدرسته، سببًا في هجرتهم بدعوتهم، وتفرُّقهم في أقطار الشرق والغرب، فتنتشر بهم الدعوة والصحوة في كل مكان.

ويذكر منهم المُفكِّر المُجَدِّد، صاحب النظر العميق، والتحليل الدقيق، ناقد الحضارة الغربيَّة على بصيرة، والداعي إلى نظام الإسلام عن بيِّنة، صاحب الكتب والرسائل الَّتي ترجمت إلى عشرات اللغات، الَّذي وقف في وجه دعاة «التغريب» و«أعداء السنة» والمنادين بنبوَّة جديدة «القاديانيين»، و«المرتزقة» من الخرافيِّين والقبوريِّين، و«مشوشي الفكر» من المقلِّدين الجامدين... مؤسِّس كبرى الجماعات الإسلاميَّة في شبه القارة الهنديَّة: العلَّامة أبو الأعلى المودودي (ت: ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م)، الَّذي اتَّفقت أصول دعوته مع أصول دعوة حسن البنَّا، وإن لم يلتقيا، وإنَّما التقى أبناء المدرستين، وتعاونوا في مجالات شتَّى، وخصوصًا في أوربا وأمريكا والشرق الأقصى.

QaradawiBooks.com

ويذكر منهم العالم الداعية المربِّي، الَّذي عاش للقرآن مُفَسِّرًا ومُطَبِّقًا، ودعا إلى السلفيَّة الواعية، والروحانيَّة الصافية، وحارب الجمود في الفكر، والانحراف في العقيدة، والعوج في السلوك، ووصل العلم بالتربية، مؤسِّس «جمعيَّة العلماء» في الجزائر، ومنشئ مجلة «الشهاب» الَّتي كانت كاسمها نورًا يهدي الحائرين، ورجمًا يرهب الشياطين، الشيخ المصلح: عبد الحميد بن باديس (ت: ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م).

ويذكر منهم الداعية الفقيه، الصابر المجاهد، صاحب الروح المشرق، والبيان المُغْدِق، والعقل المتفتِّح، الَّذي قاوم أعداء السُّنَّة فأسكتهم، ودعاة العِلمانيَّة فأفحمهم، مؤسس الحركة الإسلاميَّة في سوريا، ومنشئ مجلة «حضارة الإسلام». وصاحب الكتب القيمة، والرسائل النافعة: الشيخ الدكتور مصطفى السباعي (ت: ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م).

ويذكر منهم الرجل الصلب، الَّذي أوذي في الله، فما وهن وما ضعُف وما استكان، وقدَّم عنقه فداءً لفكرته... صاحب القلم البليغ، والأدب الرفيع، والروح المحلِّق، والبيان المشرق، والمنهج الواضح، والفكر الثائر... صاحب «التصوير الفني»، و«العدالة»، و«الظلال»، و«المعالم»، وغيرها من الكتب الَّتي انتشرت في لغات العالم الإسلامي، شرقًا وغربًا، الأديب الكبير، الداعية الشهيد: سيِّد قطب (ت: ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م).

ومنهم الداعية الكبير، والكاتب القدير، والخطيب الأصيل، أديب الدعوة الإسلاميَّة، ولسانها الناطق بالحق، الجاهر بالصدق، المعبِّر عن خلجات الجماهير، الَّذي قاوم الظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي، والاستعمار الصليبي. كما قاوم التديُّن المغشوش، والفهم المعلول

QaradawiBooks.com

للإسلام، ببيانه الزاخر، وأدبه الساخر، وكتبه الَّتي شرَّقت وغرَّبت: الشيخ محمَّد الغزالي (ت: ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

ومنهم: العالم الداعية البحاثة، صاحب التآليف الَّتي راجت بين شباب المسلمين، والَّتي تحمل الروح الثوريَّة، والدعوة الجهادية، مثل سلسلة الأصول الثلاثة: «الله» و«الرسول» و«الإسلام»، و«الأساس في التفسير» و«الأساس في السنة»: الشيخ سعيد حوى (ت: ١٩٨٩م).

هؤلاء الميامين من الدعاة والمفكرين كان لكلٍّ منهم تأثيره في جانب من الجوانب، على عدد من الناس، يقل أو يكثر، وفي رقعة من الأرض، تضيق أو تتَّسع، وعلى مدى زمني يقصر أو يطول، وإن كان كل واحد منهم يؤخذ منه ويرد عليه، باعتبارهم بشرًا غير معصومين، يجتهدون في خدمة الإسلام؛ فقد يصيبون، وقد يخطئون، وهم على كلِّ حال مأجورون على اجتهادهم، حتَّى فيما أخطؤوا فيه إن شاء الله.

وكان لأصحابهم وخلفائهم وخريجي مدارسهم الفكريَّة والحركية نصيب لا يُجحد في حركة البعث والإحياء الإسلامي، الَّتي نقطف بعض ثمراتها اليوم.

نوادر البطولة والبذل والثبات:

ولا ننسى هنا نوادر البطولة، ومواقف البذل والتضحية والثبات، الَّتي وقفها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، من رجال الدعوة الإسلاميَّة، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، عرفت منهم من عرفت، فما رأيت إلَّا الحق، وما شهدت إلَّا الصدق، وما علمت إلَّا الخير، مثل القاضي الفقيه الداعية عبد القادر عودة، والعالم الداعية الشيخ محمَّد

QaradawiBooks.com

فرغلي، والمحامي الملتزم إبراهيم الطيِّب، والجندي الصادق الصبور يوسف طلعت، (الَّذين شنقهم عبد الناصر سنة ١٩٥٤م)، والشيخ الداعية المتحمِّس عبد الفتاح إسماعيل، وزميله المجاهد محمَّد يوسف هوَّاش، (اللذَين شُنِقا مع سيِّد قطب سنة ١٩٦٦م)، وموقف الرجل الصامد الشامخ: الأستاذ حسن الهضيبي (ت: ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م)، المرشد الثاني لجماعة الإخوان المسلمين، ومواقف جماعة الشهداء الأبطال من إخوانه وأبنائه الأبرار، وغيرهم ممَّن بذل حياته ودمه لله قرير العين.

فكانت هذه المواقف الإيمانيَّة الفذَّة، غذاءً ووقودًا للصحوة الإسلاميَّة.

حركات الجهاد ورجالها:

كما كانت حركات الجهاد الإسلامي في العصر الحديث مددًا للصحوة لا يخفى تأثيره على دارس. كما كان لرموز هذه الحركات الجهادية تأثيرهم ودفعهم، مثل حركة الأمير عبد القادر (ت: ١٣٣٦هـ ـ ١٩١٨م) في الجزائر، والزعيم محمَّد أحمد المهدي (ت: ١٣٠٢هـ ـ ١٨٨٥م) في السودان، والأمير عبد الكريم الخطَّابي (ت: ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م) في المغرب، والشهيد عمر المختار (ت: ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣١م) في ليبيا، والشيخ عز الدين القسام (ت: ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م)، والمفتي أمين الحسيني (ت: ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م) في فلسطين.

علماء ودعاة ومُفَكِّرون كان لهم دورهم:

وإلى جوار رجال الجهاد والعمل، كان هناك رجال يعملون في ميدان الفكر والثقافة والأدب، يوقظون العقول، ويحركون المشاعر، ويصحِّحون المفاهيم، ويقاومون الاستعمار الثقافي.

QaradawiBooks.com

ومن هؤلاء شاعر الإسلام في الهند، الفيلسوف المفكر، الَّذي أيقظ بفكره العقول، وبشعره القلوب، الدكتور محمَّد إقبال (ت: ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م).

ومنهم أمير البيان، ومحامي الإسلام، الأديب العالم الموسوعي المؤرخ المصلح، صاحب المقالات الناصعة، والتعليقات الرائعة، والكتب النافعة، الأمير شكيب أرسلان (ت: ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٦م).

ومنهم أديب العربيَّة والإسلام، الَّذي جعل الله من قلمه للحق سيفًا يمحق به الباطل، صاحب الروائع البيانية، والمعارك الأدبيَّة في نصرة الإسلام، ومقاومة دعاة التغريب: مصطفى صادق الرافعي (ت: ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م).

ومنهم الكاتب والباحث الموسوعي، مؤلف «دائرة معارف القرن العشرين» في عشرة مجلدات، وعدد من الكتب في فضل الإسلام وموقفه من المدنيَّة، وفي الردِّ على الماديين، وقد تولَّى تحرير «مجلة الأزهر» نيفًا وعشرين سنة: محمَّد فريد وجدي (ت: ١٩٥٤م).

ومنهم الكاتب العلامة، المؤرخ المحقق، أحد رواد الصحافة الإسلاميَّة، والمحامين عن التاريخ الإسلامي، وأستاذ مدرسة التمحيص والتحقيق فيه، صاحب مجلتي «الفتح» و«الزهراء»، السيِّد: محبُّ الدين الخطيب (ت: ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٩م).

ومنهم الكاتب العملاق، صاحب العبقريَّات الإسلاميَّة، الَّذي سخَّر قلمه في سنواته الأخيرة لبيان حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ومقاومة الدعوات الهدَّامة من الشيوعيَّة وغيرها: عبَّاس محمود العقاد (ت: ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م).

QaradawiBooks.com

ومنهم: داعية النهوض الحضاري، المفكر المسلم، المتميِّز بعقلانيَّته وعمق تحليلـه، صاحب «الظاهرة القرآنيَّة» و«شـروط النهضة» و«صراع الأفـكار» وغيرها: المفكـر الجزائـري مالك بن نبـي (ت: ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م).

ومنهم المفكر المربي الداعية الناقد البصير، مؤلف «نظام الإسلام» وغيره من الكتب المتميزة الأصيلة: الأستاذ محمَّد المبارك (ت: ١٩٨١م).

ومنهم العالم الاجتماعي المرموق، الَّذي كشف عن فلسفة الإسلام الحق للغربيِّين، وصحَّح مفاهيمه لهم، وردَّ على أباطيلهم، وتبنَّى فلسفة «إسـلاميَّة المعرفة» ولا سـيَّما في العلوم الاجتماعيَّة: الأسـتاذ الشهيد إسماعيل الفاروقي (ت: ١٩٨٦م).

ومنهم الخطيـب المُصْقِع، الَّذي هزَّ أعـواد المنابر، وأرعب أرباب الكراسـي، صاحب الطريقـة المتميـزة، والبيان المتدفق، والأسـلوب السـاخر، الَّذي شـدَّت خطبه الجماهير المسـلمة في مصر، وانتشرت أشرطته في المشارق والمغارب: الشيخ عبد الحميد كشك (ت: ١٩٩٦م).

ومنهم العالم الجليـل، والداعية النبيل، والمفسِّـر البـارع للقرآن الكريم، وصاحب النظرات واللفتات الرائعة لكتاب الله، الشاعر المطبوع، والمعلـم الموهوب: الشـيخ محمَّد متولـي الشـعراوي (ت: ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

ومنهم أديـب الفقهاء، وفقيـه الأدباء، الكاتب المبـدع، والمحدث الممتع، والقاضـي الفاضل، والمعلِّم البارع، الَّذي شـدَّ النَّاس بأحاديثه التلفزيونية والإذاعية الرائعة: الشيخ علي الطنطاوي (ت: ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

QaradawiBooks.com

ومنهم: علَّامة الهند، وربَّانـي الأُمَّة، وبقية السـلف، العالم العامل، والحبر الكامل، الزاهد الجاهد المجاهد، صاحب الكتب الفائقة، والرسائل الرائقة، والمحاضرات النافعة، الَّذي أجمع عليه السـلفيُّون والمتصوِّفون، والمذهبيُّون واللامذهبيُّـون، والتقليديُّون والمعاصـرون، الداعية الكبير: الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي (ت: ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

وهناك رجال كبار لهم دورهم وأثرهم الَّذي لا يُنكر، مثل الأسـتاذ الأكبر الشيخ محمَّد مصطفى المراغي شيخ الأزهر، ومثل رجل الإصلاح والدعوة، الفقيه الأصولي السـيد محمَّد الخضر حسـين شيخ الأزهر، والفقيه المفسـر العلَّامة الشيخ محمود شلتوت شـيخ الأزهر، والشيخ العلَّامة الفقيه محمَّد أبو زهرة، والعلَّامة الفقيه والكاتب الشـيخ محمَّد المدني، والشيخ العلَّامة الفيلسوف الأستاذ الدكتور محمَّد عبد الله دراز، والشـيخ الداعية المتصوف الدكتور عبد الحليم محمود شـيخ الأزهر، وأسـتاذ الفلسـفة الدكتور محمَّد البهي، وفقيه العصر الشـيخ مصطفى الزرقا، وعلَّامة تونس الفقيه الأصولي المفسر الشيخ الطاهر بن عاشور، ورجل الفقه والسياسة في المغرب علال الفاسي، ورجل الدعوة والربانيَّة الأستاذ البَهِيُّ الخولي، ورجل الأدب والشـعر والنقد والتحقيق العلَّامة محمود محمَّد شاكر، وأساتذة الاقتصاد الإسلامي الكبار: الدكتور عيسى عبده، والدكتور محمَّد أبو السعود، والدكتور أحمد عبد العزيز النجَّار.

وآخرون لا نسـتطيع حصرهم من رجـال العلم، ورجـال الأدب، ورجال التربية، ورجال الدعوة، ورجـال الصحافة والإعلام، وخصوصًا في المجالات الإسـلاميَّة، في عـدد من بلاد الإسـلام، وبعض خطباء المسـاجد المؤثِّرين، أسـهم كلٌّ منهم ـ بقدرٍ يقلُّ أو يكثر ـ بلسـانه أو بقلمه، بقوله أو بفعله.

QaradawiBooks.com

وقد قصرنا حديثنا هنا ـ عن الدعاة الكبار ـ على الأموات رحمهم الله تعالى، على أنَّ في الأحياء رجالًا كان لهم دور كبير في إحياء الصحوة وفي ترشيدها، بكتبهم وخطبهم وبمحاضراتهم ودروسهم وحلقاتهم، سيذكرها التاريخ في حينها.

جماعات ساهمت في الصحوة:

ولا ننسى جماعات وحركات كان لها أثرها ومساهمتها في مجال الصحوة، على اختلاف اتجاهاتها ومشاربها، بالإضافة إلى أم الجماعات، وكبرى الحركات الإسلاميَّة: حركة الإخوان المسلمين.

جماعة الدعوة والتبليغ:

منها: جماعة الدعوة والتبليغ، الَّتي تاب على أيدي أتباعها كثير من العصاة في بلاد العجم والعرب، وعرفوا الطريق إلى المسجد والصلاة والتوبة، بعد شرور المعصية، وشرود الغفلة. وقد بدأت في الهند وباكستان، ثمَّ انتشرت في العالم، ومن مؤسسيها وروادها: الشيخ محمَّد إلياس، والشيخ محمَّد يوسف، وخلفاؤهما.

الحركة السلفيَّة:

ومنها: الحركة السلفيَّة، الَّتي عُنيت بتصحيح العقيدة، وتصحيح العبادة، وتحريرهما من الشركيَّات والمبتدعات، والدعوة إلى الاعتماد على الكتاب والسُنَّة، لا على تقليد المذاهب أو اتباع الطرق، ومن روادها: الشيخ محمَّد حامد الفقي في مصر، والشيخ عبد العزيز بن باز في المملكة العربيَّة السعوديَّة، والشيخ محمَّد ناصر الدين الألباني في بلاد الشام، والشيخ عبد الرحمٰن عبد الخالق في الكويت.

QaradawiBooks.com

الجمعيَّة الشرعيَّة:

ومنها: الجمعيَّة الشرعيَّة، للعاملين بالكتاب والسُّنَّة، في مصر خاصَّة، الَّتي كان لها دورها في إقامة السُّنَّة، ومحاربة البدعة، وإنشاء المساجد الملتزمة بإقامة الصلاة على الوجه الأكمل، ومؤسسها الشيخ محمود خطاب السبكي، وخلفه ابنه الشيخ الأمين، وبعدهما الشيخ عبد اللطيف مشتهري، والشيخ محمود عبد الوهاب قايد.

جماعة الجهاد:

ومنها: جماعة الجهاد الَّتي ربَّت أتباعها على معاني القوَّة والصَّلابة، والخشونة إلى حدِّ العنف، وحبِّ البذل والتضحية، والاستشهاد في سبيل الله، ومن أشهر رجالها: العالم الأزهري الكفيف الشيخ عمر عبد الرحمٰن، والسيد عبُّود الزمر.

حزب التحرير الإسلامي:

ومنها: حزب التحرير الإسلامي، الَّذي وقف جهده على الدعوة لإقامة الدولة الإسلاميَّة، وإعادة الخلافة الإسلاميَّة، والَّذي أسَّسه الشيخ تقي الدين النبهاني.

وتأثير هذه الجماعات ليس متساويًا. كما أنَّ لكلٍّ منها ما لها وما عليها من ناحية فكرها، وأهدافها، ومناهجها وأساليبها، ولكن ليس هذا مقام النقد أو التقويم لها.

إنَّما نتحدَّث عن كلٍّ من أسهم في ظهور الصحوة بجهد ما. كما لا ننسى دور الجامعات الإسلاميَّة القديمة والحديثة، كالأزهر بمصر، والزيتونة بتونس، والقرويِّين بالمغرب، وديوبند وندوة العلماء بالهند،

QaradawiBooks.com

والجامعة الإسلاميَّة بالمدينة المنورة، وجامعة أمِّ القرى بمكَّة، وجامعة محمَّد بن سعود الإسلاميَّة بالرياض، والجامعة الإسلاميَّة العالميَّة بإسلام آباد، وكوالا لامبور، وغيرها من المؤسسات العلميَّة الإسلاميَّة، الَّتي لا يُجحد أثرها وفضلها مثل «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» في واشنطن وفروعه، والَّذي قام على تأسيسه ورعايته إخوة فضلاء مثل الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، والدكتور طه جابر العلواني، وإخوانهما. وهو يعمل في مجال «أسلمة المعرفة» وخصوصًا العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة. وله منشوراته القيمة بالعربيَّة والإنجليزية[١].

من ثمار الصحوة:

وثمار الصحوة الإسلاميَّة وآثارها دانية القطوف، ظاهرة للعيان، يشاهدها الناس، بل يلمسونها في كلِّ مكان يوجد فيه أهل الإسلام.

التنادي بتحكيم الشريعة:

ومن هذه الثمار والآثار: التنادي بتحكيم الشريعة الإسلاميَّة في سائر أرض الإسلام، بعد أن غلبت العِلمانيَّة في وقت من الأوقات، وأسكتت أصوات دعاة الشريعة، فصمتوا حينًا حتَّى ظنَّ الظانُّون ـ ظنَّ السوء ـ أنَّهم قد اختفوا إلى الأبد.

وقد رأينا هؤلاء في كل مكان، حتَّى في أوَّل بلد طبَّق العِلمانيَّة بالقوَّة والعنف، وهو «تركيا» الحديثة، الَّتي أنشأها أتاتورك على أنقاض «تركيا» دار الخلافة العثمانيَّة. ولولا حماية الجيش التركي ـ الَّذي فُرِّغ من كل

(١) انظر كتابنا: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي صـ ٢٩ ـ ٣٤، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

عنصر إسلامي ـ للعِلمانيَّة المفروضة على الشعب، لرأينا تركيا راجعة إلى الإسلام، وتجلَّى الشعب التركي على حقيقته، الَّتي عرفها النَّاس طوال التاريخ.

دولتان للإسلام:

ومن ثمرات هذه الصحوة ودلائلها الحيَّة: قيام ثورتين إسلاميتين، أقامت كلٌّ منها دولة للإسلام، تتبنَّاه منهجًا ورسالة، في شؤون الحياة كلها: عقائد وعبادات، وأخلاقًا وآدابًا، وتشريعًا ومعاملات، وفكرًا وثقافة، في حياة الفرد، وحياة الأسرة، وحياة المجتمع، وعلاقات الأُمَّة بالأمم.

أمَّا الثورة الأولى، فهي الثورة الإسلاميَّة في إيران، الَّتي قادها الإمام آية الله الخميني سنة (١٩٧٩م)، وأنهت حكم الشاه الَّذي بلغ في الفساد ما بلغ، والَّذي كان يُعتبر شرطي الغرب وحضارته في الشرق الأوسط، والَّذي كانت له علاقة وطيدة بإسرائيل.

وأقام الخميني دولة للإسلام في إيران على المذهب الجعفري، وكان لها إيحاؤها وتأثيرها على الصحوة الإسلاميَّة في العالم، وانبعاث الأمل فيها بالنصر، الَّذي كان الكثيرون يعتبرونه من المستحيلات.

والثورة الثانية: هي ثورة الإنقاذ الإسلاميَّة في السودان سنة (١٩٨٩م)، أي بعد ثورة إيران بعشر سنوات، وقد أنهت حالة الاضطراب والفوضى الَّتي أصابت السودان بعد حكم الأحزاب، والَّتي كان يمكن أن يثب على الحكم فيها بعثيون أو شيوعيون، فانتهزها الإسلاميون فرصة، وقاموا بهذه الثورة البيضاء، الَّتي لم تُرَق فيها قطرة دم واحدة، وقد أخفت الثورة

QaradawiBooks.com

وجهها الإسلامي في أوَّل الأمر، حتَّى لا تقف في طريقها كل القوى المحاربة للإسلام، في الداخل والخارج، واعتقلت الشيخ حسن التُّرابي مع الزعماء الآخرين، وهو الرأس المدبر للثورة، وكان هذا من الحكمة الَّتي يفرضها الواقع، ويجيزها الشرع؛ فالحرب خدعة.

وقد تجلَّت هذه الحِكمة حين بدأ ينكشف القناع عن وجه الثورة الحقيقي، فإذا الَّذين أخذوها بالأحضان تنكروا لها، وإذا المؤامرات تُكاد لها، والحصار يُضرب عليها، من العرب من حولهم، ومن الغرب عامة، والأمريكان خاصَّة، ولكنَّ الله تعالى حفظ هذه الثورة الَّتي دفعت النَّاس إلى العمل والإنتاج، ليأكلوا ممَّا يزرعون، ويلبسوا ممَّا يصنعون، ويعتمدوا بعد الله على أنفسهم.

أقامت ثورة الإنقاذ في السودان دولة للإسلام على المذهب السني، وعلى الفقه المنفتح للاجتهاد والتجديد، والَّذي يراعي ظروف الزمان والمكان والإنسان، وأخذ الدين دوره في توجيه الحياة، وصبغها بصبغته الربانيَّة ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]. وظهر ذلك في التربية والتعليم، وفي الثقافة والإعلام، وفي التشريع والدستور، وفي الدفاع والجهاد، كما في جيش الدفاع الشعبي، وغيره من مؤسَّسات الدولة.

إحياء الجهاد في سبيل الله:

ومن هذه الثمار: الاستجابة لدعوات الجهاد في سبيل الله والمقاومة للغزاة الطغاة لأرض الإسلام، كما رأينا ذلك في «الجهاد الأفغاني» المجيد، الَّذي وقف يقاتل أعتى قوَّة إلحادية في الأرض ـ قوَّة الاتِّحاد السوفيتي الشيوعي ـ بل في التاريخ، بإمكاناته المحدودة، وأسلحته

QaradawiBooks.com

الضئيلة، قبل أنْ تفكر الولايات المتحدة في نصرة هذا الجهاد، ومحاولة استغلاله لصالحها. ولكن المؤكد أنَّ الأفغانيين كانوا يقاتلون من أجل أفغانستان، وإسلام أفغانستان، وكرامة أفغانستان، لا من أجل الأمريكان، وأطماع الأمريكان. والمسلمون الَّذين انضموا إليهم من أنحاء العالم وجدوها فرصة ليحصلوا إحدى الحُسْنَيَيْن: إمَّا النصر على الملاحدة الكفَّار الغزاة، وإمَّا الشهادة والجنَّة.

وقد حقَّق الإخوة المجاهدون الأفغان النصر المبين على أعدائهم الروس، وكانوا من أبرز الأسباب في إضعاف الاتِّحاد السوفييتي، ثمَّ انهياره من قريب.

ومثل ذلك: قيام «الانتفاضة الفلسطينيَّة» وثورة «أطفال الحجارة» الَّتي سمِّيت في أوَّل أمرها «ثورة المساجد»، الَّتي انطلقت أوَّل ما انطلقت من مساجد غزَّة، وجعلت راياتها المصاحف، وشعارها: «الله أكبر» ونشيدها: خيبر خيبر، يا يهود، جيش محمَّد سوف يعود!

ثم قيام حركة المقاومة الإسلاميَّة «حماس» وحركة «الجهاد الإسلامي» في فلسطين، وقيام كلٍّ منهما بالأعمال البطولية والاستشهاديَّة، في القدس وفي تل أبيب، وفي غيرهما، تلك الَّتي أرعبت أعداء الله المُغْتَصِبين، وأقضت مضاجعهم في إسرائيل، فسعوا هنا وهناك لعقد المؤتمرات لمحاربة ما سَمَّوه «الإرهاب» وإسرائيل هي «الإرهابي الأكبر» الَّذي أقام دولته على سفك الدم، والمجازر البشريَّة الَّتي روَّعت الآمنين، وأجبرت السُّكَّان المدنيِّين على الخروج من ديارهم بغير حقٍّ إلَّا أن يقولوا: ربُّنا الله.

ومثل ذلك: ما يقوم به جنود «حزب الله» البواسل في جنوب لبنان من عمليات فدائية، زلزلت قلوب الإسرائيليين، وحيرتهم ماذا يفعلون،

QaradawiBooks.com

فلم يجدوا إلَّا ضرب المدنيين العُزَّل في «قانا» وفي غيرها. كما ضربوا محطات الكهرباء والبنية التحتية أخيرًا في بيروت[١].

وكلُّ ذلك يدلُّنا على أنَّ الإيمان هو مصدر قوتنا، وأنَّ الاعتصام بالإسلام هو الملاذ الأمين، والحصن الحصين، الَّذي لا يخشى على أمتنا أبدًا إذا لاذت به وأَوَتْ إليه ﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [آل عمران: ١٠١].

وآخر أنباء الجهاد، ومعاركه، الَّتي فجَّرتها الصحوة الإسلاميَّة في هذا القرن: معركة الجهاد في «جمهوريَّة الشيشان» إحدى جمهوريات روسيا، الَّتي أرادت الاستقلال عن الروس، فهي تراهم غرباء عنها، كما هي غريبة عنهم؛ فهي ليست من الوطن الروسي، وشعبها ليس من الجنس السلافي، ولغتها الأصلية ليست هي الروسية، ودينها ليس هو المسيحيَّة الأرثوذكسية. وقد قاتلت من أجل هذا الاستقلال منذ نحو أربع سنوات، ودخلت مع روسيا في حرب شرسة ضروس، وأصاب الشيشان فيها ما أصابهم من قَرح في رجالهم، ومن دمار لبلادهم، ولكنَّهم في النهاية قهروا الروس، وردوهم عن دارهم مدحورين، لم ينالوا خيرًا، ولم يُحقِّقوا هدفًا.

ثمَّ ها هم اليوم يعيدون الكرة من جديد، يردُّون الحرب جذعة مرَّة أخرى، ويجندون نحو مائة ألف جندي روسي، مجهزين بأحدث الآلات الجهنميَّة وأقواها، وأقدرها على التدمير والإبادة، ولكن الشيشانيين الأشاوس لم يستسلموا، وثبتوا ثبات الجبال، وقاموا مقاومة الأبطال،

(١) وقد أثمرت هذه المقاومة أخيرًا: انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان، وهو درس ثمين لليائسين والمثبطين في فلسطين.

QaradawiBooks.com

وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعُفوا وما استكانوا، وقد كبَّدوا القوات الروسيَّة المسلَّحة الغازية، خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، ولا تزال المعركة مستمرة، على أشُدِّها، وأنا أكتب هذه السطور في الرابع والعشرين من شهر يناير (٢٠٠٠م).

رجعة الشباب إلى الدين:

ومن أحلى ثمرات الصحوة وأجلَّاها: رجعة الشباب إلى الدين، بعد أن كاد يذوب ويضيع في بعض مراحل هذا القرن، حين بهرته الحضارة الوافدة، وغرَّه السراب الَّذي ظنَّه ماءً، فطفق يقلِّد أبناء هذه الحضارة تقليد القردة، ويأخذ عنهم أخذًا أعمى، بلا تمييز ولا انتقاء. حتَّى وجدنا من الشباب من يلبس لبسة النساء، ومن يتشبَّه في حركاته ومِشيته بالنساء، متجاهلاً أنَّ رسول الله ﷺ لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، كما لعن المتشبهات من النساء بالرجال[1]. وكتب الشاعر المعروف محمود غنيم قصيدته الَّتي يرثي فيها حال الشباب الجديد، وقال فيها:

شَبَابَ الْعُرْبِ يَا زَيْنَ الشَّبَابِ ... وَيَا أَشْبَالَ آسَادٍ غِضَابِ
أَرَى مِنْكُمْ فَرِيقًا حِينَ يَمْشِي ... يَحُكُّ بِأَنْفِهِ مَتْنَ السَّحَابِ
كَلَيْثِ الْغَابِ فِي صَلَفٍ وَكِبْرٍ ... وَلَيْسَ لَدَى الْكَرِيهَةِ لَيْثَ غَابِ
تَفَنَّنَ فِي مُحَاكَاةِ الْعَذَارَى ... وَخَالَفَهُنَّ فِي لُبْسِ النِّقَابِ
وَلَا يُخْشَى عَلَى شَيْءٍ، وَيَخْشَى ... إِذَا ثَارَ الْغُبَارُ عَلَى الثِّيَابِ[2]

(١) إشارة إلى حديث ابن عباس، رواه البخاري في اللباس (٥٨٨٥)، وأحمد (٣١٥١)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩٧)، والترمذي في الأدب (٢٧٨٤)، وابن ماجه في النكاح (١٩٠٤).

(٢) من ديوان صرخة في واد لمحمود غنيم. انظر: الأعمال الكاملة لمحمود غنيم (٩٠/١)، نشر دار الغد العربي.

QaradawiBooks.com

وسخر الرافعي الأديب من هذا الشباب فقال عنه: إنَّه إذا سخر من العدو بنكتة فكأنَّه هزمه في معركة!

هذه هي صورة شباب الأُمَّة في تلك المرحلة، مرحلة الانبهار بالحضارة الغازية: بأفكارها وتقاليدها وسلوكياتها.

وليته أخذ من الحضارة خير ما فيها: العلم والتكنولوجيا، وحسن الإدارة والتنظيم، والعمل الدؤوب لكسب العيش، وخدمة المجتمع. بل أخذ منها شرَّ ما فيها: التحلُّل الأخلاقي، والانحراف السلوكي، والإباحيَّة الجنسيَّة.

هجر هؤلاء الشباب المساجد، وعمَّروا الملاهي والسينمات، وتخلوا عن أفضل أخلاقياتنا الموروثة، الَّتي أمر بها الدين، والتزم بها المجتمع: بر الوالدين، وصلة الأرحام، وإكرام الجيران، وتوقير الكبار، ورحمة الصغار، ومساعدة الضعفاء، ومعاونة الفقراء، وإغاثة الملهوفين، وتفريج كربة المكروبين...، تركوا هذه الفضائل وعاشوا لأنفسهم، أعني للذاتهم، لا لربِّهم، ولا لوطنهم، ولا لأُمَّتهم، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.

لقد رأيت في صباي الَّذين يعمرون المساجد، ويحافظون على الصلوات، فكان أكثرهم من الكهول والشيوخ، وأقل القليل من الشباب.

واليوم ـ في عصر الصحوة الإسلاميَّة ـ أرى الأمر بالعكس تمامًا، فالشباب هم العمود الفِقري للصحوة، هم الَّذين يعمرون المساجد، ويملؤون مواسم الحج والعمرة، وهم الَّذين يقرؤون الكتاب الإسلامي، والمجلَّات الإسلاميَّة، وهم الَّذين يتجاوبون مع صيحات الجهاد الإسلامي، في كلِّ أرض إسلاميَّة، فينطلق كلٌّ منهم كالشهاب الثاقب،

QaradawiBooks.com

واضعًا رأسه على كفِّه، في سبيل الله، لا يبالي أَوَقع على الموت أم وقع الموتُ عليه.

ولا سيَّما الشباب المتعلِّم، شباب الثانويَّات والمعاهد والجامعات، فهم الَّذين يكتسحون في الانتخابات الجامعيَّة، ويحصلون بسهولة على الأغلبيَّة، ويكوِّنون اتحـادات الطلاب، رغم ما كان يوضع في سـبيلهم من عقبات، وما يحاك لهم من مكايدات، ما دامت الانتخابات تجري بحُرِّيَّة ونزاهة.

وهم الَّذين يكتسحون أندية هيئات التدريس في الجامعات.

وهم الَّذيـن ينالون الأغلبيَّة السـاحقة، وأحيانًـا كل الأصوات، أي يحصلون على الإجماع من جماهير النقابـات المهنية، كنقابات الأطباء والمهندسين والصيادلة والمحامين وغيرهم.

ولا غرْو، فالشـباب دائمًا هم عصب الدعوات، وحملة الرسالات، وكما قال الإمام حسن البنَّا: إنَّما تنجح الفكرة إذا قوي الإيمان بها، وتوفر الإخلاص في سـبيلها، وازدادت الحماسـة لها، ووُجِد الاستعداد الَّذي يحمـل على التضحيـة والعمل لتحقيقهـا. وتكاد تكون هـذه الأركان الأربعـة: الإيمان، والإخـلاص، والحماسـة، والعمل، مـن خصائص الشباب؛ لأنَّ أسـاس الإيمان القلب الذكي، وأسـاس الإخلاص الفؤاد النقي، وأساس الحماسـة الشعور القوي، وأسـاس العمل العزم الفتي، وهذه كلها لا تكون إلَّا للشباب. ومن هنا كان الشباب قديمًا وحديثًا، في كلِّ أُمَّة عماد نهضتها، وفي كل نهضة سـرَّ قوتها، وفي كل فكرة حامل رايتها: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]»[١].

(١) انظر رسالة إلى الشـباب صـ ٢٧٩ ضمن مجموعة رسائل الإمام الشـهيد، نشر دار التوزيع والنشر، ط ١، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

QaradawiBooks.com

عودة المرأة المسلمة إلى الحجاب:

ومن المكاسب الَّتي تحقَّقت خلال الربع الأخير من هذا القرن، وتعتبر من ثمار الصحوة الإسلاميَّة: عودة المرأة المسلمة في أكثر البلاد الإسلاميَّة إلى «الحجاب» طواعيةً واختيارًا، دون أن يُفرض ذلك عليها من أب أو زوج أو سلطان.

بل كثيرًا ما كان الأب يمانع، والزوج يعارض، والسلطان يُنكر، ولكن أبت الفتاة المسلمة إلَّا أنْ تطيع ربَّها، وتعمل بواجب دينها، غير مبالية برفض الرافضين، وإنكار المنكرين، فهذه حركة إسلاميَّة نسائيَّة طوعية بلا نزاع.

ولا زلت أذكر أنِّي كنت فترة من الزمن أمرُّ في بعض العواصم العربيَّة، فلا أكاد أجد امرأة تلبس الحجاب، وإن كانت عجوزًا شمطاء، فقد هُزِم المسلمون أمام الحضارة الغربيَّة في عدة ميادين، منها ميدان الإعلام، وميدان الاقتصاد، وميدان المرأة.

والحمد لله رأينا الإسلام يستعيد رايته الَّتي سقطت في الميدانين الأخيرين: المرأة والاقتصاد إلى حدٍّ بعيد، ولكنَّه لم يستعد موقعه بالنسبة إلى ميدان الإعلام إلى اليوم، وإن كسب شيئًا قليلًا، لا يكون توجُّهًا أساسيًّا، ولا ثقلًا ثقافيًّا إلى اليوم.

منذ عهد قاسم أمين وهدى شعراوي في مصر، والمرأة تبتعد عن الإسلام فكرًا وسلوكًا، وتقترب من الحضارة الغربيَّة نظريًّا وعمليًّا، حتَّى ارتمت في أحضانها نهائيًّا، وسارت وراء أفكارها وتقاليدها، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، وفي وقت من الأوقات اندفعت نساء بعض الأقطار الإسلاميَّة وراء الغرب أكثر من النساء الغربيات أنفسهن،

QaradawiBooks.com

وانسلخن من جلدتهن، وخلعن جلباب الحياء الموروث، والمستقى من الدِّين والأعراف.

وقد ساعد على هذا الغلُوِّ في التحلُّل من قِيَم الدين والتقاليد: غلُوُّ بعض من يمثِّلون الدين في التضييق على المرأة، واعتبارها حبيسة البيت، ومنعها من التعليم ومن العمل، ومن الخروج من البيت لحاجاتها، وإجبارها على الزواج بمن يريد الأب وإن لم تُرِده. فكان رد الفعل هو التحرُّر من هذا كُلِّه، والسير وراء دعاة التفرنج والتحرُّر، بلا ضابط ولا رابط.

ولمَّا برز تيار الصحوة الإسلاميَّة المعاصرة، وقد كان تيار الوسطية الإسلاميَّة هو الأعلى صوتًا في الصحوة، والأقوى نفوذًا، والأرسخ قدمًا، والأوسع قاعدة، تجاوب معه شباب الإسلام من الجنسين، فكرًا وحماسًا والتزامًا وتطبيقًا لأحكام الإسلام. فكان الالتزام بالحجاب هو التعبير العملي عن هذا الالتزام، الَّذي تتميَّز به المسلمة الملتزمة عن غير الملتزمة.

وانتشر هذا الحجاب انتشارًا هائلًا في وسط المدارس والمعاهد والجامعات، وأصبح بعضهن يقلِّد بعضًا، ويتنافسن في الخيرات، حتَّى غدا هو الزيُّ الغالب في بعض البلاد، بعد أن كان نادرًا، أو شاذًّا أو معدومًا.

بروز الاقتصاد الإسلامي فكرًا وتطبيقًا:

ومن ثمار الصحوة الإسلاميَّة، الَّتي لا يخطئها الدارس لمسيرة الأمة في هذا القرن: بروز ظاهرة «الاقتصاد الإسلامي» نظريًّا وتطبيقيًّا.

QaradawiBooks.com

لقد كان هذا الاقتصاد غائبًا مــن الناحية النظرية عــن الكاتبين في الفكر الاقتصادي، وفي التاريخ الاقتصادي. وقد لمســت هذا بنفســي عندما كنت أبحث في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات حول الزكاة، وكنت أقرأ في كتب الاقتصاد السياسي، وقد كانوا يتحدثون عن الاقتصاد عند الرومــان قديمًا، وعند اليونــان، وعند الفرس والهنــود، وغيرهم، ولكنَّهــم لا يذكرون مــا كان عند العرب والمسلمين، الَّذين ســادت حضارتهم نحو عشــرة قرون، وكان لهم نظرياتهم وأحكامهم الَّتي تنظم شؤون المال والاقتصاد، وكان لهم مراجعهم ومؤسساتهم.

ثم لم تمضِ مدَّة طويلة، حتَّى بدأت دورة جديدة ظهر فيها الاقتصاد الإسلامي بقوة، على المستوى النظري وعلى المستوى العملي.

فــي منتصف الســبعينيَّات (١٩٧٦م) عقــد المؤتمــر العالمي الأوَّل للاقتصاد الإسلامي في مكة المكرمة، وشارك فيه نحو ثلاثمائة من رجال الاقتصاد ورجال المحاســبة والإدارة من جانب، ورجال الشريعة والفقه الإسلامي من جانب آخر.

وقد شــاركت في هذا المؤتمر، وكان ممَّا شهدته ولمسته: أنَّ كثيرًا من رجال الاقتصاد كانوا أشدَّ حماسًــا للأفكار الإسلاميَّة من كثير من رجال الشريعة.

وقد أســرَّ إليَّ الكاتب الإسلامي المعروف الأســتاذ فهمي هويدي بملاحظة مهمة، وهو أنَّه شــهد منذ نحو عدة سنوات مؤتمرًا في ماليزيا انقسم فيه المشاركون إلى فريقين، فريق يحرِّم الفائدة تحريمًا باتًّا، وآخر يحاول تبريرها بوجه وآخر، وأما هذا المؤتمر فقد كان كله فريقًا واحدًا، مجمعًا على تحريم الفوائد، واعتبارها هي الربا المحظور شرعًا.

QaradawiBooks.com

وكان ممَّا قُدِّم في هــذا المؤتمر: قائمة ببليوغرافية أعدَّها الأســتاذ الدكتور محمَّد نجاة الله الصِّدِّيقي أستاذ الاقتصاد في كلية التجارة بجامعة الملك عبد العزيز، تتضمَّن قائمة الكتــب والبحوث الَّتي كتبت بالعربيَّة والأُرديَّة والإنجليزيَّة، فكانت عدَّة مئات.

وهذه القائمة قد تضاعفت بعد ذلك ولا شكَّ، وقد أضيف إليها كتب وبحوث جمة، ليس من السهل حصرها، منها رسائل وأطروحات علميَّة «أكاديمية» للماجستير والدكتوراه في كليات الشريعة والاقتصاد والتجارة والحقوق وغيرها، في عدد من البلاد العربيَّة والإسلاميَّة.

كما أُنشئت أقسام علميَّة للاقتصاد الإسلامي في عدد من الجامعات.

وأُسِّســت كذلك مراكز لأبحاث الاقتصاد الإسلامي، أشهرها «مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي» بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، وفيه عدد من الباحثين الأكفاء، مثل الأســاتذة: محمَّد عمر زبيــر، وأنس الزرقا، ورفيق المصري وإخوانهم.

وكذلك «معهد البحــوث والتدريب» في البنك الإســلامي للتنمية، وهو بنك الأُمَّة الإســلاميَّة الَّذي يقوم بدور مهم في تمويل مشروعات ضروريَّة ونافعة في كثير من البلدان والأقليات الإسلاميَّة.

وصدرت أكثر من مجلة تتحدث عن الاقتصاد الإسلامي، منها مجلة «الاقتصاد الإسلامي» الَّتي تصدر عن بنك دبي الإسلامي، ومجلة «النور» الَّتي يصدرها بيت التمويل الكويتي.

وعلى المســتوى العلمي والتطبيقي، ظهر أوَّل بنك إسلامي تجاري في دبي من دولة الإمارات العربيَّة المتحدة أوائل السبعينيات من القرن

QaradawiBooks.com

العشرين، ثمَّ قامت بنوك إسلاميَّة أخرى، مثل بنك فيصل الإسلامي المصري، وبنك فيصل الإسلامي السوداني، وبيت التمويل الكويتي، والبنك الإسلامي الأردني، ثمَّ مصرف قطر الإسلامي، وبنك البحرين الإسلامي، وبنوك البركة الإسلاميَّة، ومصرف فيصل الإسلامي بالبحرين، ثمَّ توالى إنشاء البنوك الإسلاميَّة في بلاد شتَّى عربيَّة وإسلاميَّة. مثل البنك الإسلامي في ماليزيا، وشركة الراجحي للاستثمار في المملكة السعوديَّة، ومصرف أبو ظبي الإسلامي، وقد تزايد عدد البنوك الإسلاميَّة حتَّى وصل إلى أكثر من مائة مصرف.

وقد قامت مؤسسة مهمة للإشراف على البنوك الإسلاميَّة، هي الهيئة العامَّة للمحاسبة الماليَّة للمصارف والمؤسسات الماليَّة الإسلاميَّة، وكان اسمها قبل ذلك «مجلس المعايير»، وهي هيئة تعمل على إصدار معايير تحتكم إليها المصارف الإسلاميَّة، وقد صدرت منها عدة معايير ذات أهمية بالغة، مثل معيار الإفصاح، ومعيار المرابحة.

وقد أنشأت هيئة المحاسبة مجلسًا شرعيًا، يعتبر بمثابة هيئة عليا للفتوى والرقابة الشرعيَّة للمصارف الإسلاميَّة.

وأنا أذكر هنا كيف مرَّ الفكر الإسلامي في قضيَّة «الربا» باعتبارها حجر الزاوية في المجال الاقتصادي، ففي وقت من الأوقات كان هناك من يريد أن نقبل الربا، كما نقبل الخمر والمسكرات، بل الزنى نفسه، وأنَّ المدنيَّة الحديثة تفرض علينا أنْ نأخذها بخيرها وشرها، وما يُحمد منها وما يُعاب، وحتَّى قال بعضهم: لماذا نغلق أبواب البغاء؟ ولماذا لا نفتحه لمن يريده تحت إشراف الدولة؟ يريد أنْ تعمل الدولة قوَّادة للزناة والفاجرين!

QaradawiBooks.com

ثم ارتقى الفكر إلى مرحلة أفضل من هــذه، ولم تكن هي المرحلة المقبولة، وهو أنَّه أراد أنْ يفرق بين أنواع الربا بعضه وبعض، وأنَّ الربا المحرم إنَّما هو ربا الاستهلاك لا ربا الإنتاج والتجارة، وأنَّ الربا الحالي ليس هو ربا الجاهليَّة الَّذي جاء القرآن بتحريمه.

ومنهم من قــال: الربا المحرم هو مــا كان أضعافًا مضاعفة. وليس ١٠٪ نحوها.

ومنهم من زعم أنَّ الربا حرام، ولكنَّنا في حالة ضرورة، وهي ضرورة عامَّة للمسلمين جميعًا، والضرورات تبيح المحظورات.

وكلُّها محاولات «تبريريَّة» لتحليل الحــرام، وإباحة المحظور الَّذي آذن القرآن مرتكبيه بحرب من الله ورســوله، والَّذي لعن رسولُ الله ﷺ آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه[1].

ثم جاءت مرحلة أقوى من هــذه المرحلة، وهي الــردُّ القويُّ على المدرسة التبريريَّة، وتفنيد شــبهاتها، وإعلان حرمة الربا بصراحة، وبيان أنَّ على المســلمين أنْ يتحرَّروا من رجس الربا، ومن لعنة الله لمقترفيه، وذلك بأن يقيموا «بنوكًا بلا فائدة» وأنَّ هذا ممكن إذا تعاون المخلصون من علماء الاقتصاد وعلماء الشرع وأصحاب رؤوس الأموال.

ثم كانت المرحلة الأهم، وهي مرحلة إيجاد «البديل الشرعي» فنشأ أوَّل بنك إســلامي في دبي، تبعته بنوك وبنوك في آسيا، وأفريقيا، وفي أمريكا وأوربا.

(١) رواه مسلم في المساقاة (١٥٩٨)، وأحمد (١٤٢٦٣)، عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

ونحن الآن في مرحلة «تحسين البدائل» وتطويرها إلى ما هو أفضل، ومن سار على الدرب وصل، ولكلٍّ مجتهد نصيب.

بل أقول: إنَّ هناك في داخل حركة «المصارف الإسلاميَّة» اتجاهات ودراسات ناقدة تحاول أنْ ترتقي بهذه المصارف نوعًا وكيفًا، بعد أنْ قويت وتكاثرت عددًا وكمًّا. وذلك بالخروج من دائرة النظام الرأسمالي القائم، والَّذي يتحكم في اقتصاد العالم، والَّذي لا تزال البنوك الإسلاميَّة تعمل في إطاره، بمعنى أنَّها تحاول أنْ توجد لكل عمليَّة تجري في البنوك الربوية، بديلًا شرعيًّا لها، عن طريق مخارج فقهية، بتغيير بعض الصور أو وضع بعض الشروط أو القيود، أو نحو ذلك ممَّا قد يغيِّر الشكل نوعًا ما، وإنْ بقي الجوهر كما هو.

وأبرز مثل لذلك هو «بيع المرابحة للآمر بالشراء» الَّذي تجريه المصارف الإسلاميَّة، وهو بديل شرعي للتمويل الربوي الصريح، وهو لا شكَّ مباح. وقد ألَّفت كتابًا في الدفاع عن شرعيته، ولكنِّي مع هذا حذَّرت البنوك الإسلاميَّة أنْ تظل «سجينة المرابحة»؛ فإنَّها في هذه الحالة تعيش في كنف الاقتصاد الرأسمالي، ولا تُقدِّم نموذجًا آخر متميزًا في جوهره ومضمونه.

وأذكر هنا ما قاله صديقنا العالم الجليل الشيخ صالح الحصين نائب رئيس الهيئة الشرعيَّة لشركة الراجحي للصرافة والاستثمار، حين علَّق على استغراق بعض البنوك الإسلاميَّة في عمليَّة المرابحة، حتَّى إن بعضها لتبلغ فيه (٩٠٪) أو أكثر من معاملات البنك. قال: إن كان هذا هو أكبر هَمِّ البنوك الإسلاميَّة ومحور عملها، وغاية سعيها، فما أجدرنا أنْ نتمثل بقول الشاعر:

QaradawiBooks.com

إِنْ كَانَ مَنْزِلَتِي فِي الْحُبِّ عِنْدَكُمو مَا قَدْ لَقِيتُ فَقَدْ ضَيَّعتُ أَيَّامي[١]!

وأذكر هنا أنَّ أحد البنوك الإسلاميَّة، وهو «بنك التقوى» لم يدخل في بيع المرابحة قط، كما لم يدخل سوق السلع والمعادن الدوليَّة؛ لما يحيط بها من شبهات الشكليَّة والصوريَّة.

فإذا أضيف إلى ما تقدَّم أنَّ كثيرًا من المصارف الإسلاميَّة لا يطبق كل الشروط الَّتي تفرضها وتلزم بها هيئات الرقابة الشرعيَّة في بيع المرابحة ازداد الطِّين بِلَّة.

وآفة المصارف الإسلاميَّة أنَّها ابتُليت منذ إنشائها وإلى اليوم بقيادات جاءتها من البنوك الربوية، ولا تملك خلفية ثقافيَّة إسلاميَّة، ولا حتَّى إيمانًا برسالة الإسلام الاقتصاديَّة، وملؤوا المصارف بأتباع لهم على شاكلتهم، فهم يُخْرِّبُون المصارف الإسلاميَّة من داخلها للأسف، بسوء فهمهم، وسوء تطبيقهم، وربَّما بسوء نيَّتهم.

والواجب على المصاريف الإسلاميَّة أن تعمل بالتضامن فيما بينها على تطوير نفسها، والدخول في مجال التنمية والاستثمار والتجارة المباشرة، والتعامل مع الأسواق، لا مع الأوراق. وأن يقوم ذلك كله على دراسات علميَّة موضوعية، وعلى تخطيطٍ واعٍ سليم، ثمَّ يكون العزم والتوكُّل على الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وعلى المصارف الإسلاميَّة واجب آخر، وهو العناية بالعنصر البشري فيها، ابتداءً من حسن الاختيار وَفْق معايير إسلاميَّة وعلميَّة، وهو اختيار

(١) هو ابن الفارض، كما في تاريخ الإسلام للذهبي (٧٦/١٤)، تحقيق د. بشار عوَّاد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م، والأعلام للزركلي (٢٧٠/٤، ٢٧١)، نشر دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م.

QaradawiBooks.com

«القوي الأمين» أو «الحفيظ العليـم»، الَّذي يجمع بين الجانب المتعلق بالكفاية والخبرة، والجانب المتعلق بالدين والأخلاق وخشية الله تعالى.

ثم علـى المصارف الإسـلاميَّة أنْ توالي هؤلاء الموظفين بحسـن الرعاية والتدريب والتذكير، حتَّى يظلوا شاعرين بأنَّهم يقومون على ثغرة من ثغرات الإسـلام، وأنَّهم يتعبَّدون لله تعالى بعملهم، ويجاهدون في ميدان خطير هو ميدان الاقتصاد.

ولا صلاح للمصارف الإسلاميَّة ما لم تصلح قيادتها وموظَّفوها.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوسُوعَةُ الأَعمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرضَاوِي

إخفاقات الأُمَّة خلال القرن العشرين

- ضياع الخلافة.
- الهزيمة أمام المشروع الصهيوني.
- الإخفاق في مسيرة التقدُّم والتنمية.
- الإخفاق في التحرُّر من التبعيَّة للغرب.
- الإخفاق في مجال الشورى والحرِّيَّات العامة وحقوق الإنسان.
- الإخفاق في توحيد الأمة.
- الإخفاق في تحقيق العدالة الاجتماعيَّة.
- الإخفاق في مجال قضايا المرأة.
- الإخفاق في التربية الأخلاقيَّة للأُمَّة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

إخفاقات الأُمَّة خلال القرن العشرين

الناظر في إنجازات أمتنا الكبرى خلال القرن العشرين، يجدها محدودة نسبيًّا، على خلاف ما يتوقع من أُمَّة في حجمها ووزنها وتاريخها وإمكاناتها المادِّيَّة والروحيَّة والحضاريَّة.

أمَّا إخفاقات الأُمَّة، فهي كثيرة جدًّا من ناحية الكم، وقوية من ناحية الكيف أيضًا، بحيث لو قورنت بالإنجازات لتجلَّى ذلك واضحًا للعيان.

ولا ريب أنَّ لذلك أسبابًا داخليَّة وخارجيَّة، وإنْ كان أنصار «التفسير التآمري» للتاريخ وللأحداث يُركِّزون دائمًا على الأسباب الخارجيَّة. وأنا لا أنكرها تمامًا، فنحن نراها أحيانًا رأي العين، ولكنِّي أركِّز على الأسباب الداخليَّة، فهي الأساس، وهي الَّتي مهَّدت السبيل للأسباب الخارجيَّة، فلو كان لدى الأُمَّة مناعة آتية من إيمانها ووعيها وضميرها، ما استطاع العدو الخارجي أنْ يخترق أسوارها، وأنْ يتسلَّل إلى قلبها، وأنْ يحرف مسيرتها.

والقرآن الكريم يدعونا ـ عند وقوع الهزائم والمآسي ـ إلى النظر في داخلنا أولًا، كما قال تعالى بعد «غزوة أحد»، وما وقع فيها من انكسار للمسلمين، فقدوا فيه سبعين من خيرة رجالهم، بعد انتصارهم في «غزوة بدر» وقتلهم لسبعين من أئمَّة الكفر، ورؤوس الضلال، وأسرهم لسبعين

QaradawiBooks.com

آخرين فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وعلى أيَّة حال ـ أيًّا كانت الأسباب، داخليَّة أم خارجيَّة ـ يجب أنْ نعترف بإخفاقاتنا، وهي بلا شك أكثر من نجاحاتنا، فلنذكرها هنا أو على الأقلِّ أبرزها والمتَّفق عليه منها.

* * *

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

ضياع الخلافة

١ ـ أوَّل هذه الإخفاقات الكبرى، هو «ضياع الخلافة»، تلك القلعة التاريخيَّة الَّتي استظل بها المسلمون أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، ثمَّ فرَّطوا فيها، واستسلموا لمن خطَّطوا لهدمها حتَّى هُدمت بالفعل.

والغريب أنْ يتم هدمها على يد رجل كان المسلمون يتخيَّلون أنَّه يعمل لنصرة الإسلام، وهو أتاتورك، الَّذي كان المسلمون يسمُّونه «الغازي مصطفى كمال»، وكانوا يتابعون معاركه بنبضات قلوبهم، ودفقات مشاعرهم، ويُهلِّلون ويُكبِّرون كلَّما انتصر في موقعة، حتَّى أنشأ شوقي رَحِمَهُ اللَّهُ قصيدةً خاطبه فيها بقوله:

اللهُ أكبرُ، كم في الفَتْحِ مِنْ عَجَبِ ... يَا خَالِدَ التُّرْكِ جَدِّدْ خَالِدَ الْعَرَبِ[1]!

ثمَّ ما لبثوا أنْ فُوجئوا بما لم يكن في حسبانهم، وإذا بالرجل الَّذي أكَنُّوا له الحُب، وأخلصوا في الدعاء له أنْ ينصره الله، وينصر به الإسلام، يتنكَّر للإسلام في صراحة، ويعلن العداوة له جهرة، ويلغي الخلافة علانية، إلغاءً صدم الأُمَّة كلها في مشاعرها وعقائدها، وصميم دينها، في الوقت الَّذي كانوا يتوقَّعون منه أنْ يُوطِّد أركان الخلافة، ويثبِّت دعائمها

(١) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (٥٩/١).

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الماديَّة والأدبيَّة، فإذا هو يأتي عليها من القواعد. وقد عبَّر شوقي عن هذه الصدمة أو الكارثة بحائيَّته الرائعة فقال:

عَادَتْ أَغَانِي الْعُرْسِ رَجْعَ نُوَاحِ وَنُعِيتِ بَيْنَ مَعَالِمِ الْأَفْرَاحِ
كفِّنْتِ في يَوْمِ الزِّفَافِ بثَوْبِه وَدُفِنْتِ عِنْدَ تَبَلُّجِ الْإِصْبَاحِ[١]

وقد كانت لهذه الكارثة آثار غائرة في نفوس المسلمين في المشارق والمغارب، وارتفعت صيحات وعقدت مؤتمرات، لنقل الخلافة إلى بلد آخر، حتَّى لا يبقى المسلمون بلا خليفة ولا إمام، يبايعونه، يقود أمتهم، ويُجسِّد وحدتهم، فيموتوا ميتة الجاهليَّة، كما جاء في الحديث الصحيح[٢]. ولكنَّ المؤامرة كانت أكبر منهم، والجرح كان من العمق والغور بحيث لا تداويه صيحات ولا مؤتمرات.

لقد كان المصلحون والمُجدِّدون الإسلاميُّون المعنيُّون بأمر الأُمَّة، ونهضتها، وعلاج الخلل فيها، يعملون على إصلاح الخلافة من داخلها، والإبقاء عليها ممثلةً لوحدة أُمَّة الإسلام.

وكان من هؤلاء العلَّامة محمَّد رشيد رضا وعدد من كبار الدعاة.

ولكن جماعة «الاتِّحاد والترقي» في تركيا وهم قوميُّون طورانيُّون عِلمانيُّون تغريبيُّون متعصبون، كانوا قد عقدوا العزم على أن يسيروا في طريقهم إلى النهاية، وكانوا قد أساؤوا العلاقة مع العرب، وأوقعوا عليهم ظلمًا مبينًا، كما فعل جمال باشا في الشام.

(١) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١/١٠٥ ـ ١٠٦).

(٢) إشارة إلى حديث: «من لقي الله وليس في عنقه بيعة، مات مِيتة جاهلية». رواه مسلم في الإمارة (١٨٥١)، عن عبد الله بن عمر.

QaradawiBooks.com

وكان يهــود «الدونما» قــد تغلغلوا فيهــم، وأثَّروا تأثيــرًا بليغًا في مسيرتهم، وكادوا لقلب الخلافة كيدًا عظيمًا.

وممَّا زاد النار اشــتعالًا: انضمام العرب إلــى الإنجليز في الحرب العالميَّة الأولى ليحاربوا معهم الأتراك، في مقابل وعود لم يوفوا بها.

وليس صحيحًا ما يقوله كثير مــن القوميين العرب: إنَّ الأتراك كانوا محتلِّين مُسْــتَعْمِرين. ويُعَبِّر بعضهم عن فترة الخلافة بفترة «الاســتعمار التركي»، فهذا في الواقع تزييف للتاريــخ، وافتئات على أُمَّتهم الَّتي لم تكن تنظر إلى الأمر يومًا هذه النظرة، ولم تر نفسها إلَّا أنَّها جزء من «دار الإسلام»، وقد وصل بعض العرب يومًا إلى منصب الصدر الأعظم.

فقد كان الأتراك حكامًا مســلمين، حموا بيضة الإسلام لعدَّة قرون، ونشــروه في عدد من الأقطار وطرقوا أبواب ڤيينَّا أكثر من مرَّة. كان هذا بعد سقوط دولة الإسلام والعرب في الأندلس. فكان ظهور الأتراك «قوَّة غالبة» في ذلك الوقت، تغزو أوربا من الشــرق، تعويضًا عن انســحاب الإســلام من جنوب أوربــا. وقد أدرك الغــرب في فتــرة نهوضه ومَدِّه الاســتعماري، خطر هذه الدولــة الإســلاميَّة الكبرى، فاتفقــوا ـ رغم اختلافهم ـ على إضعافها والكيد لها، وما زالــوا يتربَّصون بها الدوائر، حتَّى وهنت بعد قوة، وسقمت بعد صحة، وشاخت بعد شباب، وسمَّوها «الرجل المريض»، وكانوا يرتقبون أن يموت هذا المريض حتَّى يقتسموا تركته، وقد فعلوا بعد الحرب العالميَّة الثانية، بل في أثنائها، بل قبلها.

وكان للصهيونيَّــة العالميَّة دورها في تهديم هــذه القلعة الَّتي كانت ـ على ما بها من مآخذ ونقاط ضعف ـ تمثِّل آخر تجمُّع للمسلمين تحت راية التوحيد والعقيدة الإسلاميَّة.

QaradawiBooks.com

ومنذ سـقطت هذه القلعة، توزَّع المسـلمون وانقسموا تحت رايات جديدة شتَّى، قوميَّة ووطنية، وقامت دول قُطرية صغيرة، بعضها لا يكاد يرى على خريطة العالم، وكثيرًا ما أدَّاهم ضعف كيانهم إلى الاسـتعانة بأعداء دينهم، وخصوم أمتهم.

لقد كان سقوط الخلافة من الكوارث التاريخيَّة، الَّتي لم تُبتلَ الأُمَّة بمثلها طوال تاريخها، على ما فيه من مصائب ومآس.

❊ ❊ ❊

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الهزيمة أمام المشروع الصهيوني

٢ ـ وثاني الإخفاقات ـ وهي ثمرة لإخفاق الأوَّل ـ هزيمة الأُمَّة أمام الصهيونيَّة، الَّتي استطاعت ـ بفضل تفكُّكنا ووهننا ـ أنْ تحقِّق حلمها الكبير بإقامة دولة بني صهيون في قلب ديارنا. وقامت «إسرائيل» الَّتي ظللنا عدة سنوات نقول عنها في صحفنا وإذاعاتنا «إسرائيل المزعومة»، ثمَّ استحيينا من أنفسنا بعد مدة غير طويلة، حيث أصبحت هذه الدويلة الوليدة «المزعومة» تتحدَّانا على كلِّ الجهات، فتصفع وتركل، ولا نملك نحن إلَّا الشجب والشكوى إلى مجلس الأمن؛ فلا غرو أنْ حذفنا كلمة «المزعومة» بعد أن أوشكنا أن نكون نحن المزعومين!

وعرض علينا تقسيم فلسطين في أوَّل الأمر بيننا وبين اليهود فرفضنا، ثمَّ تمنَّينا بعد ذلك لو كنَّا قبلنا.

كُنَّا في أوَّل الأمر نقول: إسرائيل كيان عدواني دخيل، اغتصب أرضًا ليست له، واحتلَّ وطنًا ليس له فيه حق، ولا بدَّ لهذا المغتصب أنْ يرحل، ولا بدَّ لهذا العدوان أنْ يزول. ثمَّ لم نلبث تحت ضربات «إسرائيل» وخصوصًا ضربة (٥ يونيو ١٩٦٧م) وهزائمنا المتتالية: أنْ غيَّرنا سياستنا، وغيَّرنا هدفنا، ورضينا بإسرائيل دولة، وغدا الهدف المعلن لنا هو إزالة آثار العدوان. يعنون عدوان (١٩٦٧م)، أي أنَّ عدوان (١٩٦٧م)

QaradawiBooks.com
نسخة مجانية

أضفى الشــرعيَّة على عدوان (١٩٤٨م). وهو العــدوان الَّذي مكَّن دولة الاغتصاب من احتلال ســيناء والجولان والضفة الغربيَّة وغزة والقدس، وأمسى المسجد الأقصى في قبضة إسرائيل.

ما الَّذي مكَّن لإســرائيل كُلَّ هذا التمكين؟ وهيَّأ لأبناء صهيون هذه الانتصارات الكبيرة على أُمَّة العرب، وهم اليوم قريب من ثلث مليار من النفوس، ووراءهم أكثر من مليار من مسلمي العالم؟

سرُّ ذلك واضح للعيان: أنَّهم دخلوا المعركة «يهودًا» ولم ندخلها نحن «مسلمين». استندوا إلى التوراة، ولم نستند إلى القرآن. قالوا: موسى، ولم نقل: محمد. عظَّموا السبت، ولم نعظِّم الجمعة. قالوا: الهيكل، ولم نقل: الأقصى. أدخلوا الدين فــي المعركة، ونحن عزلنا الديــن عن المعركة؛ فكسبوا بتوظيف الدين، وخســرنا بإبعاد الدين. حتَّى الحُكَّام العلمانيون في إســرائيل مثل ابن غوريون، وجولدا مائير لا يســتغنون عن توظيف الدين في معركتهم. حتَّى قال ابن غوريون كلمته الشــهيرة: إنَّ اليهود لم يحافظوا على السبت، ولكنَّ السبت هو الَّذي حافظ على اليهود!

يريد أنَّ الاستمساك بالشــعائر الدينيَّة والثبات عليها هو الَّذي حفظ الشخصيَّة اليهوديَّة طَوال التاريخ، فلم تزل، أو تذب في غيرها.

ويوم اعتصمنا بالدين، بــرزت قوتنا ماثلة للعيان، كما في الانتفاضة الفلسطينيَّة، الَّتي ســمَّوها أوَّلًا «ثورة المســاجد» والَّتي أقضت مضجع الإســرائيليين، وكما في مقاومة «حزب الله» في جنوب لبنان، وكما في معركة «العاشــر من رمضان» الَّتي هبَّت فيها على جنــود مصر نفحات رمضان، ودخلوا المعركة صائمين، رافعين شــعار «الله أكبر»، فقد حقَّقنا انتصارًا لم نعهده من قبل.

QaradawiBooks.com

ورغم انتصارنا الجزئي المشـرِّف على بني صهيون في (العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ السادس من أكتوبر ١٩٧٣م)، وعبورنا القناة، وتحطيمنا أسطورة القوَّة الَّتي لا تقهر، لم نستفد من هذا النصر كما ينبغي. بل بدأنا نطلب السلام مع العدو الغاصب، ورحَّبت إسرائيل بأول سلام تعقده مع أكبر دولة عربيَّة، وأعظم قوَّة عربيَّة، وهي مصر، وقبلت أنْ تنسحب من سـيناء، لتخرج مصر من المعركة، وتكسـب حيادها إذا ضربت إخوتها وأشقاءها، وكانت ضربة معلِّم حقًّا.

على أنَّ مصر لم تستعد سيناء اسـتعادة كاملة، فهي لا تزال منزوعة السلاح، هي سياسيًّا مع مصر، وعسكريًّا ليست معها.

وقاطع العرب مصر، وقالوا عنها ما قالوا، ثمَّ انتهوا إلى أسـوأ ممَّا وصلت إليـه مصر، تحـت عنوان ما سـمِّي بمسـيرة «السـلام» بدءًا بـ «أوسلو» ثمَّ بـ «واي ريفر» وصولًا إلى «شرم الشيخ». وفي كل محطة من هـذه المحطات نقدم تنـازلات عمَّا اتفقنا عليه مـن قبل، ومع هذا لا تنفذ إسرائيل ما تتفق عليه من قبل، لتجبر المفاوضين اللاهثين وراء السـراب على تنازل جديد. وأحسـب أنَّ هذه المحطات «السلامية» أو «الاستسلاميَّة» لم تنتهِ بعد.

والعجيب أنَّ أهم ما كان يجب البدء بالاتفاق عليه أُخِّر إلى النهاية: مسـألة القدس، وعودة اللاجئين، وقضيَّة المسـتوطنين اليهود، ومسألة الحدود والميـاه، كلها مؤجَّلة، فمـا الَّذي اتُّفق عليه إذن[1]؟ انسـحاب

(١) والآن ـ والكتاب ماثل للطباعة ـ يجتمع ياسـر عرفات وباراك وكلينتون في «كامب ديفيد» بالولايات المتحدة وسط جو ملبَّد بسحب التشاؤم، إزاء «لاءات» باراك الخمس، ولا ندري: إلى أيِّ تنازل جديد يصل هذا الاجتماع؟!

QaradawiBooks.com

محدود من جانب إسرائيل يسمُّونه «إعادة الانتشار»، وهي تسمية معبرة عن المقصود.

وقد قلت عن هذا السلام في قصيدة لي:

فَمَا مَعْنَى فِلَسْطِينٍ بِلَا أَقْصَى وَلَا قُدْسٍ؟
فِلَسْطِينٌ بِلاَ قُدْسٍ كَجُثْمَانٍ بِلاَ رَأْسٍ[1]

لقد كسبت إسرائيل من جراء ذلك إيقاف الانتفاضة، وتقسيم الفلسطينيين، وإدخالهم حلبة الصراع على مغانم السلطة، واستخدام السلطة في ضرب قُوى الجهاد، بدعوى محاربة الإرهاب، وإسرائيل هي الإرهابي الأكبر، لو كانوا يعلمون.

ولقد كشف الكاتب الكبير الأستاذ محمَّد حسنين هيكل النقاب في كتاباته الأخيرة عن خيانات بعض القادة الكبار، الَّذين كانت الخطوط مفتوحة بينهم وبين رجال صهيون في إسرائيل، وبهذا صدق المثل العامي: حاميها حراميها! وكما قال الشاعر العربي قديمًا:

وَرَاعِي الشَّاةِ يَحْمِي الذِّئْبَ عَنْهَا فكَيْفَ إِذَا الرُّعَاةُ لَهَا ذِئَابُ[2]؟!

* * *

(١) قصيدة سراب السلام أو سلام السراب، انظر ديواننا: المسلمون قادمون صـ ١٤٤، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

(٢) ذكره من غير نسبة: الدميري في حياة الحيوان الكبرى (٥٠٤/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٤هـ.

QaradawiBooks.com

الإخفاق في مسيرة التقدُّم والتنمية

٣ ـ وثالث الإخفاقات، هو إخفاق أمتنا في مسيرة «التقدم والتنمية». فلا زلنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ ضمن «البلاد النامية» أو «العالم الثالث»، وعندنا بلاد لو كان هناك عالم رابع لنسبت إليه! لا زلنا عالة على غيرنا في الصناعات الثقيلة، والصناعات الدقيقة، معظم صناعاتنا تجميعية، لم نصنع محركًا «موتورًا» إلى اليوم. سلاحنا الثقيل نستورده، ولا نصنعه.

إنَّ «سُورة الحديد» لم تعلِّمنا صناعة الحديد. حتَّى الزراعة نستورد فيها نصف أقواتنا أو يزيد. مع أنَّ بلادنا بلاد زراعيَّة. فكيف بقاء الأُمَّة الَّتي لا تملك قوتها، ولا تملك سلاحها؟!

لقد بدأت مصر نهضتها مع اليابان أو قبل اليابان، وانظر الآن أين اليابان، وأين نحن؟!

وبدأت كوريا مسيرتها التكنولوجيَّة بعد الحرب العالميَّة الثانية، فانظر أين كوريا وأين نحن اليوم؟!

العالم المتقدِّم يتحدَّث عن الثورات الَّتي أنجزها: ثورة التكنولوجيا، وثورة البيولوجيا (هندسة الجينات والاستنساخ واكتشاف خريطة الجينات البشريَّة وما إليها)، والثورة الإلكترونيَّة (الكمبيوتر والإنترنت)، والثورة

QaradawiBooks.com

الفضائيَّة (غـزو القمر ومحاولة الوصول إلـى الكواكب الأبعد)، و«ثورة الاتِّصالات»، و«ثورة المعلومات» إلخ، فأين نحن من هذه الثورات؟

نحن نستطيع أنْ نشـتري أفخر وأغلى ما أنتجه العلم والتكنولوجيا، نستطيع أنْ نشـتري أفخر سيارة مرسـيدس، أو روزرايس، بمواصفات لا نظير لها، ولكنَّنا لا نستطيع أنْ نصنع منها شيئًا، ولكنَّهم لا يبيعون لنا إلَّا ما يريدون، لا ما نريد نحـن، فما يتعلق بالأسـرار النوويَّة ونحوها لا يباع لنا، ولا يباح لنا، إنَّما هو مباح لإسرائيل وحدها!

قد طال ليل التخلُّف علينا، حتَّى ظنَّ بعض النَّاس أنَّ التخلُّف سببه الإسلام، وهذا خطأ محض؛ فقد كان المسلمون هم العالم الأوَّل لعشرة قرون، وكان العالم يتتلمذ عليهم، والمنهج التجريبي الَّذي نهضت على أساسه أوربا إنَّما اقتبس منهم، بشهادة المؤرخين المنصفين من الغربيِّين أنفسـهم. وقد زعم بعض مفكري العـرب من ذوي النزعة الماركسـيَّة والليبراليَّة: أنَّ العقـل العربي بذاته عاجز عن التحليـق في آفاق العقل الغربي، والوصول إلى ما وصل إليه، سواء في مجال المعرفة الفلسفية أم في مجال العلوم والتكنولوجيا.

وأيَّد بعضهم هذه الدعوة بما ذكره العلَّامـة ابن خلدون في مقدمته عن العـرب، أنَّهم لا يصلحون للحضـارة، وأنَّهم لا يتغلبـون إلَّا على البسائط، إلخ(١).

وقد بيَّـن الدكتور علـي عبد الواحد وافي في تحقيـق «مقدمة ابن خلدون» بالأدلَّة الناصعـة: أنَّ ابن خلدون لم يـرد بكلمة «العرب» في

---

(١) انظر: تاريـخ ابن خلدون (١٨٦/١)، تحقيق خليل شـحادة، نشـر دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

نصوصه المختلفة: «الجنس العربي»، بل أراد «البدو» أو عرب الصحراء الَّذين لم يعيشوا في القرى والمدن، ولم يألفوا الحياة المدنيَّة المستقرة، وإنَّما يشتغلون بمهنة الرعي، وخاصة رعي الإبل، ويتخذون الخيام سكنًا لهم، ويظعنون من مكان إلى آخر، حسب مقتضيات حياتهم، وحاجات أنعامهم الَّتي يتوقف معاشهم عليها.

وهم المقابلون لأهل الحضر، وسكان الأمصار. كما يدل على ذلك الحقائق الَّتي عرضها ابن خلدون في الفصول الَّتي وردت فيها هذه الكلمة من الفصل الخامس والعشرين إلى الفصل الثامن والعشرين من الباب الثاني، والفصل التاسع من الباب الرابع(١).

وما أشبه قول هؤلاء عن العرب بما قاله بعض المستشرقين من قبل: إنَّ العرب لم يكن لهم فلسفة، ولا حضارة، إنَّما كانوا مجرد تراجمة لفلسفة اليونان وعلومهم، وأنَّهم لا يصلحون لإنشاء فلسفة أو حضارة متميزة. وهذا مبني على نظرية «تفاضل الأجناس»: أنَّ هناك جنسًا أعلى، وآخر أدنى، وأنَّ الأوربيِّين هم الجنس الأعلى وغيرهم هو الأدنى. وهذا كله هراء، يرفضه العلم، ويرفضه الدين، فليس في العلم أنَّ جنسًا من بني البشر أفضل من جنس، وليس في الدين أنَّ جنسًا أعلى وأرقى من غيره، إلَّا بالإيمان والعمل أو التقوى. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) انظر: مقدمة د. علي عبد الواحد وافي في تحقيق مقدمة ابن خلدون (٢٩٨/١ ـ ٣٠١)، نشر لجنة البيان العربي، ط٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م.

QaradawiBooks.com

لا يسعنا أنْ نغفل هنا: ما كان عليه بعض مشايخ الدين من ضيق الأفق في استقبال بعض منجزات العلم الحديث، حتَّى أنكرها بعضهم، واعتبرها فتنة من عمل الشيطان.

وقد حكوا أنَّ الشيخ الإمام حسن البنَّا عليه رحمة الله عندما حجَّ لأوَّل مرَّة، وكان موافقًا لسنة (١٩٤٢م)، وقد اصطحب معه مكبِّرًا للصوت (ميكروفونًا)، اعترض عليه بعض العلماء هناك وقالوا له: هذا بدعة، لم يفعله الرسول ﷺ، ولا أصحابه، ولا أتباعهم، وهم خير قرون هذه الأمة، وكل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف.

وناقشهم الشيخ البنَّا، وأنَّ الابتداع إنَّما هو في أمور الدين، وهذا من وسائل الدنيا الَّتي تعين على أمر الدين.

ومن حسن الحظِّ أنْ كان الشيخ الَّذي ينكر الميكروفون يلبس نظارة على عينيه، فقال البنَّا: أراك تلبس نظارة، وتقرأ بها القرآن وكتب الحديث والفقه وغيرها، وهذه لم يفعلها الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا من بعدهم! قال الشيخ: ولكن هذه تكبِّر لي الخط فأقرؤه بصورة أوضح. قال الشيخ البنَّا: وهذا ما يعمله الميكروفون، النظارة تكبر المرئيات، والميكروفون يُكَبِّر المسموعات. وسلَّم عالم الدِّين في الأرض المُقَدَّسة للشيخ البنَّا.

ولقد حدَّثني بعض الإخوة السعوديِّين أنَّ أوَّل دخول التليفون في المملكة استنكره بعض المشايخ، وصرَّحوا بذلك للملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ، وقالوا: هذا لا يمكن أن يكون من عمل البشر، بل هو من عمل الشياطين، لفتنة النَّاس وإغوائهم وإضلالهم عن دين الله. وكان الملك عبد العزيز رجلًا ذكيًّا، فأمر بعض أصحابه أن يقرأ القرآن في

QaradawiBooks.com

التليفون، ويسمعه هؤلاء المشايخ، فلمَّا سمعوا ذلك، قال لهم الملك رَحِمَهُ اللَّهُ: هل يقرأ الشيطان القرآن الكريم؟

على كلِّ حالٍ، كانت هذه فترة مضت، وهذا يُذكِّرنا بما حدث أيام الدولة العثمانيَّة عند ظهور «المطبعة» وتخوُّف بعض المشايخ من استخدامها في طباعة كتب العلم والدين، خشية دخول الأغلاط والتحريف فيها، وهو وارد من غير شك، ولكن المصالح المترتبة على استخدامها أكبر بكثير من المفاسد المخوفة منها، ولا يجوز تضييع مصلحة كبيرة تخوفًا من حدوث مفسدة صغيرة، هذا مع وجوب التحذير من الغلط والتحريف، والعمل على تلافيه.

وهذا يُذكِّرنا أيضًا بما حدث من قلَّة من المشايخ القدامى في الأزهر الشريف، الَّذين اعترضوا على إدخال «العلوم الحديثة» في برامج الأزهر ومقرراته، من الرياضيات والطبيعة والكيمياء والأحياء والجغرافيا وغيرها؛ لأنَّها ستجور في رأيهم على علوم الدين واللغة.

والحقُّ أنَّ هذه العلوم الَّتي يسمُّونها «الحديثة» هي علوم قديمة نبغ فيها المسلمون وأبدعوا فيها أيام ازدهار حضارتهم، وكان لهم فيها القدح المعلَّى. وقد اقتبسها الغربيون منهم وتفوَّقوا فيها، ثمَّ عادت إليهم في صورة علوم حديثة، وما هي إلَّا بضاعتهم رُدَّت إليهم.

ومن أعجب ما سمعته في عصرنا: أنَّ أحد الدعاة ممَّن ينتسب إلى جماعة دينيَّة تهتمُّ بالجوانب الروحيَّة والعباديَّة فحسْب، قال يومًا في خطبة أو درس له: الحمد لله الَّذي سخَّر لنا الإفرنج، ليقدِّموا لنا منجزات العلم والتكنولوجيا، لنتفرغ نحن لعبادة الله تعالى!

QaradawiBooks.com

غفل هذا المسكين أنَّ المسلمين بهذا قد أثموا في حقِّ دينهم وأُمَّتهم، حين أهملوا ما اعتبره العلماء فرض كفاية عليهم، وهو إتقان العلوم، الَّتي تقوم بها دنياهم، ويعزُّ بها دينهم، وتسود أمتهم، ويُعِدُّون بها ما استطاعوا من قوَّة لأعداهم، ليحموا دينهم وأرضهم وعِرْضهم وحرماتهم. فإذا قصَّروا في ذلك، فقد أثمت الأمة جميعها، فليس هذا نعمة يُحمد الله عليها، بل هي جريمة يُستغفر الله تعالى منها.

ورحم الله زمانًا كان علماء الدِّين مُبرِّزين في علوم الدنيا.

فقد رأينا مثل الإمام ابن رشد «الحفيد» (ت: ٥٩٥هـ) في الأندلس، يؤلف في الفقه المقارن كتابه الفريد «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، ويؤلف في الطب كتابه «الكليَّات» الَّذي ترجم إلى «اللاتينية» وظل مرجعًا للأوربيِّين لعدة قرون.

ورأينا في الشرق معاصره الإمام فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ) الَّذي اشتهرت كتبه الدينيَّة في التفسير وأصول الفقه والكلام، ينبغ في الطبِّ أيضًا. وقال مترجموه: إنَّ شهرته في الطب لم تكن تقل عن شهرته في علوم الدين.

ورأينا مثل ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى (ت: ٦٨٧هـ) يترجم له العلامة تاج الدين السبكي في كتابه الشهير «طبقات الشافعية الكبرى»[1].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٣٠٥/٨)، تحقيق د. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو، نشر دار هجر للطباعة والنشر، ط٢، ١٤١٣هـ. وانظر أيضًا: تاريخ الإسلامي للذهبي (٥٩٧/١٥).

QaradawiBooks.com

فلم يكن عندنا مشكلة الصراع بين العلم والدين، الَّتي ثارت في أوربا قرونًا عدة، بل كما قلت وأقول دائمًا: العلم عندنا دين، والدين عندنا علم.

فالعلم عندنا عبادة، وطلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة، وهو يشمل كل علم نافع، في الدين أو في الدنيا، وهو إمَّا فرض كفاية أو فرض عَيْن.

والدِّين عندنا علم؛ لأنَّه لا يقوم على التسليم المطلق، ولا على الإيمان بغير المعقول، كما في المسيحيَّة، بل نجد قرآننا يقول للمشركين والمخالفين: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، و[النمل: ٦٤].

وليس عندنا ما عند النصارى من قولهم: اعتقدْ وأنت أعمى! بل المطلوب أن يكون الإيمان عن بيِّنة: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: ١٧]، وأن يكون على نور: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وإيمان المقلِّد عند المحقِّقين من علماء المسلمين: غير مقبول، إنَّما يُقبل الإيمان القائم على الدليل، ولو كان دليلًا جمليًّا، وغير مرتب ترتيبًا منطقيًّا.

هل المسلمون أقل ذكاءً من الأمم الصناعيَّة المعروفة في عصرنا؟ ليس هذا صحيحًا من غير شك. بدليل أنَّ لدينا عقولًا مهاجرة إلى بلاد الغرب تعدُّ بعشرات الألوف، من النوابغ في شتَّى مجالات العلم، أمكن الغرب أنْ يستفيد من علمهم وخبرتهم، ولم تستطع دولهم ذلك للأسف.

QaradawiBooks.com

لقد استطاعت باكستان أنْ تصنع القنبلة النوويَّة، بالرغم من محاولات الغرب منعها من ذلك، وكان العراق في طريقه إلى ذلك، لولا ما جرَّه إليه نظامه الحاكم من حماقات ومطامع ضيَّعت عليه فرصته، وسدَّت عليه طريقه.

وتستطيع الأُمَّة العربيَّة والإسلاميَّة أن تفعل الكثير إذا تعاونت وتكاملت، فنحن نرى الدول الصناعيَّة الكبرى تتعاون فيما بينها لصناعة طائرة متطورة. فلماذا لا تفعل الأمة المسلمة ذلك[1]؟

إنَّ العدد الكبير والمساحة الكبيرة شرط لنجاح التقدُّم والتنمية، فنحن في عصر الإنتاج العريض، والسوق الواسعة. وإنَّ ثلاثمائة مليون من العرب وألف مليون وراءهم من المسلمين لقادرون أن يكونوا شيئًا مذكورًا، إذا عرفوا غايتهم، وعرفوا سبيلهم، وتوحَّدت إرادتهم، وأيقنوا برسالتهم، ليجعلوا من الإيمان بها محرِّكًا يثير حوافزهم، ويجنِّد قدراتهم، ويضاعف طاقاتهم. فإنَّ المؤمن القوي يمكنه أن يعمل بعشرة أضعاف غيره إذا توافرت له الإرادة والصبر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

* * *

(١) انظر كتابنا: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي صـ ١١١ ـ ١٢٢، فصل: هم التخلف، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الإخفاق في التحرر من التبعيَّة للغرب

٤ ـ ورابع الإخفاقات هو: الإخفاق في التحرُّر من التبعيَّة للغرب، صحيح أنَّنا حصلنا على الاستقلال السياسي، وأنَّ جيوش الأجنبي قد رحلت عن بلادنا، وإنْ كانت قد عادت إلى كثير منها مرَّة أخرى بحجة أخرى.

ولكن المؤسف أنَّنا لم نتحرَّر من فكر الغرب وثقافته، لا زال سلطان الثقافة الغربيَّة مهيمنًا على كثير من نخبنا، وهو الَّذي يصنع لهم اتجاهاتهم، كما يضع لهم قِيَمهم وموازينهم الفكريَّة والخُلُقية، ويحدِّد لهم أهداف حياتهم، ويضع لهم أنماط سلوكهم، بحيث يعيشون بين أقوامهم، وهم في الواقع ليسوا منهم، أسماؤهم ووجوههم عربيَّة وإسلاميَّة، ولكن عقولهم غربية.

هناك من يزعمون أنَّ الثقافة الغربيَّة ثقافة عالميَّة، فلا يليق بنا أنْ نوصد الأبواب دونها. وهذه مغالطة مكشوفة القناع، فالعلم الطبيعي والرياضي لا وطن له، ولا جنسية له حقًّا ـ إلَّا فيما يتعلق بفلسفته وأهدافه واستخدامه ـ أمَّا الثقافة فهي المعبِّرة عن هُوِيَّة كلِّ أُمَّة وخصوصيتها، عن عقائدها وقيمها وشرائعها وأعرافها وحضارتها وتراثها، ولا يجوز لأُمَّة تعتزُّ بنفسها وبذاتيتها ورسالتها أنْ تذوب في غيرها، كما يذوب الملح في الماء؛ فإنَّ هذا حكم على الأُمَّة بالفناء والإعدام!

نسخة ... (stamp)

لا عجب أنْ سـمَّيتُ هؤلاء وأمثالهم «عبيد الفكر الغربي»! قال لي بعضهم: لقد قسوت على هؤلاء، فليتك سمَّيتهم «تلاميذ الفكر الغربي». قلت له: إنَّ التلميذ قد يناقش أستاذه، وقد يخالفه فيما ذهب إليه، وهؤلاء لا يناقشـون الفكر الغربي، بل يأخذ الواحد منهـم كلَّ ما جاء به قضيَّة مُسَـلَّمة، وإن كانت مناقضة لعقيدته، أو منافية لتراثـه، أو معادية لأُمَّته. وهذا هو موقف العبيد من السادة.

وأعجب صنـف من هؤلاء من عبيد الفكر الغربي: من أقحم نفسـه على الدراسات الإسلاميَّة، ومنح نفسـه الحقَّ في التحدُّث باسم الفكر الإسلامي، وأنزل نفسـه منزلةً فوق منزلة المجتهدين، فهو لا يلتزم بما التزمه الأئمَّة المجتهدون طَوال القرون، من احتـرام «القطعيَّات» وعدم المسـاس بها، باعتبارها «ثوابت الأُمَّـة» الَّتي تجسِّـد وحدتها العقدية والفكريَّة والشعوريَّة والعمليَّة، ولكن هؤلاء لم يدَعوا سورًا إلَّا اخترقوه، ولا مقدَّسًا إلَّا اجترؤوا عليه، حتَّى نصوص كتاب الله المحفوظ، استباحوا حرمتها، بدعوى تاريخيَّة النص حينًا، وباتباع المدرسة التأويليَّة الحديثة، الَّذين هم خلْف للمدرسـة التأويليَّة الباطنيَّة قديمًا، كما نرى عند أركون وشحرور، ونصر أبو زيد وأمثالهم.

والمهمُّ أنَّ هؤلاء العبيد هم الَّذين يُوجِّهون ـ في الأغلب الأعم ـ أجهزتنا الإعلامية والثقافيَّة والتربويَّة، وهم الَّذين وُكِل إليهم صناعة عقول شـعوبنا، رجالنا ونسائنا وأبنائنا وبناتنا، ويسـلخونهم من جلد أمتهم بما يدسُّون لهم من سموم الثقافات الدخيلة على الأُمَّة توضع في الدسم والحلوى.

وهي ليسـت تبعيَّة فكرية أو ثقافيَّة فحسْـب، بل هي تبعيَّة تشريعيَّة أيضًا، فلا زال القانون الوضعي ـ الَّذي فرضه المستعمر الغربي على أمتنا

QaradawiBooks.com

في فترة حكمه، وأحلَّه محل الشريعة الإسلاميَّة ـ هو الَّذي يحكم أوطاننا بعد رحيله عنها. فقد تـرك وراءه تلاميذ صنعهم على عينه، يحرسـون تراثه، ويحافظون على نهجه، ويسـيرون على خطه، ولم تستطع شعوبنا الَّتي تؤمن بالشـريعة قانونًا لها، أنْ تفرضها علـى حكامها، الَّذين ظلوا يراوغون، ويقولون: نعم للشـريعة، ولكن بالتدرُّج، وقد مضت عشرات السنين وهم لا يتدرجون، ولا يبرحون مكانهم «محلك سِرْ».

وهي ليست تبعيَّة ثقافيَّة ولا تشريعيَّة فحسْب، بل هي تبعيَّة اقتصاديَّة أيضًا، فنحن مجبورون على أنْ نكون سـوقًا للغرب، وأن نشـتري منه ما لا حاجة لنا إليه، نشتري الأسـلحة بعشرات المليارات، لنكدِّسها في مخازننـا، ولا نسـتعملها، وكثيـرًا ما يبيعنا الأسـلحة بعـد أنْ تنتهي صلاحيتها، ويبتكر هو أحدث منها، فيغدو وجودها عنده عبئًا عليه، فهو ببيعها إيَّانا يضرب عصفورين بحجر واحد: يتخلص منها، ويقبض ثمنها فورًا، يدًا بيد.

ثم هـي فوق ذلك تبعيَّـة سياسـيَّة أيضًا فلا زالت دولنـا ـ بصورة وأخرى ـ تعمل بما قاله كرومر قديمًا «النصائـح الملزمة»، وأين الدولة الحرَّة الَّتي تسـتطيع أن تقول لنصائح أمريكا: لا، بملء فيها. كما قيل: يعجبني الرجل إذا سِيمَ الخَسْفَ أن يقول بملء فيه: لا[(١)]!

ومن هنا رأينا الكثير من الأنظمة الحاكمة في ديارنا العربيَّة والإسلاميَّة تهرول نحو إسـرائيل ـ وهي جدُّ بعيدة عنها ـ مثل إندونيسـيا شرقًا، أو موريتانيا غربًا، طاعةً وأدبًا وامتثالًا للقيصر الجديد للعالم: أمريكا.

(١) رواه من قول زياد بن أبيه البلاذري في أنساب الأشراف (٥/٢٠١)، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، نشر دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

الإخفاق في مجال الشورى والحرِّيَّات العامَّة وحقوق الإنسان

٥ ـ وخامس الإخفاقات هو: الإخفاق في مجال الشورى والحرِّيَّات العامَّة وحقوق الإنسان. فما زالت جلُّ شعوبنا ـ إن لم يكن كلها ـ تحت وصاية حكامها، لا تستطيع أن تختار من يقودها، ولا أن تحاسبه وتسائله، وتُوقِفه عند حدِّه، وإلَّا عزلته.

والعجب أنَّ البلاد الَّتي انتهت إلى النظام الجمهوري أسوأ حالًا ـ في غالبها ـ من البلاد الَّتي بقيت ملكية أو أميرية. فهذه الجمهوريات «الديمقراطيَّة!» انفردت بين نظم العالم بالأغلبيَّة الَّتي أصبحت نكتة العالم، أغلبيَّة التسعات الأربع (٩٩,٩٩٪)، ومعظمها استفتاء على الطريقة الاشتراكية الَّتي وصفها بعضهم بأنَّه سباق يعدو فيه حصان واحد!

ولم نرَ في هذه الجمهوريات الديمقراطيَّة المزعومة تداولًا للسلطة كالجمهوريات في الغرب الليبرالي، بل نرى كل رئيس لا يترك السلطة إلَّا ميتًا، أو مقتولًا، أو منقلبًا عليه. وكل واحد منهم يعد ابنه ليخلفه من بعده. أي أنَّ الجمهوريات أصبحت وراثية كالملكيَّة، ولكن الملك في الأنظمة الدستوريَّة يملك ولا يحكم، أما رئيس الجمهوريَّة فهو يملك ويحكم معًا. لا يستثنى من ذلك إلَّا رئيس واحد تنازل مختارًا عن

QaradawiBooks.com

موقعه، ليتيح الفرصة للناس ليختاروا لأنفسهم، وهو المشير عبد الرحمٰن سُوار الذَّهب في السودان، شكر الله سعيه.

فلا غرْو أنْ يقترح بعض الكتاب أن يختار العرب لحكمهم الملكيَّة الدستوريَّة، بدل الجمهوريَّة الَّتي تعلن الديمقراطيَّة، وتمارس الدكتاتورية. ومن هنا رأيناها تستخدم الأحكام العرفية، والقوانين الاستثنائية أو قانون الطوارئ، والمحاكمات العسكريَّة، وتمتلئ سجونها بمعارضيها. ولا تجد من يقول لها: لم؟ بله أن يقول: لا!

لماذا تنجح الديمقراطيَّة في بلد كبير كالهند (مليار من البشر) متعدِّد الأديـان والأعـراق واللغـات والثقافـات، حتَّـى إنَّ الحكومة تجري انتخابات، وتسقط هي، ويفوز خصومها، في حين تخفق الديمقراطيَّة في جارتها باكستان، وتحكم بالانقلابات العسكريَّة؟

نحن لا نبرئ الغرب من هذه الجريمة، فهو يشـجِّع الديمقراطيَّة في أنحاء العالـم، ويكرهها في البلاد الإسـلاميَّة، وهو يسـند كل دكتاتور يحكم في أوطان المسلمين، ويشد أزره، ما لم يمسَّ مصالحه، أو يلتفت إلى الصالح الإسلامي في بلده، كما فعل مع سوهارتو في إندونيسيا.

وإلَّا فخبِّرني بربِّك كيف ساند الغرب المؤسسة العسكريَّة في الجزائر الَّتي ألغت نتائج انتخابات حرَّة نزيهة أجرتها الحكومة بنفسها، واستولت على مقاليد السلطة عنوة، وأخذت الرجال الَّذين انتخبهم الشعب طواعية إلى أقبية السجون متهمين بالعنف والإرهاب، ممَّا ولَّد حالة من العنف في الجزائر لم تبرح تعاني منها إلى اليوم؟!

ولماذا أبقى الغرب على صدام حسين إلى اليوم، وقد كان في إمكانه إسقاطه أيام حرب تحرير الكويت، لو كانوا يريدون ذلك حقًّا؟

QaradawiBooks.com

إنَّ لجان الإنسـان، الدوليَّة والإقليميَّة والمحليَّة، ولجنة العفو الدوليَّة، تحتج بصوتٍ عالٍ على ما يجري في بلادنا العربيَّة والإسلاميَّة من انتهاكات صارخة لحقوق الإنسـان، واعتداءات متكررة على الحريات، وإلقاء النَّاس في السـجون بغير جريمة، وتعذيـب المتَّهمين بغير حقٍّ، وإيـذاء أهليهم وأقاربهم بلا جريرة. ومنهم من مات في سـجنه من التعذيب المباشر، أو سـوء التغذية، أو إهمال العلاج. ومنهم من أصيب بأمراض مزمنة، بعضها عضوية، وأخرى عصبيَّة ونفسيَّة، لا دواء لها، إلَّا أنْ يشاء ربِّي شيئًا.

وإنَّ بعض هذه الدول تتبجَّح بدعوى الإسـلام، وأنَّه دينها الرسمي، كما في تونس، وهي تعتبر الصلاة في المسجد جريمة، يحسب صاحبها في الإرهابيين، وتعتبر اقتناء الكتب الإسـلاميَّة ذنبًا يزج به في غياهب السـجون، وتعتبر حجـاب المرأة المسـلمة جرمًا يحرمهـا من دخول المدرسة والجامعة والوظيفة الحكوميَّة، والمستشفى للولادة أو العلاج، وهو حقٌّ لا ريب فيـه يتعلق بالحرِّيَّة الشـخصيَّة، والحرِّيَّة الدينيَّة. ومن العجب أنَّ المرأة شبه العارية لا يمسها أحد بسـوء؛ لأنَّ هذا داخل في الحرِّيَّة الشخصيَّة المقدسة.

مشكلة هذه الأنظمة المستبدَّة: أنَّ لها ـ كما قال شكري القوتلي من قبل ـ ألف عيـن ولكنَّها لا ترى، وألـف أذن ولكنَّها لا تسـمع، لأنَّها لا ترى ولا تسـمع إلَّا بأعيـن أنصارها وآذانهم، أي أهـل الثقة لا أهل الكفاية والخبرة. وهؤلاء يُخفون عنها العيـوب، ويُضَخِّمون لها المزايا، ويُخَوِّفونها ممَّا هو في حقيقته من الأوهام.

وأعجب مـن هذا أن نجـد من المثقفين مـن يبرِّر هذا الاسـتبداد والتسلط بحجج شتَّى، منها: تمكين الدكتاتور من اتِّخاذ القرار السريع.

QaradawiBooks.com

حتَّى قال من قال: لا ينهض بالشرق إلَّا مستبد عادل. والعدل لا يجامع الاستبداد، فالعادل لا يكون مستبدًّا، والمستبدُّ لا يكون عادلًا.

ومنهم من قال: إنَّ الشورى ـ الَّتي أمر الله بها ـ مُعْلِمة لا ملزمة، فمن واجب الحاكم أن يستشير أهل الحَلِّ والعَقْد، ومن حقِّه أنْ يضرب برأيهم عُرض الحائط. فلماذا سمُّوا أهل الحَلِّ والعقد؟ وماذا يَحِلُّون ويعقدون إذن؟

ومنهم من زعم أنَّ الديمقراطيَّة تعني حكم الشعب، وهي منافية للإسلام؛ لأنَّه حكم الله. وهذه مغالطة، فحكم الشعب ليس مقابلًا لحكم الله، بل لحكم الفرد المطلق، والمفروض أنَّنا نتحدَّث عن حكم الشعب المسلم في وطن مسلم، ومثله لا يرفض حكم الله. وهو حكم الشورى الَّذي يرفض حكم كل جبار عنيد، حكم الفراعنة والمتألهين في الأرض، وإنَّما يقبل حكم الصالحين الَّذين يحبون النَّاس ويحبونهم، ويصلُّون على النَّاس كما يصلِّي النَّاس عليهم، ولا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا.

الحقيقة أنَّ الإسلام يذم من أمَّ قومًا وهم له كارهون[1]. وهذا في الإمامة الصغرى في المسجد، فكيف بالإمامة الكبرى: إمامة الأُمَّة[2]؟

* * *

(١) إشارة إلى حديث ابن عباس مرفوعًا: «ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرًا: رجل أمَّ قومًا وهم له كارهون...». رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٧١)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/١١٩): إسناده صحيح ورجاله ثقات. وابن حبان في الصلاة (١٧٥٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. والطبراني (١١/٤٤٩)، وضعَّفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٢٠٦).

(٢) انظر كتابنا: من فقه الدولة في الإسلام صـ ١٢٩ وما بعدها، موقف الإسلام من الديمقراطية، نشر دار الشروق، القاهرة، ط٦، ٢٠٠٩م.

QaradawiBooks.com

الإخفاق في توحيد الأُمَّة

٦ ـ وسادس الإخفاقات هو: إخفاق الأُمَّة في مجال الوحدة، فمنذ سقطت الخلافة، والأمة الإسلاميَّة تنشد الوحدة بصورة من الصور ولا تصل إليها، ولا تقترب منها. والحقيقة أنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة لا وهم، هي حقيقة بمنطق الدين، وهي حقيقة بمنطق التاريخ، وهي حقيقة بمنطق الجغرافيا، وهي حقيقة بمنطق المفاهيم المشتركة، والمشاعر المشتركة، والمصالح المشتركة، والمصير المشترك، وهي حقيقة بمنطق أعدائها أنفسهم، الَّذين ينظرون إليها باعتبارها كيانًا واحدًا يجب تفكيكه وتمزيقه.

لقد اعتبر القرآن الكريم المسلمين «أُمَّة واحدة» وحَّدتها العقيدة والشريعة والقِيَم والآداب المشتركة والقِبْلة الواحدة، ولكنَّ الاستعمار أرادهم «أممًا شتَّى»، واستطاع الاستعمار بوسائله وأساليبه المختلفة أن يُغَيِّب «الأُمَّة الواحدة»، ويُبْرز الأمم المختلفة.

لقد فرَّق أبناءَ الأُمَّة الواحدة اختلافُ الفلسفات والمناهج الَّتي استوردوها من الشرق والغرب، واليمين واليسار، كما فرَّقهم اختلاف الولاءات لهذه الجهة أو تلك، ثمَّ ظهور العصبيَّات القطريَّة والقوميَّة، الَّتي جعلت كلَّ جماعة تذكر وطنها وجنسها ولا تذكر الأُمَّة الكبرى.

QaradawiBooks.com

أضف إلى ذلك الأهواء والمصالح الشخصيَّة والأُسَـريَّة والحزبيَّة الَّتي جعلت من الحُكَّام من يتشبث بالتجزئة ولا يحرص على الوحدة.

إنَّ الإسـلام أمر الأُمَّـة بالوحدة والائتـلاف، ونهاها عـن التفرُّق والاختلاف، وجسَّد هذه الوحدة بأحكام أساسيَّة ثلاثة:

١ ـ وحدة المرجعيَّة العليـا، المتمثلة في محكمات القرآن والسُّـنَّة الصحيحة.

٢ ـ وحدة دار الإسـلام، الَّتي تجعل أوطان الإسلام ـ وإن تباعدت ـ وطنًا واحدًا، أو دارًا واحدة.

٣ ـ وحدة القيادة، حين فرض على المسـلمين أن يكون لهم خليفة واحد، تجب عليهم بيعته.

فأمَّا شكل الوحدة بين المسلمين، فلم يحدِّد الإسلام له صورة معيَّنة، وفي عصرنا قد ابتكـرت صور للوحدة يمكننـا أنْ نقتبس واحدة منها، ونطوِّرهـا بما يلائم شـريعتنا وأوضاعنـا: فيدراليـة أو كونفدرالية، أو كومنولث، أو نحو ذلك، ويمكن أن نبدأ بأدناها ثمَّ نرقى بها بالتدريج.

على أيَّة حال، قد اكتفى المسلمون الآن بما أطلق عليه اسم «التضامن الإسلامي» الَّذي تجسَّد في «منظمة المؤتمر الإسلامي» الَّتي تمثِّل جميع الدول الإسلاميَّة، أو الَّتي فيها نسبة كبيرة من المسلمين. ولهذه المنظمة عدد من المؤسسـات مثل «البنك الإسـلامي للتنمية»، و«مجمع الفقه الإسلامي»، و«المنظمة الإسلاميَّة للثقافة والتربية والعلوم»، وجلُّها يشكو من عجز المـوارد، وقلَّة التمويـل. والواجب على الأُمَّـة أنْ تفعِّل هذه المنظمة، سعيًا إلى ما تنشده من الوحدة ولو في أدنى درجاتها، فنحن في عصر يتكلَّم بلغة التكتُّل والتوحُّد.

QaradawiBooks.com

وها قد رأينا أوربا الَّتي قاتل بعضها بعضًا قرونًا، آخرها الحربان العالميتان الَّتي قتل فيها ملايين من الأوربيِّين، قد نسيت هذا الصراع الدامي، وفرضت عليها المصالح المشتركة أن تتوحَّد في شكل سوق مشتركة، وبرلمان مشترك، ومؤسسات مشتركة.

لقد آن لنا أن تنشأ السوق الإسلاميَّة المشتركة، ومحكمة العدل الإسلاميَّة للفصل في النزاع بين الدول الإسلاميَّة بعضها بعض، وأن نُخَفِّف من الفواصل والعوائق بين بعضنا وبعض.

على أنَّ وحدة الأُمَّة لا تلغي خصوصيَّات الأقوام والأوطان، بما لها من لغات وأعراف وتواريخ وأوضاع خاصَّة، وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]. ولكنَّ الإسلام يفرض على أبناء الأُمَّة أنْ يكونوا كالبنيان يشدُّ بعضهم بعضًا، وكالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى(١).

أما أنْ تُضرب الشيشان بقسوة وعنف، وتُدمَّر المساجد والمنازل، ويُقتل المدنيون، ويُشرَّد مئات الألوف، ويُباد شعب بأكمله، والمسلمون يتفرَّجون صامتين لا يصرخ منهم أحد محتجًّا، فهذا عارٌ وشنار على أُمَّة الإسلام.

إنَّ العالم يتوحَّد، فما بالنا نختلف؟ ويتقارب فما بالنا نتباعد؟

إنَّ المسيحيِّين يتقاربون بين بعضهم بعضًا، برغم أنَّ مذاهبهم تعتبر كأنَّ كلًّا منها دين مستقل. بل تقارب المسيحيُّون مع اليهود، حتَّى

(١) إشارة إلى حديث النعمان بن بشير المتفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦).

QaradawiBooks.com

أصدر الفاتيكان وثيقته الشهيرة بـ «تبرئة اليهود من دم المسيح» مخالفًا ما استقرَّ عليه المسيحيُّون طوال القرون الماضية (تسعة عشر قرنًا أو تزيد). وكذلك رأينا أمريكا الرأسماليَّة تتقارب مع الصين الشيوعيَّة. وقبل ذلك رأينا المعسكر الغربي الرأسمالي الليبرالي يتقارب مع المعسكر الشرقي الشيوعي «الاتحاد السوفييتي» فيما عرف بسياسة التعايش السلمي أو الوفاق.

فما بالنا نحن المسلمين نتباعد ونتجافى، وشعوبنا تعتبر المسلمين إخوة لهم أينما كانوا، وتعتبر الجميع من أُمَّة الإسلام، أُمَّة الإجابة؟

حتى العرب ـ وهم طليعة المسلمين ـ لم يستطيعوا أن يصلوا إلى الوحدة، لقد أقاموا «الجامعة العربيَّة» من سبع دول، ثمَّ أربت اليوم على العشرين، ولكنَّها توسَّعت كمًّا، ولم تتعمَّق كيفًا. برغم كل ما يجمع بينها من وحدة الدين والأرض واللغة والمصير والمصلحة.

وعامل جديد هو العدو الصهيوني، الَّذي كان يجب أن يكون عامل توحيد لهم، فانتهى إلى أنْ يكون عامل تفريق، في موقفهم منه. ومن المؤسف أنَّ كلَّ التجارب «الوحدوية» ـ الَّتي عبَّرت عن طموحات الأمة ـ باءت بالفشل. فشلت وحدة مصر وسوريا، وهي أعظم خطوة للوحدة تمَّت في عصرنا، أنشأت «الجمهوريَّة العربيَّة المتحدة» واستقبلها العرب في كل مكان بفرحة غامرة، وترحيب هائل، وتأييد منقطع النظير، وقد شهدت ذلك بنفسي، سرعان ما تهدَّمت هذه القلعة، وتهاوى بنيانها، وانتهت من التاريخ؛ بسبب طغيان الحكم، وحكم الطغيان، والاستبداد الَّذي بغى على حقوق الإنسان، وحرِّيَّة المواطنين، فلم يُطِقْ الشعب السوري أن يحيا في سجنٍ بابه مغلق، ومفتاحه في القاهرة، وفي أوَّل

QaradawiBooks.com

فرصة أعلن الانفصال، وأصبح أكثر الَّذين أيَّدوا الوحدة بالأمس يُؤَيِّدون الانفصال اليوم.

حتى الرئيس شـكري القُوَّتْلي الَّذي تنازل مختارًا عن منصب رئيس الجمهوريَّة، ليصبح «المواطن العربي الأول» فـي الجمهوريَّة الجديدة، كان أوَّل من رحَّب بالانفصال، بخطابه التاريخي الشـهير، الَّذي أذاعته كل أجهزة الإعلام.

وكذلك لم تنجح محاولات الاتِّحاد الثلاثي بين مصر وسوريا وليبيا، ولم ينجح الاتِّحاد المغاربي بين أقطار المغرب الخمسـة، رغم ما بينها من روابط وتقارب، حتَّى في العادات والأعـراف، ولم ينجح «مجلس التعاون العربي» الَّذي قام بين مصر والأردن واليمن وليبيا.

ولم يسـتطع الحزبـان البعثيَّـان اللـذان يحكمان بلدين شـقيقين متجاورين «سـوريا والعراق» أن يقيما وحدة بينهما، رغم أنَّ شـعارهما جميعًا: أُمَّة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة.

والتجربة الوحيـدة الَّتي اسـتمرَّت مع الزمن هـي تجربة «مجلس التعاون الخليجي» وإن كان بطيء الخطوات فـي تطوير تعاونه، وإزالة الحواجز بين بلدانه.

ولقد ازداد العـرب فرقة بعد كارثة احتلال العـراق للكويت بإغراء الغرب، لقد كانت ضربة معلِّم اسـتطاع الغرب عامة، وأمريكا خاصَّة أنْ يُحقِّق بها عدة أهداف: أن يحوِّل العراق من دولة توشك أنْ تصنع القنبلة النوويَّة، إلى دولة مدمَّرة السـلاح، وأنْ يمزِّق وحدة العرب، فلم تجتمع لهم قمـة إلى اليوم، برغم مسـيس حاجتهم إليها. ولقـد جرَّب الغرب

QaradawiBooks.com

أسـلحته الجديدة في أرض العرب، وتخلَّص فيها من أسلحته القديمة، وضـرب المنطقة وهدمهـا بفلوس العـرب، ثمَّ أعـاد إعمارها بفلوس العرب، وأخَّر المنطقة نصف قرن من الزمـان على الأقل، وترك جراحًا غائرة في النفوس ـ منها أسرى الكويت ـ لم تندمل إلى اليوم.

* * *

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الإخفاق في تحقيق العدالة الاجتماعيَّة

٧ ـ وسابع الإخفاقات هو: الإخفاق في تحقيق عدالة اجتماعيَّة، يأخذ فيها كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، من ثروة وطنه وَفْق جهده وحاجته وحاجة أسرته، كما قال الفاروق عمر: فالرجل وبلاؤه (أي جهده) والرجل وحاجته[(١)].

وقد وضع الإسلام قواعد راسخة لحسن توزيع الثروة بين النَّاس بالعدل، فلم يمنع حرِّيَّة التملك، بل أجاز التملك وتنمية الملك بالطرق المشروعة، ووضع على الملكيَّة قيودًا وتكاليف تقلِّم أظفارها، وتحدُّ من غلوائها، ففرض عليها الزكاة، وما بعد الزكاة من حقوق، وفرض على الأغنياء أنْ يبذلوا من فضل أموالهم حتَّى يكتفي الفقراء الكفاية التامة، وحرَّم على الأغنياء السرف والترف والكنز والاحتكار والربا، وبذلك عمل بقوانينه ووصاياه على الحدِّ من طغيان الغني، والرفع من مستوى الفقير، وخصَّ الفقراء من موارد الدولة من أموال الفيء وغيره بما لا يشاركهم فيه غيرهم، وعلَّل ذلك بقوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ﴾ [الحشر: ٧].

---

(١) رواه أحمد (٢٩٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الخراج (٢٩٥٠)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تخريجه على المسند.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومع ذلك وجدنا توزيع الثروات في ديارنا العربيَّة والإسلاميَّة أبعد ما يكون عن عدل الإسلام، فنجد الَّذين يعملون ولا يملكون، والَّذين يملكون ولا يعلمون، ونجد الَّذي يعمل أكثر محرومًا أكثر، نجد من يأكل إلى حدِّ الشره، ومن لا يجد اللقمة تمسك رمقه، نجد من يضع يده على بطنه يشكو زحمة التخمة، ومن يضع يده على بطنه يشكو عضة الجوع. نجد من يملك القصور تجري في ساحاتها الخيل، بعضها في بلده، وبعضها خارج بلده، قد لا يزوره إلَّا مرَّة كل عدة أعوام، وآخر هو وزوجته وأولاده قد حبسوا في قلب حجرة في «بدروم» هي المطعم والمجلس والمضافة والمنامة. وتجد بلاد القلة السكانية تملك القناطير المقنطرة، وبلاد الكثرة السكانية لا تملك مثل ذلك، وتجد الحُكَّام وأبناءهم يلعبون بثروات البلاد، ولا يجدون من يحاسبهم. ونجد الَّذين يقفزون من أوَّل السلم إلى أعلاه، من دنيا الملاليم إلى دنيا الملايين في وثبة واحدة، دون أنْ نرى من يقول له: من أين لك هذا؟ وآخرين يعيشون أعمارهم جاهدين مجاهدين، ولم يحصِّلوا غير العرق والدموع.

في كلِّ بلد من بلداننا نجد أفرادًا محظوظين أو أسرًا محظوظة، هم الَّذين تتقاطر عليهم الملايين بل البلايين، وتفتح لهم الأبواب المغلقة، وتتاح لهم الفرص النادرة، وتمنحهم البنوك من التسهيلات ما لا يُمنح لسواهم، فضلًا عمَّا لهم من الاحتكارات والامتيازات الطبقية، الَّتي تمكِّنهم من امتلاك الثروة الهائلة والأرباح الضخمة، بدون مجهود يُذكر. وبذلك تتركز الثروة في أيدي فئة قليلة، والآخرون ينظرون إليهم متحسِّرين حاسدين.

ومن لوازم ذلك: أنَّ هذه الأصناف من النَّاس لا تطمئن إلى أن تبقى

QaradawiBooks.com

أموالها في أوطانها، فلذلك تضعها في البنوك الأجنبيَّة، الَّتي يحسبون فيها لهم الأمان والضمان.

هذا التوزيع الجائر للثروة يقسم الشعب الواحد إلى طبقات متصارعة، يكره بعضها بعضًا، ويضعف من ولاء الجماهير المسحوقة لوطنهم، فهم يقولون: إنَّ هذا الوطن ليس لنا، وإنَّما هو لفلان وفلان، فلهم منه التمر ولنا النوى، ولهم اللبُّ ولنا القشر، ونحن في همِّهم مدعوون وفي فرحهم منسيون، أو كما قال الشاعر قديمًا:

وَإِذَا تَكُونُ كَرِيهَةٌ أُدْعى لها وإذا يُحَاسُ الحَيْسُ يُدعى جُنْدَبُ[1]!

وعندما قامت الثورات في عدد من البلاد العربيَّة، وأسقطت الملكيَّات التقليديَّة، وما وراءها من احتكارات للأسر المالكة، وأوليائها من الباشوات، توقع النَّاس عهدًا جديدًا من العدالة الاجتماعيَّة، تنعم فيه الطبقات المستضعفة بنصيبها من ثروة بلادها. وفعلًا وزعت بعض الأراضي الزراعيَّة على بعض الفلَّاحين، ولكن سرعان ما ظهرت طبقات طُفَيْليَّة جديدة، حلَّت محل الطبقات الأرستقراطية القديمة، وذهب «الباشوات» القدامى وجاء «باشوات جدد»، ولكن ليس فيهم فضائل الباشوات، ولا أصالة الباشوات. لقد كان الباشوات القدامى ينتفع من ورائهم أُسر كثيرة، وكانت بيوتهم مفتوحة، وأيديهم مبسوطة. أمَّا الباشوات الجدد، الَّتي أطلق النَّاس عليهم اسم «القطط السِّمان» فليس لهم من الباشوات القدماء إلَّا شهوة التملُّك واحتكار الامتيازات.

---

(١) الحَيس: طعام يُصنع من الدقيق والسكر، كالعصيدة ونحوه من المعجَّنات. يريد: أنَّ أخاه جُندبًا له الشهيُّ من الطعام. أما هو فله شدائد الأعمال. والبيت نسب لهنيء بن أحمر الكناني ولغيره. انظر: جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (٤٢٤/١)، نشر دار الفكر، بيروت.

QaradawiBooks.com

الإخفاق في مجال قضايا المرأة

٨ ـ ومن المجـالات الَّتي أخفقنا فيها إلى حدٍّ كبيـر: قضيَّة المرأة، الَّتي ضاعت بين طرفي التفريط والإفراط، أو بيـن جاهليتين، كما قال صديقنا الأستاذ عبد الحليم أبو شـقة رَحِمَهُ اللَّهُ: جاهليَّة القرن الرابع عشر ـ ويعني بهـا: الَّتي ورثت عن عصور الانحطاط في تاريخنا الإسـلامي تقاليد التضييق على المرأة ـ وجاهليَّة القرن العشـرين. ويعني بها: الَّتي نقلت عـن الحضارة الغربيَّـة تقاليد التحلُّـل للمرأة مـن فضائل العفة والإحصان والحياء والاحتشام.

لقد رأينا من ذلـك عجبًا، رأينـا الَّذين يمنعون الخاطـب أنْ يرى مخطوبته مجـرد رؤية، رغم الأمـر النبوي الصريـح للخاطب أنْ يرى مخطوبتـه، فإنَّه أحرى أنْ يُـؤْدَم بينهما[1]. بل نرى منهم من لا يسـمح للعاقـد ـ وهـو زوج شـرعًا ـ أنْ يرى زوجتـه الَّتي عقـد عليها، وهو ما يحدث في كثير من بلاد الخليـج، فلا يراها إلَّا ليلة الزفاف! هذا مع أنَّها تذهب إلى المدرسة أو الجامعة، أو السوق، أو تسافر إلى القاهرة أو بيروت أو لندن أو باريس، ويراها كلُّ النَّاس ما عدا زوجها المسكين!

(١) رواه أحمد (١٨١٥٤)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والترمذي (١٠٨٧)، وحسَّنه، والنسائي (٣٢٣٥)، وابن ماجه (١٨٦٥)، ثلاثتهم في النكاح، عن المغيرة بن شعبة.

QaradawiBooks.com

وفي مقابل هؤلاء: قوم آخرون، يدَعون للخاطب ومخطوبته ـ وهي لا تزال أجنبيَّة منه ـ الحبل على الغارب، يتأبَّط ذراعيها، ويذهب بها إلى حيث يشاء أو تشاء، إلى السينما أو المسرح، أو المتنزهات أو الأندية، أو ما شئت من هذه المسمَّيات.

وهكذا ضاعت المرأة المسلمة بين المتنطِّعين والمتسيِّبين، وكلاهما بعيد عن جادَّة الشرع الحنيف.

لقد رأينا الَّذين يضيقون على المرأة، فلا يسمحون لها أنْ تقود السيَّارة، ولا بأنْ تعمل خارج البيت إلَّا للضرورة، ولا يجيزون لها أنْ يكون لها دور في المشاركة السياسيَّة في شؤون وطنها، وإدارة مجتمعها، فلا تعطي صوتها في الانتخاب، ناهيك بأنْ ترشح نفسها عضوًا في مجلس الشعب أو النواب أو الشورى ـ سمِّه ما تسمِّيه ـ والعجيب أن يتمَّ هذا التضييق باسم الإسلام وأحكام شريعته.

هذا مع أنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ٧١]. وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي محور الواجبات الاجتماعيَّة والسياسيَّة، وهي إحدى الوظائف الأساسيَّة للدولة المسلمة إذا مُكِّنت في الأرض: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج: ٤١]، وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ ...﴾ الآية في مقابل قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]. فإذا كان المنافقات يقمن بدورهن مع المنافقين في إفساد المجتمع، والتلبيس عليه، وتبديل قِيمه الأساسيَّة، حتَّى

QaradawiBooks.com

ليأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، فإنَّ على المؤمنات أنْ يقمن بدورهنَّ المضادِّ والمصحِّح ـ مع المؤمنين ـ فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ونرى القرآن يقول في جلاءٍ وبيان: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ومعنى ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾: أنَّ الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، هو يُكَمِّلها، وهي تُكَمِّله، فلا غنى بأحدهما عن الآخر، على سُنَّة «الزوجيَّة» المبثوثة في الكون كلِّه.

وليست المرأة ضدًّا للرجل، ولا خصمًا له، كما قد فهم من تصور الحضارة الغربيَّة للمرأة.

ثم ذكرت الآية الكريمة بعد قوله: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ أي من الجنسين ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وهذا ما أثبته التاريخ، فقد وجدنا من النساء من هاجر في سبيل الله إلى الحبشة وإلى المدينة، ومن أُوذيت في سبيل الله، حتَّى إنَّ أوَّل شهيد في الإسلام لم يكن رجلًا، وإنَّما امرأة، وهي سُمَيَّة أمُّ عمَّار بن ياسر، استشهدت هي وزوجها ياسر تحت العذاب[1]. ومن قاتلت في

(١) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٧٦٨٩)، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، نشر دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، وابن الأثير في أسد الغابة (١٥٢/٧)، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، نشر دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
قال ابن الأثير (١٥٢/٧): سمية أم عمار بن ياسر هي سمية بنت خياط كانت أمة لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي، وكان ياسر حليفًا لأبي حذيفة، فزوَّجه سمية، فولدت له عمارًا، فأعتقه أبو حذيفة.

QaradawiBooks.com

سبيل الله كما رأينا أم عمارة نُسَيْبَةَ بنت كعب وغيرها في غزوة أحد وفي غيرها[(١)].

لقد رأينا من المسلمين ـ إلى اليوم ـ مَن يمنعون المرأة مِن الصلاة في المساجد، ومن الذهاب إليها لاستماع المحاضرات والدروس، خشية الفتنة! وهذا مخالف لقول رسول الله ﷺ: «**لا تمنعوا إماءَ اللهِ مساجدَ الله**»[(٢)]، ومخالف لما كان عليه نساء الصحابة في عصر النبوَّة من حرصهنَّ على الصلاة في المسجد مع الجماعة، الصلوات الخمس كلها، حتَّى العشاء والفجر، مع أنَّ الطرق لم تكن معبَّدة، ولا مضاءة بأيِّ نوعٍ من المصابيح في ذلك الزمان.

وقد ذهبت إلى الهند وباكستان وغيرهما، وألقيت محاضرات في مساجد شتَّى في مناطق متعددة، فلم أجد امرأة واحدة، تشهد هذه المحاضرات، ولمَّا سألتهم عن سبب ذلك، قالوا: المذهب يمنع ذلك. قلت لهم: إنَّ المرأة قد ذهبت إلى المدرسة وإلى الجامعة، وإلى السوق، وإلى العمل، وسافرت إلى الخارج، فهل بقي المسجد وحده هو المُحرَّم عليها؟

ولماذا تُحرَم المرأة المسلمة من الذهاب إلى بيت ربها، في حين تذهب النصرانيَّة إلى كنيستها، واليهوديَّة إلى بيعتها، والوثنيَّة إلى معبدها؟

إنَّ أئمَّة المذهب الَّذي يستندون إليه لو رأوا هذه المفارقات، لغيَّروا فتواهم، وأجازوا للمرأة أن تشهد المساجد اليوم، لتستفيد منها العلم والمعرفة، وتتفقَّه في دينها، وتتعرَّف على أخواتها المؤمنات.

---

(١) حتى قال الرسول عنها: «لمقامها خير من مقام فلان وفلان». رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٤١٣/٨)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٩٠٠)، ومسلم في الصلاة (٤٤٢)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

ورأينا بعض المسلمين يتشدَّدون، فيحرِّمون على المرأة أنْ ترى رجلًا أو يراها رجل، ويستدلُّون على ذلك بحديث ضعَّفه العلماء، وهو ما روي أنَّ النبي ﷺ قال لاثنتين من أزواجه، وقد أقبل ابن أم مكتوم: «**احتجبا عنه**». فقالتا: إنَّه رجل أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا! فقال: «**أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟**»(١).

كما استدلُّوا بحديث آخر أشد منه ضعفًا بالإجماع، وهو أنَّه عليه الصلاة والسلام سأل ابنته فاطمة رضي الله عنها: أيُّ شيء أصلح للمرأة؟ قالت: ألَّا ترى رجلًا، ولا يراها رجل. فقبَّلها، وقال: «**ذريَّة بعضها من بعض**»(٢).

وكلا الحديثين مناقض للأحاديث الثابتة في «الصحيحين»، الوفيرة في لقاء النساء للرجال، والرجال للنساء في المساجد للصلاة، ولدروس العلم، وفي المناسبات المختلفة في الأعياد والأعراس، والقتال، وغيرها.

وما صحَّ أنَّ الرسول الكريم ﷺ أذن لزوجه عائشة أنْ تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم في المسجد، حتَّى اكتفت وقالت: حسبي ذلك(٣).

---

(١) رواه أحمد (٢٦٥٣٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في اللباس (٤١١٢) وقال عقبه: هذا لأزواج النبي ﷺ خاصة، ألا ترى إلى اعتداد فاطمة بنت قيس عند ابن أم مكتوم، قد قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس: اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنَّه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده. والترمذي في الأدب (٢٧٧٨)، وقال: حسن صحيح. وقال ابن قدامة في المغني (١٠٦/٧): قال أحمد: نبهان روى حديثين عجيبين. يعني هذا الحديث: «أفعمياوان أنتما؟». وحديث: «إذا كان لإحداكن مكاتب، فلتحتجب منه» وكأنه أشار إلى ضعف حديث. وضعَّفه الألباني في مشكاة المصابيح (٣١١٦). عن أم سلمة.

(٢) رواه البزار (٥٢٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٢٠٠): رواه البزار وفيه من لم أعرفه. وضعَّف العراقي سنده في تخريج الإحياء صـ ٤٨٥.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٣٦)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٢)، عن عائشة. ولفظ البخاري: «رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا التي أسأم، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو».

QaradawiBooks.com

وما صحَّ أنَّ الرســول ﷺ أمر فاطمة بنت قيس: أنْ تقضي عدَّتها في بيت ابن أم مكتوم، قال: إنَّه رجل أعمى، تضعين ثيابك عنده ولا يراك[1].

ومن المؤسف حقًّا: أنْ نجد الكثيرين من المسلمين يدَعون الأحاديث الصحــاح المحكمات، ويتشــبَّثون بأحاديث واهيــة أو موضوعة، مثل: «لا تعلموهنَّ الكتابة»[2]، أو «شاورهنَّ وخالفوهنَّ»[3].

ومن المتشــدِّدين في شــأن المرأة: من لا يكتفي بالقول بأنَّ وجهها وكفيها عورة يجب ســترها، بل يزيد على ذلك فيقول: إنَّ صوتها عورة، فلا يجوز لها أنْ تكلِّم رجلًا، ولا يُكَلِّمها رجل.

وهذا أمر لا دليل عليه من كتاب ولا سُــنَّة، وقــد رأينا القرآن يقص علينا من أنباء الأمم والنبيين من قبلنا ما يدلُّ على أنَّ كلام المرأة للرجل وكلام الرجل للمرأة أمر مشروع لا ريب فيه، ما دام في حدود المعروف. كما رأينا كلام موسى للفتاتين وجوابهما له في مدين، ومجيء إحداهما إليه، وحديثها معه، وحديثها عنه أمام أبيها. كما جاء في سورة القصص.

ومثل ذلك كلام زكريا مع مريم، وردها عليه، ولم يكن محرمًا لها، فقد كان زوج خالتها. كما جاءت في سورة آل عمران.

---

(١) رواه مسلم في الطلاق (١٤٨٠)، وأحمد (٢٧٣٢٧)، عن فاطمة بنت قيس.
انظر كتابنا: فتاوى معاصــرة (٢/٢٨٤ ـ ٢٩٣)، فتوى: نظر المرأة إلى الرجل، نشــر المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

(٢) رواه الحاكم في التفســير (٢/٣٩٦)، وصحَّح إسناده، وتعقبه الذهبي: بل موضوع. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٢٧) وقال: وهذا بهذا الإسناد منكر. عن عائشة.

(٣) قال الســخاوي: لم أره مرفوعًا... وقد استشــار النبي ﷺ، أم ســلمة كمــا في قصة صلح الحديبية، وصار دليلًا لجواز استشارة المرأة الفاضلة لفضل أم سلمة ووفور عقلها. المقاصد الحســنة (٥٨٦) تحقيق محمد عثمان الخشــت، نشــر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م. وقال الألباني في الضعيفة (٤٣٠): لا أصل له.

QaradawiBooks.com

وكذلك كلام ملكة سبأ لقومها، وجوابهم لهم، وكلامها مع سليمان وأصحابه.

الأمر المحظور هنا هو «الخضوع بالقول» أي التكسُّر فيه بحيث يحمل الإغراء والفتنة للرجال، وخصوصًا ذوي القلوب المريضة بالشهوة وطغيان الغريزة على العقل، وهو ما ذكره الله تعالى في خطاب «نساء النبي» حين قال: ﴿ **يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا** ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فرغم أنَّ نساء النبيِّ ﷺ عليهن من التغليظ والتشديد ما ليس على غيرهنَّ من النساء، لم يمنعهنَّ القرآن من القول المعروف، وإنَّما منعهنَّ من الخضوع بالقول حتَّى لا يطمع الَّذي في قلبه مرض.

وقد كان أُمَّهات المؤمنين يكلِّمْنَ الصحابة والتابعين من وراء حجاب، ويروين لهم الأحاديث، ويفتين من يسألهن الفتوى في أمور الدِّين، ولم ينكر ذلك عليهنَّ أحد.

ورأينا من المسلمين ـ إلى اليوم ـ من يستحي من ذكر اسم امرأته أو أُمِّه أو أخته، ويرى ذلك عيبًا أو غير لائق. فيقولون عن الزوجة: الجماعة أو أم الأولاد، أو العائلة، أو نحو ذلك. مع أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام كان يذكر أزواجه أمهات المؤمنين بأسمائهن بلا حرج، كما قال للأنصاريَّيْن اللذين مرَّا به وهو معتكف في المسجد، فأسرعا الخُطا، فقال لهما: «**على رِسْلِكُما، إنَّها صفيَّة بنت حُيَيٍّ**» أي زوجه عليه السلام(١).

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٥)، ومسلم في السلام (٢١٧٥)، عن عليِّ بن أبي طالب.

QaradawiBooks.com

ومظاهر التشديد والتضييق على المرأة كثيرة تكفينا منها هذه الإشارات.

وفي مقابل هذا الغلو في الإفراط نجد الغلو في التفريط في شأن المرأة، من جانب المتسيِّبين والمتحلِّلين، الَّذين أرادوا أنْ يقلِّدوا الحضارة الغربيَّة تقليد القردة، وأنْ يسيروا وراء فلسفتها الإباحيَّة شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتَّى لو دخلت جحر ضبٍّ لدخلوه، كما تنبَّأ بذلك الحديث النبوي الصحيح[(١)].

والعرب يضربون «جُحْرَ الضبِّ» مثلًا في الضيق والالتواء وسوء الرائحة، ومع هذا لو دخل الغربيُّون جُحْرَ ضبٍّ، لظهرت «موضة» في بلادنا تسمَّى «موضة جُحْرِ الضبِّ»، لفقد الأمة أصالتها وذاتيتها، وتقليدها لغيرها تقليدًا أعمىٰ.

وأظهر ما يكون ذلك في قضيَّة المرأة: في تفكيرها وفي سلوكها، في ملابسها وزينتها، في لقائها بالرجال الأجانب عنها، في خطوبتها وزواجها، في تمرُّدها على قيود الزوجيَّة، بل تمردها على أنوثتها نفسها.

لقد رأينا المرأة المسلمة تقلِّد المرأة الغربيَّة، فتتمرَّد على فطرتها الَّتي فطرها الله عليها، ولا تريد أنْ تعترف بالفوارق البيولوجية الطبيعيَّة بين الرجل والمرأة، وأنَّ هذا لم يكن عبثًا ولا اعتباطًا، ولكن هذا الخلق لحكمة يعلمها الله. فاستجاب النساء للشيطان الَّذي أمرهن ليُغيِّرن خلق الله تعالى، فرأينا المرأة تلبس لبسة الرجل، كما رأينا من الرجال من

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟!». رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩).

QaradawiBooks.com

يلبس لبسة المرأة، وقد لعن رسولنا الكريم المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء[١].

ورأينا من سمَّاهن الرسول ﷺ في حديثه «**الكاسيات العاريات، المميلات المائلات، رؤوسهنَّ كأسنمة البُخْت المائلة، لا يدخُلْنَ الجنَّة، ولا يَجِدْنَ رِيحَها**»[٢].

وإذا كان في المُضَيِّقين على المرأة من يمنعها من إظهار شيء من بدنها إلَّا عينيها، بل حرَّم بعضهم إظهار عينيها، فلا تكاد ترى في المرأة سوى خيمة سوداء، فقد رأينا في دنيا المُقَلِّدين للغرب، من لا يكتفي بكشف الوجه واليدين للمرأة، بل يضم إلى ذلك الرأس والذراعين، بل العضد والنحر والساقين وما فوق ذلك، ممَّا يسمُّونه «الميني جيب» و«الميكرو جيب» ونحوها. على أنَّ الجزء المكسوَّ من المرأة لا يستر حقًّا، بل يشفُّ ويصف، ويُجسِّم المفاتن، تبعًا لفلسفة اللباس والزينة في الحضارة الغربيَّة المعاصرة: أنَّها ليست للستر، ولكن للإثارة، وأنَّ «الفتنة» الَّتي يحذِّر منها الإسلام هي الهدف الَّذي تسعى إليه المرأة الغربيَّة، والمفتونات بمحاكاتها من بناتنا ونسائنا.

ورأينا من النساء في ديارنا العربيَّة والإسلاميَّة من يرفضن أحكام الشريعة الإسلاميَّة جهرة، ومنهن من لا يعلنَّ ذلك، ولكن يفسِّرنها بأهوائهن تفسيرًا يجعلها تابعة للمفاهيم والتقاليد والأوضاع الغربيَّة.

فمنهنَّ من ترفض الطلاق، ومنهنَّ من ترفض تعدُّد الزوجات، ومنهن من ترفض قوامة الرجل ومسؤوليته عن البيت، ومنهن من ترفض دفع

(١) رواه البخاري في اللباس (٥٨٨٥)، عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١٢٨)، وأحمد (٨٦٦٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

الرجل المهر، ومنهنَّ من ترفض حكم الله في الميراث، وهؤلاء هنَّ أسيرات الفكر الغربي العِلماني، وهنَّ لا شك قلَّة لا وزن لها في مجتمعاتنا، ولكن «الإعلام» يضخِّم دورهن، ويعلي صوتهن، ويوصله إلى أوسع الآفاق.

ولو أنَّ هؤلاء طالبن بتصحيح الفهم، وتصحيح السلوك، والالتزام بوسطية الإسلام في هذه القضايا ورفض الآراء المشددة بغير حق، لرحَّبنا بذلك كلَّ الترحيب، وفتحنا لهذا النهج صدورنا.

وآخر «البدع» الَّتي سمعناها في هذا المجال؛ ما صدر عن مؤتمر عن المرأة، عقد في القاهرة منذ شهر أو شهرين، طالب فيه المؤتمرات والمؤتمرون بإلغاء «عدة المرأة» المطلقة والمتوفى عنها زوجها! والاستغناء عنها بالكشف الطبي.

وهذه جرأة غير معهودة تصدر من بلد الأزهر، فقضيَّة «العدة» ليست قضيَّة من اجتهاد الفقهاء، حتَّى نقول: اجتهدوا لزمانهم، ونجتهد لزمننا، بل هي «قضيَّة قرآنيَّة»، أعني أنَّ القرآن الكريم نصَّ عليها بآيات صريحة في كتابه في سورة الطلاق الكبرى (سورة البقرة) وسورة الطلاق الصغرى، المعروفة باسمها، وأكَّدها إجماع علماء الأمة في جميع المذاهب والمدارس، وهو إجماع أكَّده العمل من الأُمَّة، المستمر أربعة عشر قرنًا، أو تزيد.

والعدة ليست لاستبراء الرحم فحسب، وإلَّا لكفت في ذلك حيضة واحدة، وكفى في ذلك شهر ونحوه للمتوفى عنها زوجها، ولكنَّها سياج للحياة الزوجيَّة السابقة، ولتظل المرأة مرتبطة بالرجل بهذا الخيط، وهذا يوجب لها النفقة منه، وترثه إذا مات في العدة، وحتَّى تكون فرصة كافية للمراجعة، فقد تعود المياه إلى مجاريها.

QaradawiBooks.com

ولكن ممَّا نحمد الله عليه أنَّ هذه الصيحات الناشزة والشاذَّة لم يُقم لها أحد وزنًا في مصر، ولم يظهر لها أي أثر في التعديل الأخير لقانون الأحوال الشخصيَّة، والَّذي أحدث ضجة كبرى، لخروجه في بعض مواده على المعهود في فقه المذاهب الأربعة، مثل إجبار الزوج على قبول الخلع إذا ردَّت المرأة ما دفع إليها، ما دامت كارهة له ولا تطيقه بغضًا. ولكن كان هذا التعديل في إطار اجتهاد معتبر داخل الفقه الإسلامي.

أمَّا الشيء الَّذي يستنكر حقًّا، فهو ما تدور رحاه اليوم في «المغرب»، حول ما سُمِّيَ «خطة العمل الوطنيَّة لإدراج المرأة في التنمية» فهذه الخطة ـ للأسف ـ ليست وطنية، ولا عربيَّة، ولا إسلاميَّة، بل هي غربية عن الأُمَّة وشريعتها، غربية المصدر والهدف والفكرة والروح، وهي تريد أن نسوِّي المرأة بالرجل تمامًا وفي كل شيء، على خلاف قوانين الفطرة الَّتي فطر الله النَّاس عليها، والقضاء على كل أشكال التمييز بين الجنسين.

إنَّ مرجعيَّتَها ليست شريعة الإسلام، بل وثيقة مؤتمر السكان بالقاهرة (١٩٩٤م)، ووثيقة مؤتمر المرأة في بكين (١٩٩٥م)، وهما مرفوضتان عربيًّا وإسلاميًّا في كثير من موادِّهما.

فهي تريد منع تعدُّد الزوجات، وهو ممَّا أحلَّه الله بشروطه للمسلمين، وتريد أنْ تأخذ المرأة المطلَّقة نصف ممتلكات زوجها، كما هو المعمول به عند الغربيِّين، وتريد ألَّا يعتدَّ بالطلاق إلَّا عند القاضي، وتريد إلغاء درجة القوامة الَّتي جعلها الله للرجل، والتسوية بين الذكر والأنثى في الميراث في كل صُوَرِه.

وقد وقف جميع علماء المغرب، ووزارة الأوقاف، والجماعات الإسلاميَّة، وجماهير الشعب المغربي ضدَّ هذه الخطة المستغربة،

QaradawiBooks.com

المفتاتة على عقيدة الأُمَّة وشريعتها وأخلاقياتها وأعرافها، والَّتي وضعتها مجموعة تريد أنْ تفرض على الأُمَّة ما تأباه طبيعتها، وما تنكره شريعتها، وما يرفضه جميع فقهائها، وترفضه كذلك جماهيرها.

وهذا لا يعني إغلاق الباب في وجه التعديلات الَّتي تنطلق من داخل الفقه الإسلامي، وفي إطار شريعته الرحبة، بكلِّ مذاهبها ومشاربها، على أنْ يقوم على ذلك علماء يعتدُّ بهم، غير متعصِّبين لرأي قديم، ولا مستبعدين لفكر حديث.

وهكذا رأينا قضيَّة المرأة ضاعت بين غلوِّ الإفراط وغلوِّ التفريط.

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الإخفاق في التربية الأخلاقيَّة للأُمَّة

٩ ـ وآخر هذه الإخفاقات: هو الإخفاق في التربيــة الأخلاقيَّة للأُمَّة، حتَّى شاع في جنباتها التسـيُّب والانحلال، وأعرضنا عن قيمنا الأصلية، الَّتي جعلت منَّا خير أُمَّة أخرجت للناس، واستبقينا قيمًا ورثناها من عصور الانحراف والانحطاط، مثل التجبر على الضعفاء، والخضوع للأقوياء، أو الأغنياء، والبخل على الفقراء، واسـتباحة المال العام، والاحتقار للمرأة، وإهمال الشأن العام، وشيوع النظرة الجبرية، وغير ذلك من الرذائل.

وأضفنا إلى القِيَم الهابطة الموروثة من عصور التراجع والانحطاط: قِيَمًا أشـد منها هبوطًا، وهي قيم غريبة عنَّا، بل دخلت علينا، وشـابت نسيج حياتنا، ولوَّثت نظام قِيَمنا، وطرائق سـلوكنا، مثل النظرة المادِّيَّة والنفعيَّة والفرديَّة، وشيوع المسكرات والزنى والتحلل من أخلاق العفاف والإحصان وغيرها.

فلا غرو أنْ انتشرت المخدَّرات والسموم البيضاء بين الشباب بواسطة تجارها الَّذين يكسـبون المليارات من وراء ترويجها، وتكسبهم الأموال نفوذًا وسطوة، حتَّى اسـتطاع بعضهم أن يدخل تحت قبة البرلمان، وأن يشتري الكرسي بماله، ويشتري من رجال الحكم من يهيِّئ له ذلك، فكل مسؤول عنده له ثمن، وإن غلا وارتفع في بعض الأشخاص عن بعض.

QaradawiBooks.com

وانتشــرت تجارة الدعارة بين الفتيــات، عن طريــق أولئك الَّذين لا يبالون أن يكوِّنوا ثروتهم على حساب الأخلاق والحرمات، ويدوسون كل القِيَم في سبيل مكاسبهم المادِّيَّة.

وانتشرت هذه «البلطجة» الَّتي تستخدم العنف لتنفيذ ما تريد، وسحق كل من يقف في طريقها، ولم تجد مــن يحاربها كما حوربت جماعات العنف الديني.

ووجدنــا من الجرائم البشــعة ما لم يحــدث مثله قط فــي الأزمنة الماضية، مثل قتل الابن أباه وأمه، وعمته وخالته، وقتل المرأة زوجها، والرجل لزوجته، وغير ذلك بطرق شــنيعة بشــعة، كتقطيع الجثة قِطَعًا قِطَعًا، ولفِّها في أكياس، وإلقائها في صناديــق القمامة، ونحو ذلك ممَّا تشيب له الولدان.

ورأينا جريمة «الاغتصاب» تشيع للأسف في بعض مجتمعاتنا، ولم تكن معروفة فيها من قبل، رأينا كيف تُختَطف المرأة من عرض الطريق، لينهش لحمها الناهشون، ويفتك بعرضها المجرمون.

وحين قلَّدنــا الغرب، أخذنا أســوأ ما عندهم مــن رذائل الانحلال والإباحيَّة، ولم نأخذ أحسن ما عندهم من العلم والتعاون، وحسن الإدارة والتنظيم، والمعرفة بحقوق الآخرين.

لقد شاعت بيننا رذائل الأنانية والاســتبداد والرشوة، واتباع الهوى، ومراءاة الناس، وتزويق الظاهر وإن كان الباطن خرابًا، وحلاوة اللســان وإن كان القلب كالعلقم.

QaradawiBooks.com

وقد قال شوقي:

وِإنَّمــا الأممُ الأخــلاقُ ما بقيت فإن هُمُو ذهبتْ أخلاقهم ذهبوا(١)

وقال:

عَلَى الْأَخْلَاقِ خُطُّوا الْمَجْدَ وَابْنُوا فَلَيْـسَ وَرَاءَهَــا لِلْمَجْـدِ رُكْنُ(٢)

لم نأخذ من فضائل الغرب: حبهــم للعمل، وتفانيهم فيه، وحرصهم على إتقانه. وهذا ســرُّ تفوُّقهم الصناعي، وغزوهم للعالم بمصنوعاتهم. وقد نافسهم في ذلك اليابانيُّون، بل تفوَّقوا عليهم، بخلاف ما نحن عليه، ممَّا لا يخفى على دارس أو مراقب.

لقد حُســبت ســاعات العمل في إحدى دولنا الكبيرة منذ سنوات، فوجد أنَّ متوســط عمل الفرد حوالي نصف ســاعة، فكيف يرقى شعب تضيع أوقاته سُــدًى، وينفق أعمار أبنائه فيما لا يجدي؟ كالذين قال الله فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

إنَّ الأخلاق ليســت ترفًا في الأمم، بل هي ضرورة لنهوضها ورُقِيِّها وتماسكها، أما إذا غاب العنصر الأخلاقي في السلوك، وحكمت المنافع والشهوات، فمعناها: ســيادة «المافيا» بكل أنواعها، وانتشار المخدِّرات والســموم، وتجار الدعارة، وبيع المناصب، وإضاعــة المال العام بغير حســاب، واختراق الجواســيس لحرمــات الأوطان عن طريــق الخمر والجنس والمال، وهنا يكون العيش مرًّا، والحيــاة عبئًا، ويتمنَّى النَّاس

(١) مقدمة الشوقيات لمحمد حسين هيكل (١٢/١)، نشر دار العودة، بيروت.

(٢) انظر: شعراء الوطنية في مصر لعبد الرحمٰن الرافعي صـ ٦٥، نشر دار المعارف، ط ٣.

QaradawiBooks.com

الموت، كما في الحديث الَّذي رواه الترمذي: «**إذا كان أمراؤكم خيارَكم، وأغنياؤكم سمحاءَكم، وأمركم شورى بينكم، فظهرُ الأرضِ خيرٌ لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شـرارَكم، وأغنياؤكم بخلاءَكم، وأمركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خيرٌ لكم من ظهرها**»[1].

وقد وضع الحديث عبارة «**أمركم إلى نسائكم**» مقابل «**أمركم شورى بينكم**» إشارة إلى حكم الاستبداد والتسلط الَّتي تحكم فيه نساء القصور من وراء ستار، كما قالت امرأة العزيز عن يوسف: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]. ولقد هدَّدت ونفَّذت.

ولقد أثبتت تجارب الحياة أنَّ بذور الأخلاق لا يمكن أن تستنبت إلَّا في تربة الدين ومناخ الإيمان. أمَّا حين تسود الفلسـفة المادِّيَّة والنفعية والإباحيَّة، فهيهات أنْ تسود القِيَم والفضائل.

في إحدى الفضائح الماليَّة الشهيرة الَّتي حوكم فيها بعض الوزراء في بريطانيا، كتب القاضي الَّذي حكم في القضيَّة في نهاية أسـباب الحكم هذه العبارات: بدون قانون لا تستقر أُمَّة، وبدون أخلاق لا يحترم قانون، وبدون إيمان لا تسود أخلاق.

* * *

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٦٦) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلَّا من حديث صالح المري، وصالح المري في حديثه غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها، وهو رجل صالح. وضعَّفه الألباني في ضعيف الترمذي (٣٩٣)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

مَوسُوعَةُ الأعمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

تحدِّيات الأُمَّة في القرن الحادي والعشرين

- تحدِّي الهُوِيَّة.
- تحدِّي المرجعيَّة.
- تحدِّي التخلُّف.
- تحدِّي التنمية الشاملة.
- تحدِّي العدالة الاجتماعية.
- تحدِّي المرأة.
- تحدِّي النظم الاستبدادية.
- التحدِّي الإيماني والأخلاقي.
- التحدِّي الصهيوني.
- تحدِّي التجزئة.
- تحدِّي العولمة.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

تحدِّيات الأُمَّة في القرن الحادي والعشرين

على ضوء ما ذكرنا من إخفاقات لأُمَّتنا في مختلف جوانب الحياة، نستطيع أنْ نحدِّد ما يُطلب من أُمَّتِنا، وهي تستقبل هذا القرن الجديد، أو هذا الألـف الثالث للميـلاد؛ إذ لا بدَّ لنـا أنْ نتبع مواضـع الإخفاق، مجتهدين بـكل طاقاتنـا، أن نحوِّل الإخفـاق إلى نجـاح، وهذه هي التحدِّيات الَّتي يجـب أنْ نواجهها بوعي وشـجاعة وبصيرة. وما الَّذي يحول بيننا وبين ذلـك إذا وعينا ما نريد، وهيَّأنا له الوسـائل الملائمة، وجنَّدنا له الطاقات والقدرات، وصمَّمنا علـى تحقيقه بإيمان وإصرار؟ ولا يوجد في الدنيا شـيء مسـتحيل أمـام الإيمان الصـادق، والعزم المصمِّم، والبصيرة النيِّرة. وقد قيل: إذا صدق العزم وضح الطريق، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فينبغي لنا أنْ نستعدَّ لهذا القرن بما ينبغي له إيمانيًّا وأخلاقيًّا وفكريًّا وعمليًّا. وذلك بما يلي:

تحدِّي الهُوِيَّة:

١ ـ أنْ نعلن بوضوح عن هويتنا، ونعرف من نحن؟ ولمن انتماؤنا؟ وهل لنا شخصيَّة مسـتقلَّة أو نحن تابعون لغيرنا؟ وبعبارة أخرى: أنحن رأسٌ في هذا العالم أم ذيل؟

نسخة غير قابلة للطباعة

QaradawiBooks.com

والذي لا ريب فيه: أنَّ لنا هويةً متميِّزة، وشخصيَّةً مستقلَّةً، وانتماءً واضحًا كالشمس في رابعة النهار، فنحن مسلمون قبل كل شيء، وإذا كنا مسلمين، فنحن أصحاب رسالة، وحملة دعوة عالميَّة، دعوة متميزة بربانيتها وإنسانيتها وأخلاقيتها، والأُمَّة مبعوثة بما بُعث به رسولها الَّذي خاطبه ربه فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال عن نفسه: «**إنَّما أنا رحمة مهداة**»(١)، وقال عن رسالته: «**إنَّما بُعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق**»(٢)، وقال موجِّهًا لأُمَّته: «**إنَّما بعُثتم ميسِّرين، ولم تبعثوا معسِّرين**»(٣).

ويجب على الأُمَّة أنْ تعتزَّ بهذه الهوية الَّتي تجعلها في العالم رأسًا لا ذنبًا، وأنْ تعلن ما أعلنه عمر بن الخطاب بصراحة: حين قال: نحن كنا أذلَّ قوم فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّة بغيره أذلَّنا الله(٤).

وإذا أعلنَّا أنَّنا مسلمون، فهذا لا ينفي أنَّنا ـ في هذه المنطقة من الأرض ـ عرب لنا خصوصيتنا.

وأودُّ أنْ أبيِّن هنا بجلاء أنَّه لا تناقض بين الإسلام والعروبة، إلَّا إذا كانت العروبة لا دينيَّة، أو كان الإسلام شعوبيًّا.

---

(١) رواه الحاكم في الإيمان (٣٥/١)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٩٠)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٥٨٥)، والحاكم في الإيمان (٦١/١)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

فالعربيَّة لسان الإسلام، والعروبة وعاؤه، والعرب حملة رسالته الأولون، وكتاب الإسلام عربي، ورسول الإسلام عربي، وأرض العرب هي منطلق الإسلام، وفيها مقدَّساته ومساجده الثلاثة، الَّتي لا تُشد الرحال إلَّا إليها.

فينبغي أن يتفاهم الإسلاميُّون والعروبيُّون الوعاة المخلصون، ويتعاونوا على النهوض بالأُمَّة: مسلموهم ومسيحيُّوهم. المسلم يؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة، والمسيحي يؤمن بالإسلام ثقافة وحضارة. فهذا هو التحدِّي الأول.

تحدِّي المرجعيَّة:

٢ ـ والتحدِّي الثاني: أن نحدِّد ـ بناءً على ذلك ـ مرجعيتنا الأساسيَّة الَّتي نحتكم إليها إذا اختلفنا، ونستقي منها قِيَمنا وأسس حياتنا، وهي بلا ريب: الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا وقِيَمًا وآدابًا ورابطة وثقافة وحضارة متكاملة.

ولا أعني بالإسلام: إسلام عصر من العصور، ولا إسلام مذهب من المذاهب، ولا إسلام بلد من البلدان، ولا إسلام مدرسة من المدارس، إنَّما أعني به «الإسلام الأول» إسلام القرآن والسُّنَّة، الإسلام قبل أن تشوبه الشوائب، وتخالطه البدع، وتفترق فيه الفرق، وتعتسف في تفسيره وفهمه التأويلات.

ولا مناص لنا من أنْ نتبنَّى تيار «الوسطية الإسلاميَّة» وهو التيار المعبِّر عن وسطية الإسلام، ووسطية أُمَّته الَّتي امتنَّ الله بها عليها في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

QaradawiBooks.com

وهو التيار الَّذي يجمع بين الإيمان والعلم، ويوفِّق بين العقل والنقل، ويربط بين الدنيا والآخرة، ويرحِّب بكلِّ جديدٍ نافع، كما يستفيد من كل قديم صالح، ويؤمن بالثبات في الأهداف والكليَّات، وبالمرونة في الوسائل والجزئيَّات، ويوازن بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر. يستلهم الماضي، ويعايش الحاضر، ويستشرف المستقبل. يدعو إلى الرفق في الدعوة، والتيسير في الفتوى، والحوار مع الآخر، والتسامح مع المخالف، والتدرج في التغيير. يدعو إلى الاجتهاد بشروطه، والتجديد بضوابطه، لا يفْرط ولا يفرِّط، ولا يغلو ولا يتنطَّع، بل يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق، ويحيي ولا يميت.

وحين نتخذ الإسلام مرجعًا لحياتنا كلها، نسلم من التناقض والتمزق بين شرق وغرب، ويمين ويسار، ونلتقي على كلمة سواء، هي كلمة الله، وحكم شريعته. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وبذلك نحقِّق ما تنادت به شعوبنا من ضرورة العودة إلى شرع الله، في ضوء اجتهاد عصري قويم، صادر من أهله في محله، ينظر إلى التراث بعين وإلى العصر بأخرى.

وموجب هذا: أنْ نحدِّد رسالتنا في هذا الوجود، فنحن أصحاب رسالة عالميَّة، ونحن مبعوثون للأمم كافة بما بُعث به رسولنا الَّذي خاطبه ربه فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وعلينا ـ نحن أُمَّة الإسلام ـ أن نوصل هذه الرحمة المهداة إلى أهل الأرض كافة، بالبلاغ المبين، وبلسان كل قوم لنُبيِّن لهم، وبلسان هذا العصر لا بلسان عصور سلفت، حتَّى تكون لنا حجة إذا سألنا ربنا يوم القيامة: هل بلَّغتم دعوتي إلى العالمين؟

QaradawiBooks.com

ويجب علينا أن نستخدم كل أدوات العصر وآلياته المتطورة والهائلة؛ من الكلمة المقروءة، والكلمة المسموعة، والكلمة المرئية. وبعبارة أخرى: نستخدم المطبعة الحديثة، والإذاعات الموجهة، والقنوات الفضائيَّة الَّتي تصل إلى أنحاء العالم. ونستخدم هذه الوسيلة الحديثة الجبارة: شبكة «الإنترنت» لدعوة غير المسلمين بلغاتهم المختلفة، ولتعليم المسلمين أيضًا الإسلام الصحيح، بعيدًا عن تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وهذا ما جعلَنا ننشئ موقعنا العالمي الرائد، لخدمة الإسلام على هذه الشبكة، وهو مشروع (Islam On Line) وهو ينطلق من قطر، ولكنَّه مشروع الأُمَّة كلها، وقد سمَّيته: «جهاد العصر»؛ فهو يغنينا عن تجييش الجيوش، وتجنيد الجنود، لتوصيل دعوة الإسلام إلى الأقطار البعيدة.

تحدِّي التخلُّف:

٣ ـ ولا بدَّ لنا من وضع خطة للخروج من سجن التخلُّف إلى باحة التقدُّم، فقد كُنَّا نحن الأُمَّة الأولى والعالم الأوَّل ما يقرب من عشرة قرون، وكانت حضارتنا هي السائدة والمعلِّمة للعالم، فليس التخلُّف من طبعنا ولا طبيعة ديننا، ولا يجوز ألَّا نواكب الثورات الَّتي يشهدها عالمنا وعصرنا: الثورة التكنولوجيَّة، والثورة الإلكترونيَّة، والثورة البيولوجية، والثورة الفضائيَّة، والثورة المعلوماتية، وثورة الاتِّصالات، ونوجِّهها لخدمة القِيَم العليا: الحق والخير والجمال، وكلها تتجسد في رسالة الإسلام.

لا يجوز أنْ نستخدم أدواتنا التقليديَّة في عصر الكمبيوتر، وعصر الإنترنت!

QaradawiBooks.com

وذلك يتطلب منَّا أنْ نغيِّر من أنظمتنا وفلسفتنا التعليمية، الَّتي لا تخرج مثقفين ولا مبتكرين، وأن نوجه عناية خاصَّة إلى النبوغ والإبداع، ونستعيد العقول المهاجرة إلى أوطانها، وأن نلزم أنفسنا بخطة صارمة نقضي فيها على الأُمِّيَّة الَّتي غدت نقطة سوداء في جبيننا، مع أنَّ نبيَّنا الأمي هو أوَّل من حارب الأمية، ودعا إلى تعلُّم القراءة والكتابة. وعلينا أنْ نجنِّد جيوش الطلبة والطالبات في الإجازات الصيفية لتعليم الأميين، وكل من كان دون الخمسين من عمره. حتَّى نقضي على الأمية في عشر سنوات، أو عشرين سنة إن كنَّا صادقين.

ولا بدَّ من تهيئة مناخ صحي للإبداع والابتكار، وذلك بتوفير الكفاية والأمن والحرِّيَّة، حتَّى يشعر النَّاس أنَّهم مطمئنون في حياتهم، غير خائفين على أنفسهم ولا أهليهم ولا حرماتهم، فينطلقوا إلى الأمام في غير قلق ولا وجل؛ فالقلِق لا يحسن الإنتاج، والخائف لا يقدر على الإبداع، والجائع لا يستطيع الابتكار. كما قال الإمام محمَّد بن الحسن لجاريته، وقد أخبرته عن نفاد الدقيق في البيت، وهو في درسه: قاتلك الله، لقد أضعت من رأسي أربعين مسألة من مسائل الفقه كنت أعددتها في نفسي!

فهذا هو التحدِّي الثالث.

تحدِّي التنمية الشاملة:

٤ ـ ومن أهم ما يجب علينا أنْ نهدف إليه، ونحرص عليه، ونخطِّط له: تنمية شاملة لمجتمعاتنا، يكون الإنسان هدفها، والإنسان وسيلتها. ولا سيَّما تنمية اقتصادنا بكل جوانبه وأركانه من زيادة الإنتاج، وترشيد الاستهلاك، وعدالة التوزيع، وسلامة التداول.

QaradawiBooks.com

تنمية تخرج الأُمَّة من التبعيَّة الاقتصاديَّة، وتمكِّنها من الاكتفاء الذاتي بالتكامل فيما بينها، وتجنيد طاقاتها المتنوعة حتَّى تأكل ممَّا تزرع، وتلبس ممَّا تصنع، وتنتج ما تحتاج إليه، ولا تحيا عالةً على غيرها؛ فعار على أُمَّة بلادها زراعيَّة أن تستورد نصف أقواتها أو أكثر، وعيب على أُمَّة «سورة الحديد» ألَّا تتقن صناعة الحديد، وقد حفظت من كتاب ربها: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وعبارة ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ إشارة إلى الصناعات الحربيَّة، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى الصناعات المدنيَّة، وهي كَلٌّ على غيرها في الميدانين: المدني والعسكري معًا.

وإنَّ لدى الأُمَّة من الثروات المذخورة والمنشورة ما يكفيها ويفيض عنها: في سهولها وجبالها، ووديانها وصحاريها، وبحارها وبحيراتها وأنهارها، وموقعها المتميز، فضلًا عن ثرواتها البشريَّة، وعلينا نحن أن نحسن استغلالها، كما نريد نحن، لا كما يريد لنا غيرنا.

تحدِّي العدالة الاجتماعيَّة:

٥ ـ ولا ننسى هنا تحدِّيًا خامسًا: أنْ نحارب المظالم الاجتماعيَّة المتفشية في عالمنا العربي والإسلامي، الَّذي نجد فيه من يملك البلايين ومن لا يملك الملاليم، ورأينا فيه القصور المتخمة بجوار الأكواخ المهدَّمة. وغالبًا ما يكون الثراء الفاحش من حظ الَّذين لا يعملون، والفقر المدقع من نصيب الَّذين يعيشون كادحين ويموتون محرومين.

لا بدَّ من إقامة عدالة اجتماعيَّة نحقِّق بها ما تأمرنا به شريعتنا، يعطى فيها كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، حتَّى يجد كلُّ عاطل عمله الملائم، وكل عامل أجره المناسب، وكل جائع خبزه المشبع، وكل مريض دواءه النَّاجع، وكل عارٍ كساءه السابغ، وكل مبدع جزاءه العادل، وكل محتاج كفايته التامة.

QaradawiBooks.com

عدالة حقيقية تزول بها الاحتكارات والامتيازات الطبقية والأُسَريَّة الَّتي تجعل بعض النَّاس يكسب بلا عمل، ويثري بلا جهد، ويسمن من هزال الآخرين ولحمهم الحي.

إنَّ المال مال الله، والناس مستخلفون فيه، ولا بدَّ أن يكون مال الله لكل عباد الله، ولا يكون دُولة بين الأغنياء منهم، ولا تستأثر به فئة وتحرم منه أخرى، وفي المال حقوق مفروضة، الزكاة أولها وليست آخرها.

وهذا هو ما فرضه الإسلام على أبنائه وحقَّقه في مجتمعه بقوانينه الإلزامية، ووصاياه الترغيبية، ولم يجز الإسلام أنْ يشبع الإنسان وجاره جائع: «**ليس المؤمنُ الَّذي يبيت شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه**»(١).

«**أعطوا الأجير أجره قبل أنْ يَجِفَّ عَرَقُه**»(٢).

«**اتَّقوا الظلم؛ فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة**»(٣).

تحدِّي المرأة:

٦ ـ وهنا تحدٍّ سادس يتمثل في «المرأة» وحقوقها ومشكلاتها؛ إذ لا بدَّ لنا من عناية خاصَّة بالمرأة، فهي نصف المجتمع من ناحية العدد، وربَّما كانت أكثر من ناحية تأثيرها في زوجها وأبنائها، إيجابيًّا وسلبيًّا، ولا يجوز بأيِّ منطق إهمال نصف المجتمع.

---

(١) رواه البزار (٧٤٢٩)، والطبراني (٢٥٩/١)، وحسَّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٧٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٥٤)، وابن حجر في القول المسدَّد (٢١/١)، عن أنس.

(٢) رواه ابن ماجه في الرهن (٢٤٤٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٩٨٠)، عن ابن عمر.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٨)، وأحمد (١٤٤٦١)، عن جابر.

QaradawiBooks.com

لقد أعطيناهـــا حقَّها في أنْ تتعلَّــم، ولكنَّا في كثير مــن مجتمعاتنا حجرنا عليها أنْ تمارس حقَّها السياســي في التصويت والترشيح، والله تعالى قد قال في كتابه: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١]. والرسول ﷺ قال: «**إنَّما النساء شقائق الرجال**»[(١)].

ويجب علينا أنْ نســاعد المرأة على أداء واجبهــا الأول، وهو تدبير البيت، ورعاية الزوج، وتنشئة الجيل، فهذا لا ينازعها فيه أحد، ولا يقوم مقامها أحد.

ونســاعدها على أن تكون زوجــةً صالحة، وأمًّا صالحــة، ومواطنةً صالحة، ولا نحرمها حقَّها في العمل، إذا احتاجت إليه، أو احتاجت إليه أســرتها كما في قصة ابنتي الشيخ الكبير اللتين ســقى لهما موسى. أو احتاج إليــه المجتمع نفســه، كما في معلِّمــة البنات، وطبيبة النســاء، وممرضة النساء ونحوهن.

وعلينــا أنْ نقــاوم نزعتي الإفــراط والتفريط في قضيَّــة المرأة، فلا نغلو فــي التضييــق عليها كما يفعل المشــدِّدون باســم الدين، ولا نبالغ في إطلاق العنان لها، لتفعل ما تشاء باسم الحرِّيَّة، فلا خير في هذا ولا ذاك. إنَّما المطلوب المنهج الوسط، وهو الَّذي يتفق مع منهج الإسلام.

---

(١) رواه أحمد (٢٦١٩٥)، وقال مخرِّجوه: حديث حسن لغيره. وأبو داود (٢٣٦)، والترمذي (١١٣)، كلاهما في الطهارة، وقال الترمذي: وإنما روى هذا الحديث عبد الله بن عمر، عن عبيد الله ابن عمر، وعبد الله ضعَّفه يحيى بن ســعيد مــن قبل حفظه. وحسَّــنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٥)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

إنَّ المـرأة إذا صلحت صلحـت الطفولة، وصلحت الأسـرة، وطابت الحياة(١).

تحدِّي النظم الاستبداديَّة:

٧ ـ يتـوِّج هذا كله نظم سياسـيَّة لا تخاف من شُـعوبها، بل تحبها وتحترمها، وتزيل الفجوة القائمة بينهم وبينها. نظم ترعى حقوق الإنسان وتحترم كرامتـه وحريته، وتصون حرماته، وتحمـي دمه وماله وعرضه. نظم يختار النَّاس فيها حكامهم ولا يُفْرَضون عليهم، ومن حقِّهم ـ بل من واجبهم ـ أن ينصحوا لهم، وأن يراقبوهم ويحاسبوهم، وأن يقولوا لهم: لم؟ ولا، دون أن يُؤذَوا في أنفسهم أو في أهليهم.

وأن يقوِّموا عوجهم إذا اعوجوا، لا بحدِّ السـيف كما قال الأعرابي لعمر رضي الله عنه، بل بسلطة المجالس النيابية، وقرار الأغلبيَّة.

نظم تحقِّـق ما قاله أبو بكر في أوَّل خطبة لـه: ألا إنَّ أقواكم عندي الضعيف حتَّى آخذ الحق له، وأضعفكم عنـدي القوي حتَّى آخذ الحق منه. إن أحسنت فأعينوني وإن أسـأت فقوِّموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم(٢).

وقول عمر: من رأى منكم فـيَّ اعوجاجًا فليقوِّمنـي، رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوب نفسي(٣).

---

(١) راجع كتابنا: مركز المرأة في الحياة الإسلامية، نشـر مكتبة وهبة بالقاهرة، وراجع كذلك: تحرير المرأة في عصر الرسالة للأستاذ عبد الحليم أبو شقة، نشر دار القلم، الكويت.

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة (٦٦١/٢)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط ٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م. وصحَّح ابن كثير إسناده في البداية والنهاية (٨٩/٨ ـ ٩٠)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر، ط ١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني صـ ٢١٧، تحقيق د. أبو اليزيد العجمي، نشر دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

QaradawiBooks.com

وقول عمر بن عبد العزيز: إنَّما أنا واحد منكم، غير أنَّ الله جعلني أثقلكم حملًا[1].

نظم تأخذ من الديمقراطيَّة ضماناتها وأساليبها، وقدرتها على تقليم أظافر الطغاة المستبدين، وبها نحقق روح الشورى والنصيحة والمسؤوليَّة في السياسة الشرعيَّة الإسلاميَّة، ونعلي كلمة الأُمَّة، ونتبع السواد الأعظم، لا كل جبار عنيد، ونقيم عدل الله في القريب والبعيد، والشريف والوضيع، دون محاباةٍ ولا تمييز، وبذلك تقوم شورى العدالة والحرِّيَّة لا ديمقراطيَّة المخالب والأنياب، كما سمَّاها بعض الحكام.

وفي ظل هذا المناخ الصحي يتربى الفرد الحر، والإنسان العزيز، والمؤمن القوي، الَّذي يستطيع أن يقول بملء فيه: لا، إن أراد، ولا يخاف لومة لائم، ولا ظلم ظالم. ومن هؤلاء الأفراد الأقوياء تتكون الأُمَّة القوية.

التحدِّي الإيماني والأخلاقي:

٨ ـ وفوق ذلك كله، بل قبل ذلك كله، لا بدَّ من تعبئة الأُمَّة تعبئة إيمانيَّة وأخلاقيَّة، حتَّى تسمو في الإنسان نفخة الروح على الطين والحمأ المسنون. فالمادِّيَّات وحدها لا تصنع أُمَّة، إنَّما تصنعها معها بل قبلها المعنويات: الأهداف الكبيرة والآمال العريضة، والقِيَم الرفيعة.

لا بدَّ من تهيئة المناخ الثقافي والاجتماعي والنفسي لتربية الإنسان المؤمن المثالي، الَّذي يستعلي على شهوات النفس، وتراب الأرض، وينتصر على المغريات بالشر، والمعوقات على الخير، والمثبطات على الحق.

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٣٤٠/٥)، والدارمي في المقدمة (٤٣٣).

QaradawiBooks.com

وعلى كل الأجهزة والمؤسسـات المؤثرة أنْ تتعاون على هذه الغاية: من المدرسـة والجامعة والمسـجد والبيت والصحيفة والإذاعة والتلفاز والمسرح والسـينما والنادي والمركز الثقافي وغيرها. حتَّى تبني الإيمان بالله ورسالاته والدار الآخرة، وتنمِّي هذا الإيمان حتَّى يثمر العمل الصالح، والخلق الفاضل، ممَّا يشمل عبادة الله وعمارة الأرض ومنفعة الناس.

إنَّ الإيمان ليس ضرورة للفرد للنجاة في الآخـرة من النار، والفوز بالجنَّة فقط، بل هو ضرورة للحياتين معًا. من أراد الآخرة فعليه بالإيمان، ومن أراد الدنيا فعليه بالإيمان، ومن أرادهما معًا فعليه بالإيمان.

إنَّ الإيمان ضرورة للفرد لكي يطمئن ويرقى ويسـعد، وهو ضرورة للمجتمع لكي يتماسك ويتعاون وينهض.

الإيمان ضرورة لتربية «النفس اللوَّامـة»، أو الضمير الحي، وتقوية باعث الدين في مواجهة باعث الهـوى، وتنمية دواعي الخير في مقابل دوافع الشر؛ فالقوانين وحدها لا تكفي لإصلاح البشر.

ثم إنَّ الإيمان يضاعِف قدرة الإنسـان على العمل والبناء، حتَّى إنَّه ليمكنه أن يعمل بعشـرة أضعاف طاقته العادية إذا قوي إيمانه إلى درجة عالية، وصحبته إرادة قوية، عبَّر عنها القرآن بـ «الصبر»، وذلك في قوله تعالـى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وما يقـال في المجـال العسـكري والجهـادي يقال فـي المجال الاقتصادي والعمراني.

QaradawiBooks.com

لن ترقى الأُمَّة باللاهين العابثيـــن، ولا بالمنحلِّين ولا المخمورين، ولا بتجار الأغذية الفاسدة والملوَّثة، وتجار المخدَّرات، إنَّما ترقى الأُمَّة بالأطهار المستقيمين على الجادة، وهؤلاء هم أهل الإيمان.

هذه هي القضايا أو التحدِّيات الَّتي يجب على أمتنا أنْ تســتقبل بها القرن القادم، وعندها من الثروات والطاقات البشريَّة والمادِّيَّة والحضاريَّة والروحيَّة: ما يمكِّنها من القيام بدورها واســتعادة مجدها ومكانتها، إذا توافرت لها القيادة الراشدة، والنية القاصدة، والعزم المصمِّم.

يجب أنْ تدخل هذه القضايا في صميم ثقافتنـــا وتعليمنا وإعلامنا الديني والمدنـــي، وأنْ يتعـــاون عليها البيـــت والمدرســـة، والجامع والجامعة، والنخبة والجمهور، والشعب والحكومة. وقد قيل: إذا صدق العزم وضح الطريق.

وبقيت تحدِّيات أخرى خطيرة، سنفردها بحديثٍ خاص.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تحدِّيات كبرى

هذه التحدِّيات الَّتي ذكرناها، كلها مهم، وكلها ضروري، لحياة الأُمَّة وبقائها واستمرارها في رسالتها الربانيَّة والإنسانيَّة والأخلاقيَّة والحضاريَّة، الَّتي تُميِّزها عن غيرها، وهي مبرِّر وجودها بوصفها أُمَّة لا يغني عنها غيرها.

ولكن هناك تحدِّيات ثلاثة أكثر أهمية وخصوصية، من سائر التحدِّيات، يجب على أهل الفكرِ التركيزُ عليها، وهي:

١ ـ التحدِّي الأوَّل: وهو «التحدِّي الصهيوني» وما يفرضه الآن من تسوية يمليها القوي على الضعيف، وما يريده وراء ذلك من «تطبيع» مع العرب والمسلمين.

٢ ـ والتحدِّي الثاني: وهو «تحدِّي التجزئة والتفكيك» الَّذي تحرص عليه كل القوى المعادية للأُمَّة.

٣ ـ والتحدِّي الثالث: هو «تحدِّي العولمة» الَّتي كثر الحديث عنها اليوم، ويراد فرضها علينا، بما تحمله من معاني الهيمنة الإمبريالية الجديدة.

وسنخص كلًّا من هذه الثلاثة بحديث يناسبه.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

١
التحدِّي الصهيوني

في هذا القرن الجديد الَّذي يطل علينا عن قريب، سنة (٢٠٠١م) نجد أنفسنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ أمام تحدِّيات كبرى، هي ـ يقينًا ـ من بقايا القرن الذاهب. وهي تحدِّيات خليقة بأنْ تستثير فينا الكوامن، وتستنفر منَّا كل القوى، حتَّى نجنِّد لمواجهتها طاقاتنا البشريَّة والمادِّيَّة، والعقليَّة والروحيَّة، ونقف لملاقاتها صفًّا واحدًا، كالبنيان المرصوص، فنحن أمام معركة عريضة الساحة، متنوعة الأسلحة، متعددة الجبهات، ومع عدو بارع التكتيك، ماهر في الكرِّ والفر، مسنود بقوى كبرى، تؤيده بالحق وبالباطل.

وهذه المعركة الكبرى تقتضي منَّا أنْ نوحِّد جبهتنا، ونجمع صفوفنا، فلا مجال هنا للاختلافات الجزئية، ولا للمعارك الجانبية، وحسبنا أن نقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٤].

تشير الآية الكريمة إلى أنَّه عند ملاقاة الأعداء، يجب أن يصطفَّ الجميع متراصين، كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا. والبنيان المرصوص يقتضي التلاصق والتلاحم والاستقامة والانتظام، وهذا ما يوجبه منطق المعركة على من يعيها ويتهيَّأ لخوضها بقوَّة وجدارة.

QaradawiBooks.com

أول التحدِّيات وأكبرها:

إنَّ أوَّل التحدِّيات وأكبرها وأخطرها هو «التحدِّي الصهيوني»، ولا سيَّما في هذه المرحلة الَّتي تمرُّ بها قضيتنا المركزية الأولى ـ نحن العرب والمسلمين ـ قضيَّة أرض الإسراء والمعراج، أرض النبوات، أرض المسجد الأقصى.

مرحلة «التسوية» الَّتي تريدها إسرائيل، وتهدف إلى فرضها على المنطقة تحت عنوان «السلام». ويبدو أنَّ إسرائيل ـ بمعاونة حليفتها الدائمة أمريكا ـ موشكة على النجاح في فرض التسوية الَّتي تنشدها، فقد بدأت بمصر، وثنَّت بمنظمة التحرير، وثلَّثت بالأردن، وها هي تختم بسوريا، ومعها لبنان.

ترى ماذا يكون مصير صرخات «الإسلاميِّين والقوميِّين» في مؤتمراتهم الثلاثة الَّتي عقدت في بيروت، سنوات (١٩٩٤، ١٩٩٧، ٢٠٠٠م)؟ هل ستذهب كما قيل: صيحة في وادٍ، ونفخة في رماد؟!

وما مصير القدس في التسويات الجارية اليوم؟

هل يفرط دعاة التسوية في القدس عاصمة لدولة فلسطين المنشودة؟

أو يقبلون قدسًا أخرى تصنع صناعة على عين إسرائيل، مثل «أبو ديس» لتكون بديلًا للقدس الحقيقية: قدس المسجد الأقصى والمقدسات الإسلاميَّة والمسيحيَّة؟

لقد دعا «المؤتمر القومي الإسلامي» الأخير في بيروت إلى ضرورة عقد مؤتمرٍ خاصٍّ بالقدس، في أقرب وقت ممكن، ليخاطب أُمَّة العرب والإسلام، ويضعها أمام مسؤوليتها الدينيَّة والقوميَّة والتاريخيَّة.

QaradawiBooks.com

والأمر لا شكَّ خطير، ويستوجب الصراخ العالي، كما يصرخ الحارس اليقظ عندما يرى الخطر الداهم، ولا يستطيع مقاومته وحده، وذلك لتنبيه أمتنا الكبرى من غفوتها، وإعادة وعيها إليها، بعد أن نوَّمها المنوِّمون، وخدَّرها المخدِّرون، بأساليب شتَّى. والأُمَّة ـ بفطرتها وإيمانها، وقواها المذخورة في حناياها ـ قادرة على التصدِّي للخطر ومواجهته بصلابة وعناد، إذا وجدت من يعرف كيف يقودها، ويفجِّر طاقاتها المكنونة، ويستخرج قدراتها المخزونة، حين يقودها ويناديها باسم الله، كما ناداها من قبل نور الدين محمود، وصلاح الدين، وسيف الدين قطز.

مقاومة المشروع الصهيوني:

على أنَّه لا يمكن لأُمَّتنا أن تنهض بعبء الآمال والأهداف الكبيرة الَّتي ترنو إليها من التقدُّم والتنمية والبناء الحضاري، ما لم تواجه المشروع الصهيوني المعادي لوجودها، المناقض لبقائها، الممزِّق لوحدة أرضها، ولا يكون هذا بالدعاوى العريضة، ولا بالاستسلام الَّذي يسمونه «السلام»، ولكن بالوعي البصير وبناء الإيمان العميق، وتقوية أمتنا عسكريًّا ومدنيًّا، وتعبئة الأُمَّة كل الأُمَّة للمواجهة النفسيَّة والفكريَّة والحضاريَّة لأحلام إسرائيل الكبرى، الَّتي لم تمت كما يقال، بل لا زالوا يقولون: من الفرات إلى النيل، ومن الأَرْز إلى النخيل.

وإذا كان حكماء صهيون استطاعوا أنْ يحوِّلوا أحلامهم إلى حقائق بالعلم والعمل والجدِّ والدأب، فنحن أولى بذلك منهم، وعندنا من بشائر الدين، ودوافع التاريخ، وحقائق الواقع ما يملؤنا يقينًا وثقةً بالمستقبل.

QaradawiBooks.com

ولا بدَّ لنا أن نحاربهم بمثل ما يحاربوننا به، لا يجوز لنا أن نحذف الدين من مواجهتنا لهم، وهم يجنِّدون جنودهم، ويعبئون قواهم باسم الدين. وقد قيل: لا يفل الحديد إلَّا الحديد.

وحديدنا أقوى وأصلب من حديدهم؛ فإذا واجهونا باليهوديَّة واجهناهم بالإسلام، وإذا حاربونا بالتوراة حاربناهم بالقرآن، وإذا قالوا: الهيكل، قلنا: الأقصى. وإذا قالوا: يوم السبت، قلنا: يوم الجمعة. وإذا حشدوا حشودهم باسم موسى حشدنا حشودنا باسم موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، فنحن أولى بموسى منهم!

إنَّ مقاومة المشروع الصهيوني فريضة وضرورة: فريضة يوجبها الدين بنصوصه وقواعده، وضرورة يحتِّمها الواقع بآلامه وآماله، ضرورة النهوض بالحاضر، والإعداد للمستقبل.

تحدِّي التطبيع:

على أنَّ أخطر ما تحمله المرحلة القادمة للأُمَّة هو ما تهدف إليه إسرائيل، وتحرص عليه، وتسعى بكلِّ قوتها لتحقيقه، بعد التسوية، وهو ما يسمُّونه «التطبيع».

وما معنى «التطبيع»؟ التطبيع أن تجعل الشيء طبيعيًّا، وكيف يكون غير الطبيعي طبيعيًّا؟ كيف يصبح العدو ـ وهو مقيم على عداوته ـ صديقًا؟ وكيف يكون اللصُّ صديقًا لصاحب الدار الَّتي سرقها؟! وهذا ما تريده إسرائيل، تريد دمج الكيان الصهيوني في المنطقة، بإحداث تغيير نفسي وعقلي عند شعوب الأُمَّة، بحيث يتقبَّلون هذا الكيان العدواني الغاصب، ويسلِّمون بوجوده بينهم، دولة يهوديَّة ذات سيادة، والقضاء على

QaradawiBooks.com

مشاعر العداء المتأصل لذلك العدو الكافر الماكر الغادر، الَّذي ذكره القرآن بالتمرُّد على الله تعالى وعلى رسله، ووصفه بالقسوة والغدر والتلوُّن والكذب وغيرها من الرذائل. والتطبيع هو إحدى الآليات الفاعلة، لتحقيق الحلم اليهودي الكبير في المنطقة، الَّتي يراد إلغاء اسمها المعروف «الوطن العربي» أو «الإسلامي» ليصبح اسمها «الشرق الأوسط».

إنَّه ليس «التطبيع» كما يقولون، ولكنَّه «التطويع» أو «التمييع» أو «التركيع». إنَّه محاولة لنزع مخالب الأُمَّة وأنيابها، حتَّى تستسلم لمن يفترسها.

إنَّه محاولة كسر الحواجز كلها: نفسيَّة وثقافيَّة واقتصاديَّة وسياسيَّة واجتماعيَّة وعسكريَّة. لتصول إسرائيل في المنطقة وتجول وتعربد، كما تشاء. ولا تجد أيَّ مقاومةٍ لها، حتَّى المقاومة النفسيَّة الأصيلة والكامنة في صدور أمتنا، لا يريدون لها أن تبقى، لتكون إسرائيل كما قال الشاعر:

خَلَا لَكِ الْجَوُّ فَبِيضِي واصْفِرِي ... ونَقِّرِي مَا شِئْتِ أَنْ تُنَقِّرِي(١)!

وهو ما يجب على أمتنا أنْ ترفضه رفضًا كليًّا، فهو رصيدها الدائم لجهاد المستقبل، وهو الكفيل بأنْ يخرج لنا صلاح الدين من جديد.

آفات التطبيع وأخطاره على الأُمَّة في شتَّى جوانبها:

وعلينا أنْ نُبَيِّن لأُمَّتنا آفات التطبيع وغوائله، ونكشف القناع عن أخطاره المرتقبة على جوانب حياتها كلها، حتَّى تتضح لها الحقائق، ولا يلبِّس عليها المُلَبِّسُون.

---

(١) من شعر طرفة بن العبد. انظر: ديوانه صـ ٤٩، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، نشر دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

QaradawiBooks.com

وسأنقل هنا بتصرُّف أخطار هذا التطبيع من دراسة قديمة لإخوتنا في حركة المقاومة الإسلاميَّة «حماس»؛ ليكون فيها تبصرة للذين لا يعلمون، وتذكرة للذين يعلمون.

١ ـ في المجال الفكري والنفسي:

لقد شكَّل الحاجز النفسي المنبثق من البعد الفكري والعقدي في نظرة الإسلام لطبيعة اليهود سدًّا منيعًا في وجه جميع محاولات التطبيع خلال السنوات الماضية. كما أنَّ الموقف الإسلامي الرافض للتنازل عن أيِّ جزءٍ من الأرض الإسلاميَّة والداعي إلى ضرورة الجهاد من أجل تحريره قد ساهم في تعزيز الحاجز النفسي ضدَّ الاحتلال الصهيوني لفلسطين.

ويهدف العدو الصهيوني من خلال تطبيع علاقاته مع الدول العربيَّة والإسلاميَّة في المجالات المختلفة إلى تحطيم الحاجز النفسي والفكري، وتغيير مفاهيم وأُسُس الصراع بين المسلمين واليهود، وهزِّ الدعامات الفكريَّة والعقائديَّة لذلك الصراع، كما يهدف إلى قتل روح الجهاد والمقاومة والصمود لدى الأُمَّة وهزيمتها وقهرها نفسيًّا، وترويضها لقبول الكيان الصهيوني المحتمل كأمرٍ واقعٍ في المنطقة، ويدخل في هذا المجال العمل على تغيير المناهج التربويَّة والدراسية بهدف غسل أدمغة الجيل القادم وتجهيله بحقيقة الصراع مع العدو اليهودي.

٢ ـ في الجانب السياسي والإعلامي:

ويشمل التطبيع في هذا المجال الاعتراف بما يسمَّى «دولة إسرائيل» وحقها في السيادة والعيش بحدود آمنة، وفتح السفارات، والتمثيل

QaradawiBooks.com

الدبلوماسي، وتبادل السفراء والقناصل، ورفع الأعلام الإسرائيليَّة في العواصم الإسلاميَّة، واللقاءات والزيارات السياسيَّة على مستوى الزعماء والقادة، والعلاقات المتبادلة بين المؤسسات السياسيَّة والبرلمانيَّة والحزبيَّة، وعقد اتفاقيَّات وبروتوكولات التعاون المشترك، كما يشمل أيضًا منع كل ما من شأنه أنْ يفسَّر على أنَّه تحريض، أو إثارة أحقاد في وسائل الإعلام، وفرض رقابة صارمة على كل ما يمكن أن يتضمَّن إساءة لأجواء السلام المزعوم.

وستسمح أجواء التطبيع والتعايش للكيان الصهيوني باستقدام أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود، دون أن يثير ذلك أيَّ احتجاج رسمي في الأوساط العربيَّة والإسلاميَّة الرسمية، كما أنَّها ستلغي الصورة العنصرية القمعية للكيان الصهيوني، وتفتح أمامه الأبواب لاختراق دول العالم الَّتي كان يتحفظ بعضها على إقامة علاقات معه، بسبب حالة العداء القائمة بينه وبين الدول الإسلاميَّة.

٣ ـ في الجانب الاقتصادي:

ويشمل التطبيع الاقتصادي مع الكيان الصهيوني مجموعة من الخطوات الطبيعيَّة في مقدمتها إلغاء المقاطعة الاقتصاديَّة الَّتي ألحقت بالاقتصاد الصهيوني خلال سنوات المقاطعةِ خسائرَ تقدر بحوالي ٤٨ مليار دولار، وَفْق ما أوردته دراسة أعدَّتها غرفة التجارة في الكيان الصهيوني. كما تشمل تلك الخطوات حرِّيَّة انتقال رؤوس الأموال والأيدي العاملة، والرحلات الجوية المباشرة وفتح المجالات الجوية أمام الطيران الصهيوني، وفتح طرق المواصلات والنقل والاتِّصالات «هاتف، فاكس، تلكس» وشبكات الكهرباء المشتركة والتطبيع السياحي.

QaradawiBooks.com

ونظرًا إلى أنَّ الدول العربيَّة والإسلاميَّة في غالبها هي مجتمعات استهلاكية محدودة الإنتاج، فإنَّها لن تكون قادرة باقتصادياتها الضعيفة على مواجهة الاقتصاد الصهيوني القوي والمتفوق بدرجة كبيرة، حيث يبلغ مجمل الإنتاج الصهيوني أكثر من ٦٠ مليار دولار سنويًّا، وهو يزيد على مجموع الناتج القومي لدول الطوق بما فيها مصر.

ولا شكَّ في أنَّ فتح الأسواق أمام الصادرات الصهيونيَّة، ربما يؤدي إلى إغراق الأسواق العربيَّة والإسلاميَّة بالمنتجات الصهيونيَّة المتطورة وذات القوَّة التنافسية العالية، وهو ما قد ينجم عنه تدمير كثير من الصناعات العربيَّة والإسلاميَّة، وتخريب القطاع الزراعي والصناعي، وخصوصًا أنَّ تمكين الكيان الصهيوني من الحصول على النفط والمواد الخام الأخرى من الأسواق العربيَّة بكلفة أقل كثيرًا سيزيد من قدرة منتجاته على المنافسة.

وإذا ما نجح الكيان الصهيوني بدعم أمريكي وقبول إقليمي في تطبيق فكرة «السوق الشرق أوسطية» المطروحة في هذه المرحلة، والَّتي تتضمن إنشاء شركات عملاقة متعددة الجنسيَّة، ومصارف ومؤسسات اقتصاديَّة وتجارية وإعلامية ضخمة، وتحرُّكًا حرًّا للسلع والخدمات ورؤوس الأموال والخبرات والأيدي العاملة دون عوائق أو حواجز، فإنَّ النتائج السلبية الَّتي يمكن أنْ تترتب على الاقتصاد العربي والإسلامي ستكون بالغة الخطورة.

والخلاصة أنَّ العدو الصهيوني يسعى إلى الهيمنة الاقتصاديَّة على الأُمَّة وإلحاقها بعجلة اقتصاده عن طريق إقامة مشاريع اقتصاديَّة كبيرة تتيح له التحكم في المصالح الحيوية للأُمَّة في المياه والكهرباء والنفط

QaradawiBooks.com

والمواصلات إلخ، كما يسعى العدو إلى إدارة اقتصاديَّة في المنطقة يكون دور العرب والمسلمين فيها دور الأيدي العاملة، ومصدر الطاقة والثروة، والسوق الاستهلاكية الضخمة.

٤ ـ في المجال العسكري:

بحجة انتهاء حالة الحرب وضرورة الاهتمام بقضايا التنمية، سيعمد الكيان الصهيوني إلى الضغط على الدول العربيَّة والإسلاميَّة من أجل تقليص أعداد جيوشها، وتخفيض برامجها العسكريَّة في التسلح، وستلعب الولايات المتحدة دورًا في الضغط من أجل الحدِّ من تصدير الأسلحة وخاصة المتطورة، إلى دول المنطقة، باستثناء الكيان الصهيوني. كما يسعى العدو ـ تحت ستار التسوية والتطبيع ـ إلى منع الخيار النووي الإسلامي ما استطاع، وتجريد الأُمَّة من أسلحتها الإستراتيجيَّة والفاعلة، وكما أقدم في الماضي على ضرب القوَّة النوويَّة العراقية، فإنَّه يخطط لضرب القوَّة النوويَّة الباكستانيَّة والتحريض على جهود إيران في هذا المجال.

٥ ـ في المجال الأمني:

قامت أجهزة الأمن المصريَّة خلال السنوات الماضية الَّتي أعقبت توقيع اتفاقية كامب ديفيد باكتشاف العديد من شبكات التجسس والتخريب وتهريب الأسلحة، وبالتالي فإنَّ الكيان الصهيوني يسعى عبر برامج التطبيع والتعايش إلى اختراق المنطقة أمنيًا، عبر زرع شبكات التجسس من العملاء، واختراق أجهزة المخابرات العربيَّة الإسلاميَّة، وتنفيذ الأعمال التخريبية بهدف زعزعة الأمن والاستقرار في الدول

QaradawiBooks.com

العربيَّة والإسلاميَّة، بل وسيعمل جاهدًا، وبضغط من أمريكا، على التعاون بين أجهزته الأمنية والأجهزة الأمنية العربيَّة والإسلاميَّة.

٦ ـ في الجانب التربوي:

يسعى الكيان الصهيوني في الجانب التربوي إلى تغيير المناهج التربويَّة في الدول الإسلاميَّة بما يتلاءم ومعطيات المرحلة الجديدة، بحجة تعميق مفاهيم السلام والتعايش، وإزالة مشاعر الحقد والكراهية بين الشعب اليهودي والشعوب الإسلاميَّة. وسيتطلَّب ذلك إدخال تعديلات وتغييرات كثيرة جوهريَّة على المناهج التربويَّة كما حصل في مصر سواء كان ذلك في المواد الدينيَّة والتاريخيَّة الَّتي تتحدَّث عن طبيعة اليهود وتاريخهم الأسود في ممارساتهم مع الرسول ﷺ والآيات القرآنيَّة الَّتي تتحدَّث عن عداوتهم، أو كان ذلك في الجغرافيا وتعديل الخرائط بما ينسجم مع الاعتراف بالكيان الصهيوني.

٧ ـ في الجانب الأخلاقي:

سيعمل الكيان الصهيوني في هذا المجال على نقل الأخلاقيات الفاسدة من فجور وزنى وشذوذ وتعاطي مخدِّرات، وشرب خمور إلى المنطقة، وسيعمل على توسيع انتشارها عبر شبكات الإفساد الأخلاقي الَّتي ستدخل تحت ستار الوفود السياحية، وسيكون بإمكانها التجول بكل حرِّيَّة في المنطقة. كما سيعمد إلى نشر الأمراض الجنسيَّة كما حدث في مصر، حيث اكتشف العديد من الشبكات مهمَّتها نشر الأمراض في أوساط الشباب المصري.

QaradawiBooks.com

وقد لوحظ أنَّ انتشـــار مرض الإيدز والمخدِّرات قد تزايد بشكل واضح في المجتمع المصري نتيجة الجهود الصهيونيَّة، برغم مقاومة الشعب المصري للتطبيع، ولا شك أنَّ التدمير الأخلاقي للأُمَّة وإشاعة جو الانحلال والفساد فيها هو إضعاف لها وإشغالها عن دورها الريادي والحضاري، كما أنَّــه يمثِّل ضربًا لأحد عناصر قوتها الرئيســية وهو الشباب، ممَّا يضعف قدرتها على المقاومة والصمود في وجه الهجمة الصهيونيَّة.

٨ ـ الأخطار على الحركات الإسلاميَّة:

فالكيان الصهيوني الَّذي يروج بعد ســقوط الخطر الشــيوعي لدور اســتراتيجي جديد له في المنطقة يتمثل في التصــدي لخطر الأصولية الإسلاميَّة على مســتوى الحركات الإسلاميَّة والدول (إيران والسودان)، ويدرك أنَّ الحركات الإســلاميَّة ســتكون الطرف الأقوى والأقدر على مواجهة خططه التوسيعية في اختراق المنطقة. ولذلك يسعى إلى استغلال أجواء التطبيع والتقارب مع الأنظمة الرســمية مــن أجل تحريضها ضد الحركات الإســلاميَّة والإيقاع بين الطرفين وإنهاك واستنزاف طاقاتهما. بل إنَّ أصابع اليهود تمتد للمشــاركة في التآمر علــى كل قضايا الجهاد والتحرر الإسلاميَّة وضرب مشاريع النهوض الإسلاميَّة في الأُمَّة.

٩ ـ الأخطار على الأمن القومي العربي والإسلامي:

إنَّ سياسة العدو الإستراتيجيَّة في المنطقة تقوم على إضعاف الجبهة العربيَّة والإســلاميَّة المواجهة وتشتيتها وشــرذمتها، وسيحرص الكيان الصهيوني خلال هذه المرحلة والمرحلــة القادمة على إيجاد المزيد من أسباب الفرقة وتمزيق الصف العربي والإسلامي للحيلولة دون حدوث

QaradawiBooks.com

أي شكل من أشكال التقارب أو التنسيق والتضامن العربي والإسلامي. وسيعمل عبر اتفاقيات التسوية والتطبيع على جعل علاقات تحالف الدول العربيَّة والإسلاميَّة معه مقدَّمة على أيِّ علاقة أخرى بين الدول العربيَّة والإسلاميَّة نفسها، كما سيؤدي إقامة الأحلاف الأمنية والاقتصاديَّة على مستوى المنطقة، وإضعاف القدرات العسكريَّة والاقتصاديَّة العربيَّة، مقابل تعاظم القوَّة العسكريَّة الصهيونيَّة، إلى تهديد الأمن القومي العربي والإسلامي الَّذي يعاني حالة من التصدع والانهيار. ولا شك أنَّ مخططات العدو الصهيوني في إثارة النعرات الطائفيَّة والإقليميَّة والعرقيَّة في الأُمَّة، سيهدِّد وحدتها ونسيجها الاجتماعي، وسيؤدي إلى عدم استقرارها وإلى تمزيقها إلى كيانات وكانتونات صغيرة متناحرة مرتبطة بالكيان الصهيوني ومستقوية به في مواجهة جاراتها، ممَّا يعني في النهاية تدميرًا لوحدة الأُمَّة ولأمنها واستقرارها وعناصر قوتها.

لونان خطران من التطبيع:

ونريد أنْ نركِّز هنا على لونين من «التطبيع» تهدف إليهما دولة الكيان الصهيوني، وترمي بكل ثقلها ومَن وراءها لفرضهما على المنطقة، وهما: التطبيع الاقتصادي، والتطبيع الثقافي. ولا بدَّ لنا أنْ نفرد كلًّا منهما بحديث، ولا سيَّما التطبيع الثقافي، الَّذي يهدِّد هوية الأُمَّة، وشخصيتها الدينيَّة والتاريخيَّة.

التطبيع الاقتصادي:

التطبيع الأوَّل الَّذي تحرص عليه إسرائيل وحليفتها أمريكا في المنطقة العربيَّة والإسلاميَّة: «التطبيع الاقتصادي»، بمعنى فتح الأبواب والنوافذ بيننا وبين إسرائيل، وإزالة كل الحواجز، لتبيع لنا وتشتري

QaradawiBooks.com

منَّـــا، بلا عُقد ولا تأثم، وإلغـــاء «المقاطعة» المفروضة ضد إســـرائيل وبضائع إسرائيل.

ومن العجائب أنَّ بعضهم يزعم أنَّ هذا الانفتاح الاقتصادي سيصب في صالحنا في النهاية، وكيـــف وهم الَّذين ينتجون ويصدرون ويبيعون، ونحن السوق المفتوحة لسلعهم، ما ينفع منها وما يضر؟

والواقع أنَّ المقاطعة ســـلاح بقـــي في أيدينا، لا يجـــوز لنا أن نتخلَّى عنه. وقد عرف النَّاس من قديم هذا الســـلاح واســـتخدموه، وكان له أثره الفعال، كما رأينا ذلك في السيرة النبويَّة، حيث قاطعت قريش الرسول ﷺ وأصحابه ومن تعصَّب لهم من بني هاشم وبني المطلب، فكانوا لا يبيعون لهم ولا يشـــترون منهم، ولا يُزوِّجونهم ولا يتزوَّجون منهم. وقد اســـتمرت هذه المقاطعة ثلاث ســـنوات، قاسى المسلمون فيها ما قاسوا من الجوع وقسوة العيش، حتَّى أكلوا أوراق الشجر.

والواجب شـــرعًا على المســـلمين أنْ يظلوا مقاطعيـــن لاقتصاديات إسرائيل، لأنَّ كلَّ درهم أو دينار أو ريال أو جنيه يصل إليهم، يتحول في النهاية إلـــى رصاصة في صدر واحـــد من أبناء فلســـطين، بل في صدر العرب أجمعين.

ويجب علينا ـ نحن العرب ـ أن ندعو المســـلمين في كلِّ مكان، في داخل العالم الإسلامي، وخارج العالم الإسلامي ـ حيث تعيش الأقليات والجاليـــات الإســـلاميَّة المختلفة ـ إلى مقاطعـــة البضائع الإســـرائيليَّة والســـياحة الإســـرائيليَّة، وأن نكثِّف الدعاية لذلك بين المسلمين، وهم اليوم حوالي المليار وثلث المليار في العالم.

QaradawiBooks.com

التطبيع الثقافي وكيف نواجهه؟

والتطبيع الآخر الَّذي تحرص عليه دولة الكيان الصهيوني، هو «التطبيع الثقافي».

ومعنى التطبيع الثقافي: أنْ نغيِّر منطقنا الثقافي، ونتنازل عن مسلماتنا الثقافيَّة، واتجاهاتنا الفكريَّة، وهويتنا الثقافيَّة المعبِّرة عن ذاتيتنا، وخصوصية حضارته، وتميُّز رسالتنا. نتنازل عن هذا كله لنندمج باختيارنا في الكيان الجديد الَّذي يراد لنا أن ندخل في نسيجه ونفنى فيه، فلا نبقى عربًا ولا مسلمين، بل ـ كما يقولون ـ شرق أوسطيين، لا فرق بيننا وبين بني صهيون.

هذا هو التطبيع الثقافي الَّذي يراد منَّا أن نقبله اليوم، ويروِّج له أناس من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، ويتهموننا ـ نحن المعارضين لهذا التطبيع المشؤوم ـ أنَّنا جماعة منغلقون متعصبون، نعيش في الماضي، وأنَّهم وحدهم دعاة التسامح والانفتاح، وما هم إلَّا دعاة التدمير والاجتياح لشخصيَّة الأُمَّة وخصائصها.

ولا بدَّ لي هنا أنْ أنقل في مواجهة التطبيع الثقافي، ومنهج هذه المواجهة: فقرة مطولة، ممَّا كتبه الدكتور مجدي حمَّاد[1] في ورقته الخصبة الَّتي قدمها للمؤتمر القومي الإسلامي الثالث في بيروت يناير (٢٠٠٠م) يقول حفظه الله: «وفي ظروف عالم اليوم، من الملاحظ أنَّ مسلسل التطبيع الثقافي يفتح هوية العرب على تحدٍّ جديد، وبخاصَّة حينما يكون هذا التطبيع ـ على نحو ما هو عليه ـ فقرة في نصٍّ إمبريالي

(١) معاون المدير العام لمركز دراسات الوحدة العربية، وهو قومي يفيض حماسةً وإخلاصًا، وأراه أقرب ما يكون إلى الإسلاميين.

QaradawiBooks.com

صهيوني جديد يتلى على المنطقة وأهلها الشرعيين، عنوانه: «نظام الشرق الأوسـط»، وهو النظام الَّذي يتطلع إلى انتزاع رابطة العروبة من نسيج العلاقة بين أهل المنطقة وأقطارها الأصيلة، فيعيد تركيبها على مقتضى كيمياء ثقافيَّة واجتماعيَّة جديدة.

وفضلًا عمَّا تقدم، لا بدَّ من تأكيد أنَّ التطبيع الثقافي، بمعناه الواسع، ليس حالًا تنتظر، بل هو حال تعيشـها الأُمَّة منذ عقـود، بل هي الحال الَّتي مهدت للكثير من مظاهر الانهيار والتردِّي الَّتي تعيشها الأُمَّة.

ومعنى ذلك أنَّ المطلوب هنـا هو مواجهة حـال التطبيع الثقافي، لا مجرد منع حدوثه؛ لأنَّه بالفعل يشـن حملته الضارية على الأُمَّة منذ زمن. وهذا التطبيع سيجعل العدو الصهيوني بين ظهرانينا.

ويمكن القول: إنَّ أوَّل المؤشرات على مدى فعالية الدور الَّذي تقوم به الثقافة العربيَّة والإسلاميَّة في مواجهة التطبيع، إنَّما يتمثل في «مقاومة» هذه الشـحنة الضبابية الخانقة الَّتي تلقيها كلمة التطبيع في وجدان كل عربي ومسلم. ومن المهم أنَّ ذلك يحدث بصفة تلقائية، ودون أي جهد من حاكـم أو مثقف. ومن الثابت أنَّ مصدر الأسـى العميق لهذه الآلية ـ آلية التطبيـع ورد الفعل التلقائي في مواجهته ـ أنَّها آلية تعتمد القسـر والتطويـع، ولا تقوم علـى الإرادة الحرة المسـتقلَّة، الَّتـي تبحث عن مصلحتها وترعى غايتها، بما ينسـجم مع كل ما هو طبيعي في وجدانها وضميرها ونظم القِيَم والمعتقدات الَّتي تعتنقها.

أهميَّة التجربة المصريَّة في رفض التطبيع:

ولا شـكَّ في أنَّ الخبرة المصريَّة في هذا السـياق لها أهميتها من وجوه عدة، فضلًا عن فضل السـبق! فمـن المعلوم أنَّ «إسـرائيل» قد

QaradawiBooks.com

اشترطت أن يكون التطبيع في مقابل الانسحاب من سيناء - بمقتضى بنود المعاهدة - كضمان لاستمرارية «عمليَّة السلام» حتَّى بعد إتمام عمليَّة الانسحاب، وعلى نحو يكفل رابطًا لا ينفصم بين البلدين. ومعنى ذلك في النهاية هو أن يحل «وجود مدني إسرائيلي» في مصر كلها محل «الوجود الإسرائيلي العسكري» في سيناء. بل ذهبت المعاهدة إلى أبعد من ذلك، ونصَّتْ على أنْ يتم التطبيع الكامل للعلاقات بين البلدين قبل انسحاب «إسرائيل» الكامل من سيناء. لقد تمَّ تبادل السفراء، وأبرمت اتفاقيات متعددة تتعلق بالسياحة والتجارة والبترول إلخ، و«إسرائيل» ما زالت تحتل خمسي سيناء. وشرط التطبيع في نظر «إسرائيل» هو الضمان ألَّا يتكرر في (١٩٨٢م) ما وقع في (١٩٥٧م)، وهو انسحابها من سيناء دون أن تكون لها «قبضة مَّا» على مصر تحول دون نشوب حرب أخرى بين البلدين. وهذا مؤشر في حدِّ ذاته على مدى يقينها من وجودها غير الطبيعي.

غير أنَّ هذه «المعادلة» - أي التطبيع مقابل الجلاء - إنَّما تقوم على التباس، هو أنَّ العمليتين ليستا بالعمليتين المتماثلتين حتَّى يجري تبادل بينهما. ذلك أنَّ الجلاء عمليَّة عسكريَّة تخضع لأوامر تصدرها الحكومة الإسرائيليَّة للجيش الإسرائيلي. أما التطبيع، فليس هو بالعمليَّة الَّتي تخضع للاتفاقيات الَّتي تبرمها الحكومة المصريَّة فقط، بل يتوقف أيضًا على استعداد الشعب المصري لتطبيع العلاقات مع «إسرائيل»، وهو أمر لا تمتلك الحكومة المصريَّة السيطرة عليه.

ومن المؤكد أنَّ القيادات المصريَّة قد حرصت كلَّ الحرص على ألَّا تترك لحكومة «إسرائيل» أي مبرر لمؤاخذتها على عدم احترام التزاماتها

QaradawiBooks.com

حيال التطبيع. ولكنَّ الحكومة الإسرائيليَّة لا بدَّ أنْ تكون قد لاحظت أنَّ جماهير شـعب مصر، وبخاصـة طلائعه المثقفة، قد وقفـت من عمليَّة التطبيع موقفًا أشـدَّ عداء، وأنَّ هذا العداء للتطبيع لم يكن من الممكن نسـبته فقط إلى عناصر يمكن اتهامها بالتطرف والتعصب، على أرضية دينيَّة أو غير دينيَّة.

فإنَّ افتراض أنْ تصبـح «العلاقات بين المصريين والإسـرائيليين» علاقات «طبيعيَّة» إنَّما يقتضي كافتراض سـابق عليـه ألَّا تتعارض هذه العلاقات مـع الأوضـاع «الطبيعيَّـة» للمصريين، أي ألَّا تطـرح قضيَّة «التطبيع» مع «إسـرائيل» قضيَّة «هوية» بالنسـبة لشعب مصر. وبالفعل، فكيف يمكن للمصريين ـ المصريين كافـة، وليس فقط «المتطرفين» أو «المتعصبين» بينهم ـ أن يقبلوا كأمر «طبيعي» عقيدة حكومة «إسـرائيل» المعلنة بأنَّ فلسـطين العربيَّة لا وجود لها قط، أو قانون الكنيست بضم القدس العربيَّة واعتبار المدينة المقدَّسـة بشـقيها عاصمة أبدية للدولة اليهوديَّة، أو تكرار قول «القيادات الإسـرائيليَّة» بأنَّ من حق «إسرائيل» القيام بغارات تأديبية ضـدَّ أية دولة عربيَّة، وبلوغ عدوان إسـرائيل حدَّ ما فعلته ضد العراق ولبنان وتونس، فضلًا عن الشعب الفلسطيني؟

لقد أصبح «تطبيع» العلاقات مع «إسـرائيل»، في نظر شـعب مصر ـ بمختلف فئاتـه واتجاهاته، ومن مختلف المنطلقات السياسـيَّة ـ أمرًا يتعارض مع كل ما هـو «طبيعي» فـي نظره هو. أصبحـت مقتضيات «السلام» نقيض ما تقتضيه «هوية» شـعب مصر. ونَجَمَ ذلك من صميم بنية «السلام المنفرد». لقد فرض هذا «السلام المنفرد» على شعب مصر أنْ يعادي أعداء «إسـرائيل». وأعداء «إسـرائيل» هم عوالم ينتمي إليها

QaradawiBooks.com

شعب مصر ـ انتماءً طبيعيًّا أصيلًا ـ تاريخًا وتراثًا ونضالًا وهوية: العالم العربي والعالم الإسلامي وعالم عدم الانحياز.

ومن هنا أصبحت المعادلة الَّتي تقوم عليها «المعاهدة المصريَّة الإسرائيليَّة» تكشف عن أوجه خلل في صميم بنيتها الأساسيَّة: الحكومة المصريَّة تؤكد أنَّها تنجز شروط التطبيع على الوجه الَّذي حددته المعاهدة، وعلى «إسرائيل» أن تنجز في المقابل التزاماتها بالانسحاب من سيناء. وحكومة «إسرائيل» تتهم الحكومة المصريَّة بأنَّ شعب مصر لا يلبِّي التطبيع، أو ربما كان عدم تلبية شعب مصر للتطبيع تدبيرًا حكوميًّا خبيثًا يجري بمقتضاه تعطيل التطبيع عمدًا، وقصره على تدابير رسمية وشكليَّة فقط، في انتظار جلاء إسرائيل من سيناء، وحتَّى تعود مصر مرَّة أخرى بعد ذلك إلى الحظيرة العربيَّة. وهو «منطق» جدير بالتأمل، في ضوء ما حدث في الواقع.

وقد لاحظ قادة الكيان الصهيوني أنَّ مقاومة الشعب المصري للتطبيع بدأت في الثقافة أولًا لتنتقل إلى بقية مجالات الحياة، فكانت لجنة الدفاع عن الثقافة القوميَّة هي أولى هيئات المجتمع المصري الَّتي تصدَّت لمشروع التطبيع، وهبَّ بعدها الشعب المصري بكل فئاته إلى إغلاق المنافذ أمام التغلغل الصهيوني، فيما حرصت الدولة نفسها على التزام منهج «السلام البارد» مع الكيان الصهيوني، منطلقةً من أنَّ المعاهدة تفرض على مصر إقامة «علاقات» مع هذا الكيان، ولكنَّها لا تفرض عليها طبيعة هذه العلاقات ونوعيتها ومدى حرارتها. ولعل هذا الموقف المصري الشعبي والرسمي هو في صلب المأزق المتعاظم الَّذي تعيشه العلاقات المصريَّة الإسرائيليَّة خصوصًا، وحتَّى المصريَّة الأمريكيَّة

QaradawiBooks.com

عمومًا، وهو ناجم بالإضافة إلى المنــاخ الثقافي والوطني الموجود في مصر، عن شــعور متعاظم لــدى جماعــات النخبة المصريَّة الرســمية والأهلية، فضلًا عن كل الاعتبارات المبدئية القوميَّة والوطنيَّة، بأنَّ الفكرة الَّتي يقوم عليها «نظام الشرق الأوسط» وما يداخلها من مشاريع «تطبيع» تسعى إلى تهميش مصر وعزلها عن دورها الإقليمي والعربي.

كيف نواجه التطبيع والتدمير الثقافي؟

إنَّ تعطيل التطبيع في مصر هو انتصار للثقافة، ولقد كان من الطبيعي (بعد أن تســكت المدافع) أن تندفع الثقافة لكي تحمل الراية من أجل التصدِّي لعمليَّة التطبيــع. فكيف نواجه التطبيع؟ وفــي الحقيقة: كيف نواجه مشــروع التدمير والتفكيك الثقافي الَّذي ينطــوي عليه التطبيع، وبخاصة في ظل الاختلال الجسيم في موازين القوى والهجمة الإمبريالية الصهيونيَّة على المنطقة بهدف إخضاعها... مرَّة واحدة وإلى الأبد؟!

***

١ ـ المواريث الثقافيَّة للأمة هي السد المنيع:

من ناحية أولى: تتمثل نقطة البداية فــي الإقرار بأنَّ هذا التيار الآتي ـ التطبيع ـ ليس بإعصار، لكون الأُمَّة تقبع على تراث ثقافي عميق، ممَّا يجعلها أُمَّة غير سهلة الانصياع للبدائل الثقافيَّة الدخيلة، إنَّها أُمَّة ترتكن إلى تراث ثقافي غيــر هش، بل قادر على النهــوض بتأملاتها الحاضرة وآفاقها المســتقبلية، ولهذا فــإنَّ ثقافتها المتراكمة تنطــوي على عناصر مقاومة وضوابط تتحسَّس الطارئ والدخيل؛ ولهذا فقد وُصِفت بأنَّها أُمَّة مواجهة، إذا ابتُلِيت بأقسى محن التاريخ، وهبَّت عليها أعتى العواصف،

QaradawiBooks.com

وتعرضت لسلسلة من محاولات الطمس والمحو، ومع ذلك فقد زادتها تلك المحن قوَّة شكيمة وصلابة إرادة. ويبقى وجدان الأُمَّة ووعيها الحقيقي هو أهم مقياس لكل سياسة، والسد العالي المنيع أمام التطبيع.

لقد نجح العرب، في أكثر من موقع وعبر أكثر من مرحلة تاريخيَّة، في تجربة مقاومة محاولات تدمير المقومات الثقافيَّة الذاتية لهويتهم، لا مجال لتعدادها جميعًا، سواء جرت هذه المحاولات مع حملات الغزاة الفرنجة والتتار، أو مع مشروع «التتريك»[1] الَّذي حاول أصحابه استغلال الولاء العربي للرابطة الإسلاميَّة المتمثلة بالدولة العثمانيَّة لضرب الثقافة العربيَّة واللغة العربيَّة.

٢ ـ ثقافة المواجهة لا الانغلاق:

ومن ناحية ثانية: من المؤكد أنَّ مقاومة هذا النوع من المشاريع، ولا سيَّما الثقافيَّة منها، لا يجوز أن تنحصر بالتحذير السلبي من مخاطرها، أو بالإجراءات الشكليَّة الَّتي لا تتصل بها، بل يجب أن ترتقي إلى مسؤوليَّة تطوير ثقافتنا القوميَّة إلى المستوى الَّذي نجابه به، لا مشروع «التطبيع» الصهيوني فحسب، بل نجابه أيضًا كلَّ التحدِّيات الثقافيَّة والحضاريَّة الَّتي يحملها لنا العصر.

وبهذا المعنى فإنَّ المقاومة الثقافيَّة للتطبيع لا تكون أبدًا من مدخل الانغلاق حيث ننكفئ على ذواتنا، ونتآكل من داخلنا، ونغرق في صراعات الفرق والملل والاجتهادات الضيقة. وأساس ذلك أنَّ الانغلاق

(١) يشير إلى حملة التتريك التي قام بها جماعة الاتحاد والترقي في تركيا، وهي جماعة علمانية لا دينية معادية للعرب وللإسلام وللخلافة ذاتها.

QaradawiBooks.com

الثقافي هو الوجه الآخر للتفكيك الثقافي، وبالتالي يصبُّ في خدمة مشروع التطبيع الثقافي مهما تعارضت نيات أصحابه ورغباتهم مع هذا المشروع. ولذلك تحتاج هذه المقاومة إلى «ثقافة المواجهة».

٣ ـ ثقافة الوحدة مع التنوع:

ومن ناحية ثالثة: إذا كان عنوان مشروع التطبيع الثقافي هو التفكيك الثقافي لوحدة الأُمَّة وتدمير مقومات تماسكها، فإنَّ العنوان المضاد يبقى هو «ثقافة الوحدة»، أي الثقافة الحريصة على تنمية عناصر الوحدة في مجتمعنا، وتعزيز أواصر التماسك بين أبناء أمتنا. وبهذا المعنى تصبح «ثقافة الفتنة» واحدة من أبرز العناصر الممهِّدة للتطبيع الثقافي، بل هي ركن رئيسي من أركان ثقافة التطبيع؛ فالتطبيع مع أعداء الأُمَّة لا يستقيم إلَّا بالفتنة داخل صفوف الأُمَّة ذاتها. غير أنَّ الحديث عن ثقافة الوحدة يجب ألَّا يوقعنا بالخطأ المقابل، أي في «ثقافة القهر» باسم الانسجام، وثقافة الصهر باسم التماسك، وثقافة هيمنة اللون الواحد باسم الوحدة؛ فداخل الثقافة العربيَّة والإسلاميَّة الواسعة هناك تنوُّع يمكن أن يتحوَّل إلى مصدر ثراء لتلك الثقافة. ومن ثمَّ فإنَّ «ثقافة الوحدة مع التنوع» تتطلب أوَّل ما تتطلب تكريس قيم القبول للآخر داخل المجتمع الواحد، واحترام الآخر، والسعي للتكامل معه في إطار هذه الوحدة.

٤ ـ ثقافة التفاعل والتجميع لا التفريق:

ومن ناحية رابعة: إنَّ من أبرز معالم الحضارة العربيَّة والإسلاميَّة أنَّها حصيلة تفاعل حضارات سبقتها، وشعوب اجتمعت في ظلها، وأديان موجودة في أرضها؛ فمن أبرز المساهمين فيها مسلمون غير عرب، وعرب غير مسلمين، على نحو جعلها تمثل تطورًا نوعيًّا مميزًا في

QaradawiBooks.com

الحضارة الإنسانيَّة بأسرها. ولا شكَّ أنَّ هذه السـمة المتميزة للحضارة العربيَّة والإسلاميَّة الجامعة، لم تعطها دورًا كبيرًا على مستوى الماضي فحسب، بل تعطيها كذلك دورًا مهمًّا على مستوى المستقبل. فمن أبرز الدعوات الثقافيَّة الَّتي تسعى الحركة الصهيونيَّة لإنجاحها على المستوى العالمي، وخصوصًا الأمريكي: هو الترويج لفكـرة الحضارة اليهوديَّة ـ المسـيحيَّة، باعتبار اليهوديَّة والمسـيحيَّة حضارة واحدة، تعتمدان على كتاب واحد، وبهذه الحضارة يتحوَّل يهود العالم من مجموعة قليلة العدد إلى قوَّة كبرى بعد انضواء المسيحيِّين تحت لوائهم.

وفي ظل هذه الدعوة تكاثرت كنائس جديدة في الولايات المتحدة، وفي ظلهـا تمارس الضغـوط المتصاعدة على الفاتيـكان لفك ارتباطه بالقدس، وتمسكه بهويتها العربيَّة. إنَّ هذه الدعوة، ومن دون شك، هي أخطر الأسلحة الَّتي تسـعى الحركة الصهيونيَّة إلى استخدامها لمواجهة الحق العربي، بل لتكريس هيمنتها علـى المنطقة، وهي دعوة لا يمكن مواجهتهـا إلَّا عبر دعـوة حضاريَّة بالحجـم ذاته، تركز علـى التلاقي التاريخي للمسـيحية والإسـلام، وحتَّى اليهوديَّة، فـي صنع الحضارة العربيَّة عبر العقود الماضية.

وفي ظل هذا التكامل يصبح ممكنًا قيـام عنصر توحيد بين العرب وغير العـرب من المسـلمين المقيمين علـى الأرض العربيَّة، وبفضله تتمكن المسيحيَّة المشرقية العربيَّة من أنْ تلعب دورها التاريخي كجسر حضـاري بين المسـيحيَّة والإسـلام، بين الشـرق والغـرب، فعروبة المسـيحيِّين المشـرقيِّين تعطيهم صلة خاصَّة بالإسـلام، ومسيحيتهم تمنحهم القدرة على التخاطب الفاعل مع الغرب المسيحي.

QaradawiBooks.com

إنَّ بلورة هذا المشـروع الحضاري العربـي الجامع تمثل ـ كذلك ـ أحد أبرز بنود جدول أعمال مقاومة التطبيع الثقافي؛ لأنَّ هذا المشـروع يضرب مصدرًا رئيسيًّا من مصادر قوته على المستوى العالمي.

٥ ـ مواجهة الاختراق الثقافي:

ومن ناحية خامسة: لأنَّ الثقافة هي مسؤوليَّة فكرية وعلميَّة وأخلاقيَّة، فإنَّ المثقف العربي مسؤول بشكل خاص في مواجهة مشروع التفكيك الثقافي العربي. والعقل الصهيوني بات يدرك أنَّه إذا كانت الثقافة العربيَّة صعبة الاختراق، لعراقة جذورهـا ومتانة مقوماتها، فـإنَّ مهمة اختراق بعض المثقفين العرب تبقى أسهل، وبالتالي يمكن استخدامهم كأحصنة طروادة لاختراق الحصون الثقافيَّة العربيَّة.

واختـراق المثقفيـن العرب لن يأخـذ بالضرورة شـكل الاختراق الصهيوني المباشـر، فمثل هذا الاختراق يكشـف أصحابـه ويقلِّل من تأثيرهـم، بل هو يأخذ شـكل الترويج لقِيَم ومفاهيـم وعلاقات تصبُّ مباشـرة في تدمير المناعة الثقافيَّة العربيَّة؛ فالترويج لأنماط الاستهلاك الغربي مثلًا، ونشـر ثقافة اليأس في الأُمَّة، والإيحاء بوجود تناقض بين متطلبات العصر والانتماء القومي والرُّوحي (أي الإسـلامي)، والادِّعاء بأنْ لا تقـدُّم اقتصاديًّا واجتماعيًّا إلَّا في ظل اقتصاد السـوق وشـروطه العالميَّـة، وتقديم الخصوصيـات الثقافيَّة للجماعات المتعايشـة داخل مجتمع واحد علـى أنَّها عناصر تناقض وتناحـر لا يمكن الجمع بينها، والسـقوط باسـم الواقعية في منطق الترويـج لكل مشـاريع الأعداء، والاستهتار بسلم القِيَم الأخلاقيَّة السائدة، والتفريط بكل شروط المناعة الاجتماعيَّـة وتصويرهـا مـن مخلفات الماضـي، والالتحـاق بركب

QaradawiBooks.com

السـلاطين، وافتعال الخصومات، وتغليب الثانـوي من الخلافات على الجوهري من الصراعات، إلخ، كلها أشكال متعددة لنمط واحد، يعتمد على نوع من المثقفين الَّذين سقطوا فريسة المشروع الاستعماري الثقافي، فكانوا عن وعي أو غير وعي جنودًا في خدمة التطبيع.

٦ ـ الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة للجماهير:

ومن ناحية سادسة، يجب ألَّا تُنسينا ثقافة النخبة التركيز على الثقافة العربيَّة الإسـلاميَّة الشـعبيَّة؛ لأنَّ هذه الثقافة الأخيرة تمثـل عمقًا بعيد الأغوار راسخ الجذور، ولأنَّ المواطن العربي الإسلامي العادي هو مادة العروبة والإسـلام، والعجلـة والفَلك الَّـذي تدور عليه أمتنـا نهوضًا وانكفاءً، وحقيقة الأمر أنَّ سوسـيولوجيا اليوم هي سياسة الغد على حدِّ تعبير بوتول. وعلى هذا فالتحصين السوسيولوجي الثقافي لأمتنا يتم من خلال العضِّ بالنواجذ على منطقنا الشـعبي وموضع حماسنا واعتزازنا، بأدبنا وفولكلورنا، بموقعنا في الحياة، بموسـوعتنا الثقافيَّة، بجمالياتنا وأخلاقياتنا، بحبِّنا الرفيع للحيـاة، فهذه الديناميات هي القلاع الحصينة والروافع الناهضة. وحقيقة الأمر، أنَّنا إذا تمسَّـكنا بهذا المنهج استطعنا القول إنَّ التطبيع مجرد أسطورة؛ ذلك أنَّ العامَّة يملكون سلاحين: سلاح الإيمان وسلاح اللسان. وبهذين السلاحين أخفق التطبيع الصليبي(١).

* * *

(١) بحث الثقافة العربية والإسـلامية في مواجهة التطبيع للدكتور مجدي حماد مدير الجامعة اللبنانية الدولية، المقدم للمؤتمر القومي الإسلامي الثالث المنعقد في بيروت، ١٤ ـ ١٦ شوال ١٤٢٠هـ ـ ٢١ ـ ٢٣ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

٢

تحدِّي التجزئة والتفكيك

وإذا كان التحــدِّي الصهيوني هو أبرز ما يواجــه أُمَّتنا اليوم، والَّذي أمكنه أن يفرض عليها تسـوية ظالمة، تعترف للظالم الغاصب بشــرعيَّة ما اغتصبه، ويتنازل فيها صاحب الدار عن حقوقه الأساسـيَّة له. ثمَّ لم يكفه ذلك حتَّى أراد أن «يطبِّع» العلاقة بين اللصِّ وصاحب الدار، حتَّى ينسى ما وقع عليه من ظلم واغتصاب وتشريد، ويعيش الغاصب الباغي ناعم العين، مستريح البال، لا يخشــى مقاومة، ولا يخاف انتفاضة من غرمائه المظلومين المقهورين.

فهناك تحدٍّ آخر لا يقل عــن هذا التحدِّي في عظم خطره وبعد أثره، وهو «تحدِّي التجزئة والتفكيك» الَّذي أصاب الأُمَّة منذ أُلغيت الخلافة، وهُدمت قلعتها، وباتت الأُمَّة ممزَّقة الشمل، مشتَّتة القوى.

إنَّنا بهذه التجزئة أصبحنا كيانات صغيرة، لا ترهب عدوًّا، ولا تنصر صديقًا في عصر تتكتل فيه القوى ذات المصالح المشــتركة بعضها مع بعض، ليســتطيعوا أن ينافســوا الكتل الأخــرى، وأن يحقِّقوا طموحهم ويثبتوا وجودهم.

إنَّ النَّاس بجوارنا يقوون بالتوحيد، ونحن بجوارهم نضعف بالتفرُّق. فمن المعلوم أنَّ الاتِّحاد يقوي القلة، كما أنَّ التفرق يضعف الكثرة.

QaradawiBooks.com

ولا غرو أنْ تداعت علينا الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، مع كثرة عددنا (مليار وثلث من البشر) ولكنَّها كثرة كغثاء السيل، كما صوَّرها الحديث الشريف[١].

إنَّ هذا الهمَّ الكبير لا بدَّ أن يكون في مقدمة همومنا؛ لما له من ضرورة وأهمية خاصَّة، إنَّه هو هَمُّ الوحدة، الَّتي أمرنا الله بها في كتابه ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ونهانا عن التفرُّق والتنازع، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وحذَّرنا رسوله فقال: «**لا تختلفوا، فإنَّ من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»[٢]. كما حذَّر من «**فساد ذات البين**» واعتبرها «**الحالقة**» لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين[٣].

وقد علَّمتنا الحياة أنَّ الاتِّحاد يقوِّي الضعفاء، وأنَّ التفرُّق يضعف الأقوياء، وأنَّ اليد وحدها لا تصفِّق، وأنَّ الَّذي أضاع الدولة الإسلاميَّة الكبرى الَّتي يسمِّيها بعضهم «الإمبراطورية الإسلاميَّة»، إنَّما هي نزعات الفرقة والانفصال. وأنَّ أمتنا لم تحقِّق نصرًا كبيرًا على أعدائها إلَّا بفضل الوحدة، ولو كانت جزئية مثل وحدة مصر والشام في عهد صلاح الدين الأيوبي.

(١) سبق تخريجه صـ٦٠.

(٢) رواه البخاري في الخصومات (٢٤١٠)، عن ابن مسعود.

(٣) رواه أحمد (١٤١٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦١/٣): حسن لغيره. عن الزبير بن العوام.

QaradawiBooks.com

فلا حياة لهذه الأُمَّة وهي ممزقة الأوصال والأشلاء، كأنَّها أمم شتَّى، وجماعــات متباينة، بل متجافية، بل متعادية، بــل متقاتلة أحيانًا، يذوق بعضها بأس بعض. ونحن في عالم يتقارب بعضــه مع بعض، ويتكتل بعضه مع بعض، كما لمسنا ذلك في الاتِّحاد الأوربي، ناسيًا الخلافات القديمة، والحروب القديمة، العِرقية والدينيَّة والإقليميَّة، ولكنَّ المصلحة المشــتركة دعتهم أن ينســوا أو يتناســوا تلك الصراعات، وتلك الأيام الســود، وأن يقيموا ســوقًا مشــتركة واتحادًا مشــتركًا، وأن يتلاحموا ويتضامنوا فيما بينهم في الثقافة وفي السياسة، حتَّى لتكاد تذوب بينهم كل الفروق. ونحن وحدنا لا زلنا نعاني من التفرقة والتشرذم.

ونحن لا نستطيع أن نواجه المشروع الصهيوني إلَّا متَّحدين.

ولا نستطيع أنْ نحقِّق التنمية المنشودة إلَّا متَّحدين.

ولا نستطيع أنْ ندخل عصر التكنولوجيا المتطورة إلَّا متَّحدين.

ولا نســتطيع أنْ نواجــه التكتلات الكبــرى في العالــم بالكيانات الصغيرة الَّتي نشــهدها في عالمنا. لا بدَّ من العمــل لتجميع قوى الأُمَّة كلها، على اختلاف أديانها من مســلمين ومسيحيِّين، واختلاف مذاهبها مع سُــنِّيِّين وشــيعيِّين، واختلاف توجهاتها من عروبيِّين وإســلاميِّن، واختــلاف طبقاتها من أغنيــاء وفقــراء، وملاك ومســتأجرين، وحكام ومحكومين؛ فالمعركة توجب أنْ تضم الجميع، ولا يتخلف أحد.

وعلينا أن نقــوِّي «التضامن» الموجود حاليًــا، والمتمثل في «منظمة المؤتمر الإسلامي»، الَّتي تمثل الوجود السياسي للأمة الإسلاميَّة؛ حتَّى تصبح أكثر فعالية وتأثيرًا، وأنْ نرتقي بها ـ بالتدريج ـ حتَّى نصل إلى نوع

QaradawiBooks.com

من الوحدة الفيدرالية، أو الكونفيدرالية أو غيرها، يُمكِّننا من تحقيق آمالنا وطموحاتنا، ويعيننا على استرداد حقوقنا، ويجعل لنا وزنًا في نظر غيرنا.

إنَّ هذا السعي إلى الوحدة المنشودة فريضة وضرورة، فريضة بمنطق الدين، وضرورة في منطق الواقع.

لقد بات الدم المسلم أرخص دم في العالم، وغدا المسلمون يُذبحون ويُقتلون في أقطار شتَّى، ولا أحد يحمى لهم، أو يصرخ من أجلهم، إنَّما توجد أصوات خافتة هنا وهناك تحتج على ما يجري لأبناء الإسلام، والصوت الخافت لا يوقظ نائمًا، ولا يحرك ساكنًا، بل هو صوت من شأنه أنْ ينيم اليقظان، بدل أنَّه يُنبِّه النعسان.

أمسينا طوال السنوات الماضية لا نكاد نسمع نشرة أخبار في الإذاعة، أو نشاهدها في التلفاز، إلَّا كانت أخبار المسلمين ومآسيهم هي الَّتي تسود النشرات. فمن نكبة فلسطين إلى داهية أفغانستان، إلى بلوى الصومال، إلى محنة الفلبين، إلى مأساة كشمير، إلى كارثة البوسنة والهرسك، إلى مصيبة كوسوفو، إلى طامة الشيشان، إلى غيرها وغيرها من نوائب البلدان، وعاديات الزمان، حتَّى أصبحنا ينطبق علينا قول أبي الطيِّب:

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى ... فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ ... تَكَسَّرَتْ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ[1]

ولكن أقول هنا: إنَّ من الشرِّ ما يأتي بالخير، وربَّ ضارة نافعة، فقد لاحظت أنَّ هذه المحن والشدائد الَّتي تنزل بالمسلمين، والمعارك الَّتي تفرض عليهم، رغمًا عنهم، والمظالم الَّتي تحل بساحتهم من قبل القوى

(١) ديوان المتنبي صـ ٢٦٥.

QaradawiBooks.com

المعادية لهم من الصهيونيين والصليبيِّين والوثنيين، وأعداء الملة والأُمَّة، توقظ الروح الإسلاميَّة، والشعور بالأخوة الإسلاميَّة، وتُري من يريد أن يرى: حقيقة الأُمَّة الإسلاميَّة الواحدة ماثلة للعيان، حية في وجدان الشعوب.

لقد رأيت ذلك في أزمة أفغانستان، وأزمة كشمير المسلمة، وأزمة البوسنة والهرسك، وأزمة كوسوفو، وأزمة الشيشان، رأيت غليان المسلمين في كل مكان من أرض الإسلام من أجل إخوانهم المستضعفين في الأرض، من الرجال والنساء والولدان، الَّذين لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلًا. رأيت تَحَرُّق الشباب للذهاب إلى ميادين الجهاد لمشاركة هؤلاء الأبطال في جهادهم، رأيت الجمعيات الخيرية والإغاثية الإسلاميَّة تستنجد النَّاس لنجدة إخوانهم، ورأيت الجماهير المسلمة تتجاوب معهم، حتَّى إنَّ المرأة تتبرَّع بحُليِّها وخاتم زوجها! رأيت خطباء المساجد في صلوات الجمع، وفي قنوت الوتر في صلاة التراويح في رمضان، يدعون لإخوانهم المجاهدين بالنصر المبين، ولإخوانهم المُشَرَّدين والمأسورين، أنْ يفكَّ الله بقوته أسرهم، ويجبر برحمته كسرهم، ويتولَّ بعنايته أمرهم، وفي دعائهم على اليهود والصربيِّين والهندوس، وأخيرًا على الروس الطغاة المتجبِّرين: أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وأن يُنكِّس أعلامهم، ويزلزل أقدامهم، وأنْ يهلكهم كما أهلك ثمود بالطاغية، وكما أهلك عادًا بريحٍ صرصرٍ عاتية، وأن ينزل عليهم بأسه الَّذي لا يردُّ عن القوم المجرمين.

ورأيت تجاوب المسلمين في كل مكان مع قضيَّة أرض الإسراء والمعراج، وأرض المسجد الأقصى واستعدادهم لبذل الأنفس والنفائس من أجلها.

QaradawiBooks.com

نعم، نحن نرى الحكومات في البلاد الإسلاميَّة ـ إلَّا ما رحم ربك ـ غائبة عن هذه المحن الإسلاميَّة، ولا تكاد تحسُّ بها؛ لأنَّها نائمة أو منوَّمة، وحتَّى إذا أحسَّت بها فهو إحساس واهن، لا يحتل بؤرة الشعور، ولا يثير كوامن الوجدان، بل هو هامش الشعور. وحتَّى لو استيقظ هذا الشعور، وأدركته الصحوة الفطرية في بعض الأوقات، فإنَّ مراعاة المصالح الداخليَّة، والخضوع للضغوط الخارجيَّة، كفيلان أنْ يُلجِئا هذا الشعور إلى أنْ يختبئ فلا يظهر، وأنْ يصمت فلا ينطق، بل أنْ يموت فلا يحيا.

لكن عزاءنا عن غياب هذه الحكومات النائمة أو المنوَّمة، الَّتي تقودها المصالح القريبة، لا الأهداف البعيدة، وتؤثر إرضاء قوى البشر الضاغطة، على إرضاء الله تعالى والولاء له ولأُمَّته، عزاءنا عن نوم هذه الحكومات: هو يقظة شعوبنا المسلمة ووعيها بقضاياها، وخصوصًا عندما تحتد الأزمات وتحلولك الظلمات، وتتوالى الضربات الموجعات. هنا يصحو وجدان الأُمَّة، وتتحرَّك مشاعرها، وتستثار كوامنها ولواعجها، لتثبت وجودها لمن ينكره، وأنَّه حقيقة لا وهم، وأنَّها لم تزل حيَّة لم تمت، باقية لم تُزَل من خارطة الوجود.

ضرورة تجميع كلِّ القوى للمواجهة والتصدِّي:

إنَّ موقفنا نحن العرب والمسلمين ـ ونحن نستقبل القرن الحادي والعشرين ـ يقتضي منَّا أنْ نعمل بجدٍّ وصدق، على تجميع كل القوى لمواجهة أعدائنا: الفقر والجهل والمرض والرذيلة والتعصب والحقد والبغضاء والتبعيَّة في الداخل، والصهيونيَّة والصليبيَّة والشيوعيَّة والاستكبار في الخارج.

QaradawiBooks.com

تجميع كلِّ المواطنين مسلمين ومسيحيِّين:

لا بدَّ من تجميع القوى الوطنيَّة والقوميَّة كلها، بغض النظر عن اختلافاتها الدينيَّة، فإنْ لم يجمعنا الدين تجمعنا «الدار»، فالفقه الإسلامي يعتبر غير المسلمين في أوطاننا من «أهل الدار»، أي أهل دار الإسلام، وهي كلمة نترجم عنها الآن باسم «المواطنة».

على أنَّنا من الناحية الدينيَّة الخالصة ـ يجمعنا معنى «الكتابية»، أي أنَّنا وهم من «أهل الكتاب» الَّذين اعتبرهم الإسلام صنفًا متميِّزًا من غير المسلمين، وناداهم في كتابه بهذا الوصف الموحي بالإيناس والتقريب: «يا أهل الكتاب»، وشرع لهم من الأحكام ما يميِّزهم عن غيرهم، فأجاز مؤاكلتهم ومصاهرتهم، كما قال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

والمسيحيُّون منهم لهم منزلة أخص من عموم أهل الكتاب، باعتبارهم أقرب مودة للمسلمين كجماعة، بخلاف اليهود، فهم مع المشركين أشد النَّاس عداوة للذين آمنوا، كما نبَّه على ذلك القرآن.

والعرب من هؤلاء لهم منزلة أكثر خصوصية، بسبب أنَّ العربيَّة ـ وهي لغة القرآن ـ لغتهم، والثقافة الإسلاميَّة ـ بصفة عامَّة ـ ثقافتهم، فهم لذلك يُعَدُّون مسلمين بالثقافة والحضارة، لا بالعقيدة والملة. وهذا ما اعترف به كثير من كبار المسيحيِّين في العالم العربي.

بل منهم من دعا إلى تطبيق الشريعة الإسلاميَّة على المسلمين وغير المسلمين، بحرارة وحماسة فاقت حماسة كثير من المسلمين أنفسهم، مثل الزعيم المسيحي السوري المعروف فارس الخوري. كما

QaradawiBooks.com

بيَّنت ذلك في كتابي «بينات الحل الإسلامي» ورسـالتي «الأقليات الدينيَّة والحل الإسلامي».

وعلى كلِّ حال، عندمـا يكون الخطر محدقًا بالوطـن كله، وبالأُمَّة جميعًا، بحرمـات الأُمَّة ومقدَّسـاتها، لا بدَّ أن يقـف الجميع مقاومين ومرابطين ومدافعين عن الحمى، المسلمون والمسيحيُّون سواء، ومن هنا عُقد المؤتمر المشـترك بين الفئتين من أجل قضيَّة القدس الشريف في بيروت سنة (١٩٩٦م) تحت عنوان: «مسلمون ومسـيحيُّون معًا من أجل القدس»، وقد شـاركت في هذا المؤتمر، وشـارك فيـه كثير من أعلام المسلمين، ومن آباء المسيحيِّين من مختلف مذاهبهم وكنائسهم.

ولا يفوتنا أنْ نشـير هنا إلى المحاولات الخبيثة والمشـبوهة الَّتي تسعى سعيها في تفتيت الصف، وتمزيق الوحدة، وإثارة الفتنة بين أبناء الشـعب الواحد، الَّتي قـد يُخدع بها، ويقـع في شـباكها الطيبون من المواطنين.

ولا بدَّ لنا من العمل بكل قوَّة لسـدِّ الأبواب الَّتـي تهُب منها رياح الفتنة الطائفيَّة السموم.

وذلك ببيان الموقف الإسـلامي الصحيح من الأقليات المسـيحيَّة الموجودة بالفعـل في أكثر من بلـد عربي وإسـلامي، وتفنيد الأقوال المتشنِّجة الَّتي يقولها بعض المسـلمين المعاصرين، مستندين إلى آراء قديمة في بعض الكتب.

لا بدَّ من تبنٍّ واضح وحاسـم للاجتهادات المعاصرة المتسـامحة والمنفتحة على الآخرين، ومن ذلك قضيَّة «الجزية» الَّتي هي عبارة عن

QaradawiBooks.com

«ضريبة رؤوس» على غير المسلمين، في مقابل فريضتين دينيتين على المسلمين، هما: الزكاة والجهاد.

فإذا قبلوا أن يدفعوا ضريبة مساوية للزكاة، وقبلوا أن يُجنَّدوا للدفاع عن الوطن والأُمَّة كالمسلمين، فواجب على أولي الأمر أن يمكِّنوهم من ذلك.

وقد طلب بنو تغلب ـ وكانوا من نصارى العرب ـ من أمير المؤمنين عمر أن يسقط عنهم اسم «الجزية» ويأخذ في مقابلها ما شاء باسم «الصدقة»؛ لأنَّهم يأنفون من كلمة «جزية»، فقبل منهم عمر، وقال قولته: هؤلاء القوم حمقى، رضوا المعنى وأبوا الاسم(١).

وقد شرحنا هذا المعنى في أكثر من كتاب لنا، بما لا يدع مجالًا للبس أو إيهام.

ويجب علينا أن نقف في وجه الغلاة ومشعلي النار من الفريقين: المسلمين وغير المسلمين، من الحمقى الَّذين لا يدرون ماذا يفعلون، ومن المتعصبين الَّذين أعماهم التعصب وأصمهم، فهم لا يبصرون ولا يسمعون.

وعلينا كذلك أنْ نفوِّت الفرصة على الَّذين يصبُّون الزيت على النار من خارج البلاد، بدعوى أنَّهم يريدون حماية الأقليات من الاضطهاد الديني، وهم يجعلون من الحبة قبة، ومن الفأر جملًا، فإذا لم يجدوا فأرًا ولا حبة لتضخيمها، اختلقوا من عند أنفسهم أوهامًا، ليتخذوا منها ذريعة للتدخل في شؤوننا ومقدراتنا، كما حاولوا ذلك في مصر وفي السودان وفي غيرهما.

(١) انظر: المغني لابن قدامة (٣٤٤/٩)، نشر مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والعقلاء والحكماء من المسيحيِّين يرفضون هذه التدخلات بوضوح، ويرون أنَّه لا يمكن أنْ يحميهم شيء غير سماحة الإسلام، وشريعة الإسلام، وتفاهم عناصر الأُمَّة فيما بينهم دون سماحٍ للغرباء أن يتدخلوا فيعكروا الصفو، ويسيئوا إلى العلاقات، ويقطعوا حبال المودة، فهم كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وعلى أهل الحكمة من المسلمين والمسيحيِّين توعية الجميع بأنَّ «الطائفيَّة» ليست من «التديُّن» في شيء؛ فالتديُّن يقوم على المحبَّة، والطائفيَّة تقوم على الحقد، والتديُّن الحق سماحة مع المخالف، والطائفيَّة تعصُّب ضدَّ الآخر. التديُّن يبني والطائفيَّة تهدم، التديُّن يحيي والطائفيَّة تميت.

تجميع كل المسلمين من سُنَّة وشيعة:

ومن التَّجميع المطلوب لمواجهة القوى المعادية لأمتنا: تجميع كل القوى والشعوب الإسلاميَّة، بالرغم من الاختلاف المذهبي بينهم، وأعني بالخلاف المذهبي: الخلاف بين السُّنَّة والشيعة، وبين السُّنَّة والإباضيَّة. فأنا أعلم أنَّ أعداء الأُمَّة يريدون أن يشعلوها حربًا دينيَّة صريحة بَلْقاء بين المسلمين بعضهم وبعض، لم يكفهم الحرب الَّتي قامت بين العراق وإيران، على أساس قومي: عرب وفرس، فهم يريدونها الآن بين سُنَّة وشيعة. ويجب على العقلاء والحكماء من الفريقين: أن يكونوا أكثر وعيًا وذكاءً منهم، ولا يمنحوهم الفرصة لينبشوا القديم، ويضخِّموا الجديد، ويخلقوا المشاكل، ويضعوا العقبات، ويثيروا الفتن.

QaradawiBooks.com

وقد اشتركت في «ندوة التقريب بين المذاهب» الَّتي دعت إليها المنظمة الإسلاميَّة للثقافة والتربية والعلوم سنة (١٩٩٥م)، والَّتي عقدت في الرباط، وحضرها علماء ودعاة من أهل السُّنَّة ومن الشيعة معًا، وأسفرت عن توصيات طيبة.

كما زرتُ إيران في ربيع سنة (١٩٩٨م) بدعوة من مجمع التقريب بين المذاهب، برئاسة الرجل السمح آية الله الشيخ واعظ زاده الخراساني، وتأييد من صديقنا آية الله الشيخ محمَّد علي التسخيري. ولقيت عددًا كبيرًا من العلماء في طهران وقم ومشهد وأصفهان، كما لقيت رئيس الجمهوريَّة السيد محمَّد خاتمي، واستمرَّت مقابلتي معه نحو ساعة، كما لقيت رئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام حجة الإسلام علي أكبر رفسنجاني[١].

ووجدت عند الجميع رغبة في التفاهم والتعاون والتلاقي، وقد ذكرت لهم بصراحة الأشياءَ الَّتي تحول دون التقريب الحقيقي، وهو: سبُّ الصحابة، والموقف من أهل السُّنَّة داخل إيران، ومحاولة نشر التشيع في بلاد أهل السُّنَّة.

وقد تجاوب معي الفضلاء من علمائهم، وأكَّدوا معي أن لا مبرِّر لسبِّ الصحابة، وبخاصة الكبار منهم مثل أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزُّبَيْر وعائشة رضي الله عنهم، وقد أفضوا إلى ما قدَّموا. كما أكَّدوا لي أنَّهم في كتبهم الدراسية ذكروا مواقف تحتذى لأبي بكر وعمر، باعتبارها نماذج إسلاميَّة للبطولة والهداية، وهذه لا شك خطوة إلى الأمام، نرجو أن تتبعها خطوات.

(١) كان مرشد الجمهورية وقائدها السيد علي خامنئي مريضًا في ذلك الوقت، فلم أتمكن من مقابلته.

QaradawiBooks.com

وما أبلغ ما قاله الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز حين سُئل عمَّا شجر بين الصحابة، فقال: تلك دماء طهَّر الله منها أيدينا، فلا نلطِّخ بها ألسنتنا(١)!

والله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١].

وممَّا يساعد في هذا الاتِّجاه التقريبي: أنَّ أهل السُّنَّة جميعًا يحبُّون أهل البيت حبًّا جمًّا، فمن ذا الَّذي لا يحبُّ فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، وأَحَبُّ بنات رسول الله إليه؟ ومن ذا الَّذي لا يحبُّ زوج فاطمة البتول، وابن عم الرسول، وسيف الإسلام المسلول، فارس الأُمَّة المعلم، وخطيبها المفوَّه وعالمها وأقضاها عليَّ بن أبي طالب؟ ومن ذا الَّذي لا يحبُّ السبطين الكريمين، سَيِّدَيْ شباب أهل الجنة: الحسنَ أشبه النَّاس خَلْقًا وخُلُقًا برسول الله ﷺ، والحسين أبا الشهداء؟

كل أهل السُّنَّة من عرب وعجم يتقربون إلى الله تعالى بحبِّ هؤلاء جميعًا لقربهم من رسول الله ﷺ، ودخولهم في دائرة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ويريد أهل السُّنَّة من الشيعة أن يقابلوا حبَّ أهل البيت بحبِّ الصحابة رضي الله عن الجميع، فكما نحب أهل بيته عليه الصلاة والسلام، يجب أن نحب صحبه الَّذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الَّذي أنزل معه أولئك هم المفلحون.

---

(١) ذكره الخطابي في العزلة صـ ٤٤، نشر المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢، ١٣٩٩هـ.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ولا سيَّما من كان أقرب منهم إليه مثل الخلفاء الأربعة، والعشرة المُبَشَّرَة، والمهاجرين والأنصار، فكل من كان قريبًا من مشكاة النبوة أصابه قبس من نورها.

وحسبنا في فضل الصحابة: ما نطقت به آيات الكتاب العزيز في أواخر سورة الأنفال، وفي سورة التوبة، وفي آخر سورة الفتح، وفي وسطها، وفي سورة الحشر، وخصوصًا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأهل بدر، وأهل أحد، وأهل بيعة الرضوان.

أضف إلى ذلك ما صرَّحت به الأحاديث الصحاح المستفيضة في فضلهم عمومًا، وفي فضل آحادٍ منهم خصوصًا.

يُؤكِّد ذلك أنَّ هؤلاء هم الَّذين نقلوا إلينا القرآن، متلوًّا بألسنتهم، محفوظًا في صدورهم، مكتوبًا في مصاحفهم.

وهم الَّذين رووا لنا سُنن الرسول الكريم، وتفاصيل سيرته وأقواله وأفعاله وتقريراته، فما خانوا ولا بدَّلوا.

وقد ذكر بعض الإخوة أنَّ الشيعة ـ كل الشيعة ـ يؤمنون بتحريف القرآن، وأنَّه ناقص، ونقلوا في ذلك من كتب الشيعة ما يؤيد هذ الدعوى. وأنا لا أنكر أنَّ هذه الأقوال موجودة في كتب الشيعة، ولكن ليس كل ما يوجد في الكتب يكون صحيحًا مائة في المائة، ويؤمن كل الشيعة بما فيه.

فالمحقِّقون من الشيعة يقولون: إنَّ الَّذي ينقل في هذا المعنى إنَّما هو من كلام «الإخباريين»، لا من كلام «الأصوليين».

والذي لا شكَّ فيه أنَّ الجميع يؤمنون أنَّ ما بين دفتي المصحف هو كلام الله الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

QaradawiBooks.com

وأنَّ المصحف الَّذي يطبع في إيران هو المصحف نفسه الَّذي يطبع في المدينة وفي القاهرة، وسائر بلاد المسلمين.

وأنَّه هو الَّـذي يحفظه أبناؤهم فـي المدارس، ويُتلـى عندهم في الإذاعة والتلفاز.

وهو الَّذي يحتجُّ به علماء العقيدة على عقائدهم، ويستدلُّ به علماء الفقه والشريعة على الأحكام.

صحيح أنَّنا قد نختلف معهم في تأويـل بعض الآيات. كما نختلف معهم في اسـتنباط بعض الأحـكام، ولكن هذا لا يوجـب أنْ نكفِّرهم ونخرجهم من الملَّة، فكثيرًا؛ ما يختلف أهل السُّـنَّة بعضهم مع بعض، في قليل أو كثير من الاجتهادات الفرعية في العقائد أو الفروع، النظرية والعمليَّة، ولا يوجب هذا تكفيرًا؛ كالاختلاف بين مدرسة الرأي والنظر، ومدرسة الحديث والأثر في الفقه، والاختلاف بين مؤولي آيات الصفات وأحاديثها من نظَّار الأشاعرة والماتريدية، وبين مانعي التأويل مطلقًا من الحنابلة ومن وافقهم.

والخلاف بين أهل السُّـنَّة والإباضية أضيق دائـرة، وذلك في مثل قضيَّة رؤية الله تعالى في الآخرة، وأفعال العبـاد بين الجبر والاختيار، ونحو ذلك.

ومثل هـذا الخلاف لا ينبغي أنْ يؤدِّي إلى قطيعـة مع الإباضية، أو تحريم الصلاة خلفهـم، فهذه قضايا نظرية لا يترتـب عليها أمر عملي، ولكل فيها اجتهاده، أصاب أم أخطأ، وما على الباحث عن الحق إلَّا أن يسـتفرغ وسـعه، ويجرِّد نفسـه من اتباع الهوى، والانقياد لغير الحق،

QaradawiBooks.com

ولا يكلِّفه الله تعالــى أكثر من هذا، إذ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد رجَّح الإمامان ابن تيميــة وابن القيم أنَّ المجتهد في مســائل الدين العلميَّــة أو العمليَّة معــذور إنْ أخطأ الصواب، بــل مأجور أجرًا واحدًا، ولا دليل عن التفرقة بين العلميات والعمليات.

وأعتقــد أنَّ المصائب الكبرى الَّتي تحيق بالأُمَّة من يمين وشــمال، جديرة أنْ تجمــع المتفرِّقين، وتوحِّــد المختلفيــن. وما أصدق ما قال شوقي: إنَّ المصائبَ يَجْمَعْنَ المُصَابِينَا[1]!

ولقد ذكر لنــا القــرآن الكريم في أوائل ســورة الــروم كيف حزن المسلمون لغلبة الفرس ـ وهم مجوس يعبدون النَّار ـ على الروم ـ وهم نصارى أهل كتــاب ـ ووقع بينهم وبين المشــركين مــن قريش جدال ومراهنة حول مســتقبل الفريقين. ونزل القرآن يُبشِّر المؤمنين بأنَّ الريح ســتتجه لصالح الروم، وأنَّ النصر سيكون لهم: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ ـ ٥].

أفليس ما بين السُّــنَّة والشــيعة أقــرب وأقرب ممَّا بين المســلمين والروم؟

إنَّنا لا ننكر الخلاف ما بين المذهبين، ولكن ما نتفق فيه من القضايا الأصلية والفرعية، النظرية والعمليَّة، أوسع بكثير ممَّا نختلف فيه، أوَليس

(١) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٠٤/٢).

QaradawiBooks.com

الأولى بالجميع تبنِّي هذه القاعدة الذهبية الحكيمة: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه».

ولا ريب أنَّ الَّذي نتفق عليه كثير وكثير جدًّا، فليضع كلٌّ منَّا يده في يد أخيه ليشدَّ أزره فيه: «**والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»(١).

ألسنا جميعًا من أهل القبلة؟

ألسنا جميعًا من أهل «لا إلٰه إلَّا الله محمَّد رسول الله»؟

ألسنا نؤمن جميعًا بأركان الإيمان الخمسة كما ذكرها القرآن: «الإيمان بالله واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنبيِّين»؟

ألسنا جميعًا نؤمن بأركان الإسلام الخمسة: «الشهادتين، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»؟

ألسنا جميعًا نؤمن بمكارم الأخلاق؟

ألسنا جميعًا نرفض الإلحاد والإباحيَّة؟

ألسنا جميعًا نقاوم الاستعمار والصهيونيَّة؟

ألسنا جميعًا نحارب الاستبداد والمظالم الاجتماعيَّة؟

ألسنا جميعًا نقف مع المستضعفين في الأرض من المسلمين؟

ألسنا جميعًا ضد الطغاة والمستكبرين في الأرض بغير الحق؟

ألسنا... ألسنا...؟

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، عن أبي موسى الأشعري.

QaradawiBooks.com

فلنتعاون في هذه الأمور الَّتي تفتقر منَّا إلى بذل الجهود، وتجنيد الجنود، وحشد القوى، وتعبئة الطاقات، ورصِّ الصفوف، للوقوف في المعركة جنبًا إلى جنب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

تجميع كل الاتجاهات إسلاميَّة وقوميَّة:

وممَّا يدخل في إطار التجميع والتكتيل المطلوب: توحيد كلِّ الاتجاهات الإيجابية والفاعلة في الساحة الوطنيَّة، والحريصة على سيادة الأُمَّة واستقلالها، والمدافعة عن حقوقها وحرماتها، والواقفة في وجه المعتدي عليها.

وأهم هذه التيارات أو الاتجاهات: الاتِّجاه الإسلامي الَّذي ينادي بالإسلام مرجعًا للأُمَّة، ومنهاجًا للحياة، وأساسًا للإصلاح والتغيير.

والاتِّجاه القومي، ويمثله في الوطن العربي: الاتجاه العروبي، الَّذي يدعو إلى العروبة أساسًا للوحدة، ومنطلقًا لحفز الأُمَّة، وربطها بتراثها وحضارتها، اعتمادًا على اللغة الجامعة، والتاريخ المشترك.

ولا يخفى أنَّ في كل من التيارين غلاة ومتشنِّجين، لا يقبل كلٌّ منهما التفاهم مع الآخر، ولا يودُّ الاقتراب منه.

ففي الإسلاميِّين من يعتبر كل دعوة قوميَّة دعوةً جاهليَّة، ومروقًا من الدين، وإنكارًا للإسلام ورسالته وحضارته وأُمَّته.

وفي القوميِّين من يرى الإسلام عائقًا للأُمَّة عن التقدُّم، ومن يرى أنَّ الدعوة للدين دعوة إلى الرجعية والعودة إلى الوراء، وهو يعتبر القوميَّة كأنَّما هي نبوَّة جديدة تجمع الناس، بدل نبوة محمَّد ﷺ. ومن يرى قطْع

QaradawiBooks.com

كلِّ علاقة بالمسلمين من غير العرب. وهؤلاء الغلاة من الفريقين لا يمكن أن يلتقيا، ولا أرضية مشتركة بينهما.

ولكن المدار على أهل الاعتدال من الفريقين، ممَّن يمثل التيار الوسطي أو يقترب منه.

إذ لا ريب أنَّ العربيَّة هي لسان الإسلام، والعروبة وعاؤه، وأرض العرب فيها نشأت دعوة الإسلام، ومنها انطلقت وفتحت الآفاق، وكتاب الإسلام عربي، ورسول الإسلام عربي، وصحابته عرب، وهم الَّذين تلقوا عنه القرآن، ونشروا الإسلام، وعلَّموا الأمم. وكل مقدسات الإسلام الكبرى مثل المسجد الحرام والبيت الحرام، ومسجد الرسول وقبره، والمسجد الأقصى، كلها في أرض العرب.

وحضارة الإسلام وثقافته إنَّما عبَّرت عنها لغة العرب، فإذا كان معتمد القوميَّة العربيَّة على اللغة والتاريخ، فاللغة هي لغة القرآن، والتاريخ في جوهره هو تاريخ الإسلام.

والإسلام بغير خلاف هو الَّذي وحَّد أُمَّة العرب، وهداهم من ضلالات الوثنيَّة، وعلَّمهم بعد الجاهليَّة، وأخرجهم من الظلمات إلى النور وحمَّلهم رسالة الهداية للعالم، وجعل منهم رعاة الأمم بعد أنْ كانوا رعاة الغنم، وزكَّاهم وعلَّمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

فلا يشك عربي مسلمًا أو غير مسلم، في فضل الإسلام على العرب والعروبة، وأنَّه الَّذي رفع ذكرهم في العالمين.

ترى ماذا كان سيكون مثل أبي بكر وعمر وعليٍّ وأبي عبيدة وسعد وخالد لو لم يكن الإسلام، ولو لم يدخلوا فيه ويجاهدوا في سبيله، ويساهموا في تمكينه في الأرض؟

QaradawiBooks.com

لقد كان عمر بن الخطاب يقارَن بعمرو بن هشام (أبي جهل)، وأسلم عمر، وبقي أبو جهل على شركه وضلاله، ومات عليه، فأين هذا من ذاك، وأين الثريا وأين الثرى؟ وهل سيكون خالد بن الوليد أكثر من فارس مثل عنترة بن شداد العبسي؟

إنَّ فخر العرب إنَّما هو بالقرآن لا بشعر امرئ القيس أو عمرو بن كلثوم.

فخر العرب إنَّما هو بمحمَّد الَّذي جعلهم الله به أُمَّةً وسطًا، وكانوا بحقٍّ خير أُمَّة أُخرجت للناس، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها.

فخر العرب إنَّما هو بالإسلام الَّذي أورثهم ممالكَ كسرى وقيصر، وأصبحوا به كالشامة بين الأمم، حتَّى قال ابن الخطاب بحق: نحن كنا أذلَّ قوم فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّة بغيره أذلَّنا الله(١).

وفي ضوء هذه المعاني ينبغي أنْ يلتقي الفريقان: القومي والإسلامي، وهذا ما دعا عقلاء التيارَيْن أن يفكِّروا معًا في إطار الجوامع الواشجة، والقواسم المشتركة، للوقوف صفًّا واحدًا في وجه التحدِّيات الكبيرة الهائلة الَّتي تواجهها الأمة اليوم.

وقد أدَّى هذا إلى تقديم ورقتين من كل من التيارَيْن تدعوان إلى ضرورة التلاقي والتجمع في إطار ما قدَّمه الطرفان من جوامع وضوابط.

وكان من وراء ذلك المؤتمر القومي الإسلامي الَّذي انعقد في مدينة بيروت في أكتوبر سنة (١٩٩٤م)، واعتبر المؤتمر التأسيسي، وأقرَّ صيغة التلاقي، كما اعتبر مؤسسة دائمة، تلتقي كل سنتين.

---

(١) سبق تخريجه صـ٢١٤.

QaradawiBooks.com

وقد التقى المؤتمر ثلاث مرات: اللقـاء الأوَّل في (١٩٩٤م)، والثاني في (١٩٩٧م)، والثالث في هذه السـنة يناير (٢٠٠٠م)، وكلها في بيروت، وكان لي شرف المشاركة في الأوَّل والثالث منها.

وفي اعتقـادي أنَّ هذه ظاهرة صحيـة، وخطوة إيجابيـة. وكلٌّ من التيارين لـه قوَّته وله أتباعـه وأنصاره فـي العالم العربـي، وله دعاته ومفكروه، وقد عاش التياران متباعديـن فترةً طويلةً من الزمن، بل أقول بصراحة: متنافرين، بل متعادين، بسبب سـيطرة الغلاة والمتفيهقين من هؤلاء وهؤلاء، وبسـبب جهل كل طرف بالآخر، أو معرفته من السطح، ومن جهل شيئًا عاداه.

فلمَّا اقترب الطرفان، وخصوصًا العقـلاء منهما، وجدا أنَّ ما يجمع بينهما أكثر بكثير ممَّا يفرِّق، وأنَّ الخير كل الخير في الاتِّحاد والائتلاف، وأنَّ الشر كل الشـر في الافتراق والاختلاف، وأنَّه إذا أحسن كل طرف الظنَّ بالآخر، وأحسـن التعمُّق في فهمه، واقترب خطـوة من صاحبه، اسـتحال الخلاف إلى وئام، ووقـف الجميع في صفٍّ واحـد كالبنيان المرصوص.

وأشـهد أنِّي رأيت هذا التقارب قد أدَّى إلى خير كثير، فقد وجدت الَّذين يتحدَّثـون من القوميِّين في جلسـات المؤتمر يبـدؤون حديثهم بـ «بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله».

ووجدت الجميع يؤكِّدون علـى معاني الإيمان، والتمسُّـك بالقِيَم والفضائل الأخلاقيَّة، ويعتزُّون بالتراث والحضارة الإسلاميَّة، بل وجدت هذا عند غير المسلمين، كما عند المسلمين.

QaradawiBooks.com

ولقد سمعت بعض إخواننا من المسـيحيِّين مثل الأب أنطوان ضو يثني في كلمته على موقعنا الإسلامي العالمي على الإنترنت، وهو موقع (Islam On Line) وعلى ما يقدِّمه من معرفة وخدمات.

كما رأيت الدكتور جورج جبور من سوريا يثني على برنامجي في قناة الجزيرة «الشريعة والحياة»، ويقول لي: إنَّني أتابعه باستمرار، وهو خير ما يقدَّم فـي عصرنـا للتعرُّف علـى الإسـلام، وخصوصًا لغير المسلمين.

ولقد قرأت الأوراق المقدَّمة من القوميِّين، فلـم أجد فيها ما ينكره الإسلام، إلَّا ما ندر، ممَّا قد يقع من الإسـلاميِّين الخُلَّص أنفسهم، بل رأيت عددًا منها يفيض إيمانًا وحماسًا لثقافة الإسلام، وأُمَّة الإسلام.

تجميع كل القوميات عربًا وغير عرب:

وفي إطار التجميع والتكتيل وتوحيد الصفوف الَّذي ننشـده، يلزمنا أنْ نجمع كلَّ القوميات المختلفة، في ديارنا العربيَّة خاصَّة ما دام يضمُّها الدين الواحد، والوطن الواحد، والثقافة الواحدة.

ومن هنا لا ينبغي بحال أنْ يوجد مجال للتفرقة بين عرب وأكراد في العراق، ولا بين عرب وبربر في شمال أفريقيا «الجزائر والمغرب».

فقد ضمَّ الإسـلام الجميع في حضانته، وصبَّهم في قالبه، وصبغهم بصبغته، ربطت بينهـم العقيدة الواحدة، والشـعائر الواحـدة، والقبلة الواحدة، والآداب الواحدة، والشـريعة الواحدة، فكلُّهـم يؤمنون بربٍّ واحد، وبرسول واحد، وبقرآن واحد، وكلُّهم جاهد في سبيل هذا الدين، وذاد عنه أعداءه.

QaradawiBooks.com

الأكراد هـم الَّذين دافعـوا عـن أرض العرب، أرض المقدسـات والمسجد الأقصى، أرض فلسـطين، وهم الَّذين قادوا المعارك وقاوموا الصليبيِّين بصلابة وشراسـة، حتَّى انتصروا عليهـم بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وهـم الَّذين نصرهم الله نصره المبين فـي معركة حطِّين، وهم الَّذين فتـح الله على أيديهـم بيت المقدس، فاستردَّه المسـلمون من الصليبيِّين، بعد أنْ ظلَّ أسيرًا في أيديهم تسعين عامًا كاملة.

والبربر هم الَّذين نصروا الإسـلام منذ أنْ وطئت قدمه بلاد المغرب، ومن ذا الَّذي ينسى طارق بن زياد وأصحابه الَّذين اجتازوا البحر، وانطلقوا إلى الشـاطئ الأوربي، ليرفعوا فيه راية التوحيد، ويعُلوا كلمة الإسـلام، ويقيموا دولة أنشأت حضارة شامخة البناء، تعلَّمت منها أوربا لعدة قرون، وتركت وراءها آثارًا لا تزال تشير إليها وتدلُّ عليها، إلى اليوم.

ولن ينسـى الجزائريُّون أنَّ الَّذي بعث النهضة العربيَّة الإسلاميَّة في الجزائر، كان رجلًا بربريًّا، وهو الشـيخ ابن باديـس، ومعه كثيرون من العرب مثـل الشـيخ الإبراهيمـي، ومن البربـر مثل الشـيخ الفضيل الورتلَّانـي، والجزائريون عربهم وبربرهم يفخـرون برجلين كبيرين في تاريخ الجزائر الحديث: الأمير عبد القادر العربي، والشـيخ ابن باديس البربري، الأوَّل جاهد بالسيف والسنان، والثاني جاهد بالقلم واللسان.

ثم إنَّ هذه القوميات هـي جزء أصيل من وطنهـا، لا يجوز الجور عليهـا، ونكران حقوقها، وجحـود خصوصيَّاتها الثقافيَّـة واللغوية، مع الاعتراف بحق اللغة العربيَّة في السيادة والسلطان على الأُمَّة كلها.

ومن المعلوم الَّـذي لا نزاع فيه: أنَّ الإسـلام رسـالة عالميَّة، وأنَّه لا يفرِّق بين عـرب وعجم، ولا بين شـرق وغرب، وأنَّـه جاء ليذيب

QaradawiBooks.com

الفوارق بين الناس، وليمحوا النزغات العصبيَّة الَّتي تفرِّق جماعتهم، وتعادي وحدتهم، فهو يبرأ ممَّن دعا إلى عصبيَّة، أو قاتل على عصبيَّة، وأنَّه جاء ليدعو الجميع إلى أخوة إيمانيَّة جامعية، تضم كلَّ الأعراق، وكلَّ الألوان، وكلَّ الأقاليم، وكلَّ الألسنة، وكلَّ الطبقات، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال الرسول الكريم: «**المسلم أخو المسلم**»[١]، «**كونوا عباد الله إخوانًا**»[٢]، «**المسلمون يسعى بذمَّتهم أدناهم، ويُجير عليهم أقصاهم، وهم يدٌ على من سواهم**»[٣].

ومع هذا لم ينكر الإسلام خصوصيَّات القبائل والشعوب، فقد قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣].

فلا يجوز أنْ نؤجِّج حربًا مفتعلة بين القوميات الإسلاميَّة بعضها وبعض، وخصوصًا بين القوميات الَّتي تعيش في داخل الوطن العربي، وتعترف باللغة العربيَّة ومكانتها باعتبارها لغة القرآن والحديث النبوي، ولغة العبادة، ولسان الثقافة الإسلاميَّة الأصلي، ويجب أن تكون لغة التفاهم المشترك بين المسلمين كافة.

تجميع قوى الأُمَّة الإسلاميَّة في العالم:

وممَّا يدخل في إطار التجميع الواجب علينا: تجميع قوى الأُمَّة الإسلاميَّة، وإن اختلفت عروقها، وتباينت ألسنتها، وتباعدت أوطانها.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.
(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٨)، عن أبي هريرة.
(٣) رواه أحمد (٦٧٩٧)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وأبو داود في الجهاد (٢٧٥١)، وابن الجارود في المنتقى (١٠٧٣)، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

فنحن جزء من هذه الأُمَّة، وهي أُمَّتنا الَّتي نعتـزُّ بالانتماء إليها، ونعتبر أهلهـا جميعًا إخوة كما قال الله تعالـى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقـد مـنَّ الله علينا بهذه النعمة، نعمة الأخوة، حين قـال: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وإذا كنَّا نحن العرب نحرص على كسب العرب غير المسلمين، وهم أقلية محدودة، فكيف لا نحرص على كسب المسلمين غير العرب، وهم أكثرية ضخمة؟ فالعرب بالنسبة لسائر المسلمين، يساوون نحو الخمس، فكيف نضيع ولاء أربعة أخماس الأُمَّة لنا؟ وهل يصنع هذا عاقل؟

هذا لو كنَّـا نتحدَّث بالمنطـق القومي الَّذي ينظر إلـى هذا الأمر بمعيار المكسـب والخسـارة. أمَّا المنطق الديني، فيرى تجميع الأُمَّة المسـلمة كلِّها فريضة دينيَّة مقدَّسـة، لا سـيَّما في مواجهة التحدِّيات الكبرى الَّتـي نواجهها اليوم. وإذا كان كلُّ يهودي في العالم مسـتنفرًا لحساب إسـرائيل، فلماذا لا نسـتنفر المسـلمين حيثما كانوا لقضيَّة فلسطين والمسـجد الأقصى، وسـائر قضايانا الخطيرة الَّتي تطالبنا أنْ نقف صفًّا واحدًا، كما أمرنا الله تعالى؟

وأعود فأؤكِّد أهمية «الدائرة الإسـلاميَّة» لنا نحن العرب، وضرورة التلاحم بيننا، لنصرة قضايانا. ولا يجوز لنا أن ننسـى أنَّ الإسلام عرَّب عواطف المسـلمين في العالم، وجعلهم يعتزُّون بالعـرب، ويحبُّونهم، لأنَّهم أهل رسـول الله ﷺ. كما لا ينبغي أنْ ننسى أنَّ سبب إنشاء منظمة «المؤتمر الإسلامي» العالميَّة، إنَّما كان هو «حريق المسجد الأقصى» سنة (١٩٦٩م)، الَّـذي أشـعل جمرة الحماس في مشـرق العالم الإسـلامي

QaradawiBooks.com

ومغربه، ولم يملك القادة إلَّا أن يتجاوبوا مع الشعوب، ويعقدوا القمة الَّتي انبثقت عن قيام المنظمة المذكورة.

صحيح أنَّ المنظمة ليست على مستوى آمال الشعوب وطموحاتها، ولكنَّها أحسن من «لا شيء». ويجب أن تتكاتف لتقويتها واستمرارها.

ويسرُّني أنْ أنقل هنا صفحات مشرقة لرجل مفكِّر متوازن، مقبول من القوميِّين والإسلاميِّين جميعًا، يتحدَّث فيها بعمق ووضوح عن واجب العرب نحو ما سمَّاه: «دائرة الحضارة الإسلاميَّة». ذلكم هو صديقنا الأستاذ الدكتور أحمد صدقي الدجاني حيث يقول حفظه الله وسدَّد خطاه:

إستراتيجيَّة عربيَّة تجاه دائرة الحضارة الإسلاميَّة:

«نعم، الحاجة ماسة إلى انتهاج إستراتيجيَّة عربيَّة متكاملة تجاه دائرة حضارتنا الإسلاميَّة في هذه المرحلة من تاريخنا، وفاءً بحقِّ أنفسنا، ومن أجل القيام بإسهام حضاري في عمران عالمنا. وإنجاز هذا الأمر يفتح الباب واسعًا أمام قيام جميع الأمم والشعوب والدول في الدائرة لبلورة الإستراتيجيَّة الإسلاميَّة المتكاملة تجاه حضارات عالمنا وعمرانه.

إنَّ المناخ السائد في العالم المعاصر مناسب لازدهار فكرة تضامن دول دائرة الحضارة الإسلاميَّة. والحديث عن مكان الدائرة ودورها يتردَّد في أوساط المفكرين في عالمنا على اختلاف اتجاهاتهم، ومن هؤلاء السويدي انجمار كارلسون صاحب كتاب «الإسلام وأوروبا تعايش أم مجابهة»، وبول كينيدي الَّذي أفرد فصلًا خاصًّا في كتاب «الإعداد للقرن الحادي والعشرين»، انتهى فيه إلى خلاصة «أنَّ العالم

QaradawiBooks.com

الإسلامي يفتقد ثقافة المشروع» على حدِّ تعبيره، في إشارة تتحدَّانا كي نوفر ثقافة المشروع هذه. وقد سبق أنْ شرحنا في كتاب «عن المستقبل برؤية مؤمنة» في مطلع التسعينات ما فكرة التضامن هذه الَّتي تشير إلى «علاقات تعاون وتكافل تقوم بين المنتمين للحضارة الإسلاميَّة شعوبًا وحكومات ودولًا، وتنطلق من هذا الانتماء ومن استشعار وجود رؤية كونية مؤمنة تجمع بينهم». كما أوضحنا تفاعل عامل داخلي يحثُّ على الوحدة، مع عامل خارجي يتمثَّل في تحدِّيات قوى الهيمنة، مع واقع عالمنا عالم الكتل الكبيرة، وثورة الاتِّصال والمشكلات العالميَّة، في صنع فكرة التضامن هذه. وانتهينا إلى إثبات ثلاث حقائق بشأنها هي: أصالتها في ضمير الأمة، ووجود معوقات وصعوبات وعقبات أمام تنفيذها، وفي الوقت نفسه وجود ما يفرض اليوم الاشتغال بها، والتغلُّب على العقبات بغية تحقيقها. والواقع القائم يُؤكِّد هذه الحقائق في ختام التسعينات».

تساؤلات حيويَّة:

«إنَّ إمعان النظر وإعمال الفكر فيما ينبغي أن تكون عليه هذه الإستراتيجيَّة العربيَّة المتكاملة تجاه دائرتنا الحضاريَّة الإسلاميَّة، يضعنا أمام تساؤلات حيوية حول كيفية تعزيز الوثائق والروابط في هذه الدائرة على الصعيدَيْن الشعبي والرسمي، وكيفية معالجة صراعات محتدمة داخلها في القطر الواحد أحيانًا أخرى، وكيفية تنظيم العلاقات داخلها وبين نواتها العربيَّة وشقيقاتها فيها، وكيفية اعتماد الإستراتيجيَّة عربيًا. وتصل بنا محاولات الإجابة عن هذه التساؤلات إلى مجموعة أفكار نطرحها في ختام هذا الحديث.

QaradawiBooks.com

أفكار:

الفكرة الأولى: التوعية بحقيقة الانتماء الحضـاري لدائرة الحضارة الإسلاميَّة، أفرادًا وشعوبًا وأممًا ودولًا، وتكامل هذا الانتماء القومي في دائرة الانتماء الثلاثية الوطنيَّة والقوميَّة والحضاريَّة الَّتي لا تناقض بينها. والحرص على الانجرار إلى اصطناع تناقض من خلال تعصُّب مقيت في الأسـرة الواحدة أو بفعل نزاعات تاريخيَّة نشبت وأخرى قد تنشب. وإدراك هـذا الانتماء الحضـاري يقوم علـى الرؤية الكونيَّـة المؤمنة، والاعتزاز بألسنة أقوام الدائرة، مع تبجيل اللسان العربي الَّذي أنزل الله به القرآن الكريم، واستحضار تاريخ مشـترك طويل، وهذه العناصر الثلاثة هي أركان الهوية الحضاريَّة. وهكذا يدرك الجميع، كلٌّ على مستواه، أنَّه فضلًا على انتمائه الوطني، وانتمائه القومي، منتمٍ لحضارته الإسـلاميَّة الَّتي تعمِّمها وسائل الإعلام، وتعتمدها الحكومات سياسةً لها.

الفكرة الثانيـة: القيام بقراءة موضوعية منصفة للحضارة الإسـلاميَّة نابعة من الذات، مسـتنيرة بـآراء الآخرين، معتمدة نظـرة نقدية عادلة تلاحظ الإيجابيات والسـلبيات على السـواء، وتعميم هذه القراءة من خلال التوعية. والحقُّ أنَّ الحاجة ماسة لهذا الأمر في واقع تسود فيه بين قطاع واسـع من المثقفين والمتعلمين قراءة أبسط ما يقال فيها: افتقارها للعمق، ونقلها رأيًا آخر متحيزًا ظهر في أوساط الحضارة الغربيَّة، وجرى تعميمه بوسائل مختلفة من بينها مناهج تعليم متبعة في بعض المدارس.

وتقدِّم هـذه القراءة الحضارة الإسـلاميَّة على أنَّهـا كانت محكومة باسـتبداد الحكام، شـأن حضارات أخرى شرقية. فالشـرق عند هؤلاء «اسـتبداد»، وعالم الإسـلام الحضاري جـزء من هذا الشـرق. وهكذا

QaradawiBooks.com

بكلمتين يُقـدَّم تاريخ كامـل، وما أكثـر الأمثلة على الخطـأ والخطر والتعصُّب والتحيز في قراءة هؤلاء. وقد قدَّم إنجمار كارلسون في الفصل الأوَّل من كتابه نماذج منها، ونبَّه إلى أنَّهـا تنتهي «إلى حكم بانحطاط الشرق وعجز الشرقيِّين عن التفكير بشكل منطقي، وتخلُّفهم في جميع ميادين الحياة. بل والقول: إنَّ الإنسـان العربي وكذلك الإنسان المسلم لا يمكن أنْ يتطوَّر أو يتقدَّم. وبناءً على هذا الاعتقاد غدا مقبولًا الادِّعاء بأنَّه لا ينبغي تمكين العرب من التعبير عن ذاتهم. «ويضيف كارلسـون قائلًا» ولقـد تقبل الكثيرون هذا الادعاء الغريب بمن فيهم شـخص من طراز كارل كارلسـون بأنَّ العرب لا يسـتطيعون تمثيل أنفسهم! «فكتب يقول»: إنَّهم لا يسـتطيعون تمثيل أنفسـهم، ويجـب تمثيلهم. «لويس بونابرت، الثامن عشر من بروميير».

القـراءة الموضوعية المنصفـة لحضارتنا تتصف بالنظرة الشـاملة، وتعنى بما أسـماه البعض «التاريـخ الأكبر». وهو التاريـخ الحضاري الشامل، ولا تقتصر على إيراد جزئيات تتعلق بتاريخ الحُكَّام فقط. وهي لذلك تجعل من التاريخ حافزًا بدل أن يكون عبئًا. وما أغنى ما يمكن أن تثمره هذه القراءة وتعميمها على أبناء حضارتنا.

الفكرة الثالثة: تقوية الروابط الشـعبيَّة والرسـمية في دائرة الحضارة الإسلاميَّة. وهذا يقتضي تواصل المؤسسات الأهلية في مختلف الميادين بعضها مع بعض، أو اعتمادها برامج تسـتهدف توثيق العلاقة والتعاون. كما يقتضي العناية «بالنظام الإسلامي» الرسـمي. ومعلوم أنَّه منذ إنهاء «نظام الخلافة» في دائرتنا عـام (١٩٢٤م)، والشـعور بالحاجة إلى إطار يجمع الدول في العالم الإسلامي مُلِحٌّ، وقد أسهم في تحقيق فكرة إقامة

QaradawiBooks.com

منظمة دول المؤتمر الإسلامي الَّذي انعقد عام (١٩٦٩م) بعد محاولة إسرائيل حرق المسجد الأقصى. ولا يزال هذا «النظام الإسلامي» الرسمي في حدِّه الأدنى من الفاعلية، واستمراره وانتظام انعقاد مؤسساته الرئيسة، وأعلاها القمة الإسلاميَّة يدلُّ على إمكان تقويته وتطويره، ليصبح نظامًا إقليميًّا فاعلًا، يأخذ مكانه اللائق به بين الأنظمة الإقليميَّة في عالمنا. وقد فصَّل كاتب هذا الحديث شرح النظام الإقليمي لدائرة الحضارة الإسلاميَّة في كتابه «عن المستقبل برؤية مؤمنة»، وأورد أحد عشر مبدأً له بلورها الفكر الإسلامي الحديث.

إنَّ العناية بالنظام الإسلامي تسير متزامنة مع العناية «بالنظام العربي» المختص بالدائرة ضمن دائرتنا الحضاريَّة الإسلاميَّة. ولا بدَّ من إقامة علاقة وثيقة بين النظام الإسلامي والنظام العربي، وأنظمة أخرى فرعية قائمة أو ستقوم داخل الدائرة.

الفكرة الرابعة: إعلان النظام الإسلامي «ميثاق استنباط السلام بين أعضائه»، والتزام الدول الأعضاء بهذا الميثاق، وبحل المشكلات الَّتي قد تنشب بين دول أخرى بروح الأخوة المنطلقة من الانتماء الحضاري، المتمسكة بتعاليم الإسلام، والمحترمة للقانون الدولي. وهذا يعني نبذ اللجوء إلى الحرب داخل دائرة الحضارة الإسلاميَّة. ومعلوم أنَّ الدول في دائرة الحضارة الغربيَّة وصلت ـ بعد أن اكتوت بنيران حربين عالميتين طاحنتين في النصف الأوَّل من القرن العشرين ـ إلى رفع شعار: «لا حرب أخرى في أوربا»، وقد آن الأوان أن نرفع شعار: «لا حرب بين الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي»، ومعالجة الخلافات سلمًا. إذ يكفي ما عانيناه من حروب بين هذه الدول في النصف الثاني من القرن العشرين.

QaradawiBooks.com

الفكرة الخامسة: وثيقة الصلة بسابقتها، وإنَّما نفردها لتأكيد أهميتها. وهي اعتماد النظام الإسلامي «مناطق التخوم»، القائمة على الجوانب «الحدود السياسيَّة» المستحدثة للدول القُطرية الأعضاء فيه، مناطق «وصل» وليس «مناطق فصل». وانظر إليها على أنَّها «تصل» بين أقطار الدائرة، وتربط بين أبنائها، وتشهد أعلى نسبة في التفاعل بين ثقافات حضارتنا، وتعبِّر عن مصالح دولنا المشتركة.

إنَّ اتخاذ هذه الخطوة يترتب عليه معالجة جميع بؤر التوتر الحدودية القائمة اليوم في دائرتنا الحضاريَّة. وهي بؤر قصد المستعمر الغربي عند رسمه الحدود السياسيَّة للأقطار أن يبقيها، كما قصد أن ينفخ ويؤجج نارها بممارسة مفهوم متعسِّف للسيادة القطرية، لا ينظر أبعد من الأنف، قاصر النظر. وهكذا تتحول مناطق التخوم إلى مناطق مزدهرة، بعد أن عانت الأمرَّين منذ نشأة الدولة القُطرية. وقد فصَّل كاتب الحديث شرح هذه الفكرة في كتابه «تجديد الفكر استجابة لتحدِّيات العصر».

الفكرة السادسة: عناية «النظام الإسلامي» وأنظمته الفرعية، ومنها النظام العربي، والدول الأعضاء، بالتواصل مع أبناء الحضارة الإسلاميَّة المقيمين في دائرة الحضارة الغربيَّة بخاصة، والدوائر الحضاريَّة الأخرى بعامة، ومنها الأفريقية والأمريكيَّة الجنوبيَّة، ومتابعة التفاعلات الحضاريَّة الجارية في أوساطهم، وتبادل التأثير بينهم وبين مجتمعاتهم الجديدة الَّتي اكتسبوا مواطنتها. ذلك أنَّ هذه الظاهرة تتسم بالاستجابة الفاعلة، وتعتمد على الدراسة المتعمقة، وتنأى عن ردود الأفعال، وتحرص على العناية باللسان الأصلي، وباللسان العربي، وبالذاكرة التاريخيَّة. وقد فصَّل كاتب هذا الحديث شرح هذه الفكرة في مقاله «العرب والمسلمون في أوربا برؤية حضاريَّة».

QaradawiBooks.com

الفكرة السابعة: اعتماد «النظام الإسلامي» إستراتيجيَّة عمل لدائرة الحضارة الإسلاميَّة، تأخذ في الاعتبار واقع كل عنصر فيها، والظروف المحيطة به، وتحدد دورًا له فيها، في حدود ما يستطيع، مع الحرص على تكامل الأدوار. ولا يكلف الله نفسًا إلَّا وسعها، وإنَّ الله يحب الَّذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنَّهم بنيان مرصوص.

الفكرة الثامنة: اعتبار «قضيَّة القدس» رمزًا لقضيَّة فلسطين، واعتمادها قضيَّة مصيرية لدائرة الحضارة الإسلاميَّة، ووضع هدف تحريرها نصب عين «النظام الإسلامي» ونصب عيون أعضائه عضوًا عضوًا، وبلورة إستراتيجيَّة لبلوغ هذا الهدف. وإفشال «الحل العنصري» لقضيَّة فلسطين الَّذي تحاول قوى الهيمنة الغربيَّة فرضه؛ لأنَّه ينتهي باغتصاب القدس وتهويدها.

وبعد، فإنَّ هذه الإستراتيجيَّة العربيَّة المتكاملة تجاه دائرة الحضارة الإسلاميَّة، تتطلب كي يتم اعتمادها أنْ تكون محل حوار أهل الفكر والحل والعقد، ومحل بحث النظام العربي الرسمي، كي يتوافر لها الاقتناع بها اللازم لتنفيذها. وإنَّ لنا ونحن نمضي مع القرن الخامس عشر الهجري ومع مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي أن نستعين بالله لبلوغ هذا الهدف ونقول القول السديد ونعمل الصالحات ونتواصى بالحق ونتواصى بالصبر. والله مُنْجِز وعده»[١] اهـ.

تجميع كل فصائل الصحوة الإسلاميَّة:

ومن أوائل ما يدخل في التجميع والتوحيد المنشود لمواجهة التحدِّيات والقوى المعادية للدين والأوطان وللأُمَّة كلها: تجميع فصائل

(١) بحث العرب ودائرة الحضارة الإسلامية للدكتور أحمد صدقي الدجاني، المقدم للمؤتمر القومي الإسلامي الثالث، المنعقد في بيروت، ١٤ ـ ١٦ شوال ١٤٢٠هـ ـ ٢١ ـ ٢٣ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

الصحوة الإسلاميَّة، على اختلاف مدارسها، وتعدُّد وجهاتها، وتنوُّع مشاربها. بحسبهم أنَّهم جميعًا إلى الإسلام ينتمون، وعنه يصدرون، وإلى نصرته يتسابقون، وفي خدمة أُمَّته يتنافسون، وفي سبيل شريعته يجاهدون، فلماذا على كلمته لا يجتمعون؟ ولإعلاء رايته يتحدون؟ وعلى البر والتقوى يتعاونون؟ وإذا كُنَّا ندعو أبناء الوطن أن يقفوا صفًّا واحدًا لمواجهة الخطر، وإن اختلفت أديانهم مسلمين ومسيحيِّين، أو اختلفت عروقهم من عرب وأكراد، أو عرب وبربر، أو اختلفت مذاهبهم الدينيَّة من سُنيِّين وشيعيِّين، أو اختلفت اتِّجاهاتهم الفكريَّة، من إسلاميِّين وقوميِّين، فكيف لا ندعو إلى وحدة صفِّ «الإسلاميِّين» بعضهم مع بعض؟ وهم أولى النَّاس أنْ يتحدوا ولا يختلفوا، وأنْ يجتمعوا ولا يتفرَّقوا، وأنْ يتناصروا ولا يتخاذلوا، وأنْ يسامح بعضهم بعضًا، بدل أنْ يتعصب بعضهم ضدَّ بعض.

لقد رأينا الكنائس والمذاهب النصرانيَّة يتقارب بعضها مع بعض، رغم أنَّ كل مذهب منها يعتبر دينًا مستقلًّا بذاته، وإن انتسبوا جميعًا إلى المسيحيَّة؛ فالكاثوليكية غير البروتستانتية، وكلتاهما غير الأرثوذكسيَّة، وقد وقع بين هذه المذاهب من الصراعات والحروب ما انتفخت به بطون الكتب، وما سجَّله التاريخ بمدادٍ من الدم الأحمر. ثمَّ وجدوا المصلحة في تناسي هذا كله، والاتفاق على الحد الأدنى.

بل رأينا المسيحيَّة تتقارب مع اليهوديَّة، برغم العداء التاريخي بينهما، وبرغم ما صنعه اليهود بالمسيح عليه السلام، رأينا ذلك في موقف الفاتيكان وتبرئة اليهوديَّة من دم المسيح، ورأينا ذلك في المسيحيَّة الأصولية ومساندتها المتحمِّسة والمتعصبة لدولة إسرائيل. ورأينا ذلك

QaradawiBooks.com

أخيرًا في اعتذار بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني بصراحة عمَّا وقع لليهود على يد الكنيسة المسيحيَّة.

ورأينا اليهوديَّة والوثنيَّة الهندوسية تتقاربان وتتعاونان وتتحالفان سرًّا وعلانية، ورأينا الشيوعيَّة الروسية السوفييتية والرأسماليَّة الأمريكيَّة الغربيَّة ـ في زمن الحرب الباردة ـ تتعايشان سلميًّا، بل تعقدان سياسة الوفاق من أجل المصالح المشتركة.

فلماذا يكون المسلمون دون غيرهم، هم الاستثناء الوحيد في العالم، ليظلوا متناكرين غير متعارفين، متباعدين غير متقاربين، متخاذلين غير متناصرين، متفرِّقين غير مجتمعين؟

لم ذلك كله؟ وكتاب ربهم يناديهم بقوَّة وجلاء: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

ولو لم يكن منطق الدين يفرض عليهم أنْ يجمعوا صفَّهم ولا يتفرَّقوا، لكان منطق الحياة ومنطق الواقع يفرض عليهم ذلك، فإنَّ الأهداف الكبيرة لا تتحقَّق إلَّا بتكاتف القوى، والأعمال العظيمة لا تتم إلَّا بتضافر الجهود، كما قال ذو القرنين للقوم الَّذين طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا، ويدفعوا له مبلغًا من المال، فعرض عليهم ما هو أجدى وأرشد من ذلك: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]. فبالتعاون بينه وبين القاعدة الشعبيَّة ـ مع عون الله تعالى وتمكينه ـ أمكنه أنْ يبني سدَّه العظيم.

QaradawiBooks.com

يؤيِّد هذا المنطق ويؤكِّده: أنَّ أعداء الأُمَّة يتكتلون بعضهم مع بعض، ويوالي بعضهم بعضًا، ويتفقون على الكيد للمسلمين رغم اختلافهم فيما بينهم. يشير إلى ذلك القرآن حين يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

ومعنى ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾: إن لم يوال بعضكم بعضًا، ويساند بعضكم بعضًا، ويشدُّ بعضكم أزر بعض، كما يفعل خصومكم: تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. لماذا؟ لأنَّ معنى ذلك أن يكون أهل الكفر مجتمعين وأهل الإسلام متفرقين، أن يكون أهل الكفر متوالين متناصرين وأهل الإسلام متخاذلين. تجمُّعٌ هناك، وتفرُّقٌ هنا، عمل هناك وفراغ هنا، نظام هناك، وفوضى هنا. وسُنَّة الله ألَّا تنتصر الفرقة والتنازع على الاجتماع والتلاحم، وأن ينهزم الفراغ أمام العمل والدأب، وتهزم الفوضى أمام النظام ولن تجد لسُنَّة الله تبديلًا.

رفع الخلاف غير ممكن:

وأودُّ أنْ أبيِّن لبعض الإخوة الَّذين يضيقون بالخلاف ذَرْعًا، ويريدون أن يرفعوا الخلاف في فروع العقيدة أو فروع الفقه من الأُمَّه، وأن يجمعوا النَّاس على رأي واحد، وهو ـ بالطبع ـ رأيهم: أنَّهم واهمون في ذلك كل الوهم، فرفع الخلاف غير ممكن أصلًا، وغير مطلوب شرعًا، وغير ضارٍّ واقعًا.

أما أنَّه غير ممكن؛ فلأنَّ أسبابه موجودة ولازمة، وهو ـ كما بيَّنت في بعض كتبي ـ ضرورة لا مفرَّ منها، ضرورة دينيَّة، وضرورة لغوية، وضرورة بشريَّة، وضرورة كونية[1].

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم صـ ٤٢ ـ ٦٤، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م.

QaradawiBooks.com

أما أنَّه ضرورة دينيَّة؛ فلأنَّ الله تعالى لـو أراد أن يجمع النَّاس على رأي واحد، لجعـل نصوص الدين كلها قطعية الثبـوت، قطعية الدلالة، فلا مجال فيها لخلاف، ولكن لم يفعل ذلك، فدلَّنا على أنَّه تعالى لم يرد أنْ يمنع النَّاس من اختلاف الاجتهادات والآراء.

وقد اختلف الصحابة في اجتهاداتهم في عصر الرسول ﷺ، كما في صلاة العصر في بنـي قريظة وغيرها، وبعد عصر الرسـول ﷺ، ولكن وسع بعضهم بعضًا، وقدَّر بعضهم اجتهاد بعض.

وأمَّا أنَّه ضرورة لغويَّة، فلأنَّ الدين يتمثَّل في نصوص قرآنيَّة ونبويَّة، وهي تفهم في ضـوء اللغة، واللغـة فيها الحقيقة والمجـاز، والصريح والكناية، والمنطوق والمفهوم، والظاهر والمـؤول، وما يفهم بالعبارة، وما يفهم بالإشارة، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، والأمر والنهي... وكل هذه قابلة للاحتمال وتعدُّد الأقوال، ولا حـرج على مجتهد اتخذ منها موقفًا غير موقف صاحبه، فلكل مجتهد نصيب.

وأما أنَّه ضرورة بشريَّة، فلأنَّ البشر يختلفون في طباعهم واتجاهاتهم ومواقفهم، فمنهم الميسِّر، ومنهم المشدِّد، ومنهم من يميل إلى الظواهر، ومنهم من يميل إلى المقاصد، منهم من يميل إلى الأثر، ومنهم من يميل إلى النظر، وهذا من أسباب تعدُّد المذاهب، وتنوُّع المشارب. وكلٌّ إلى خير، وقد عُرف في تراثنا الفقهي فيما عُرف: شـدائد ابن عمر، ورُخص ابن عباس.

وأما أنَّه ضرورة كونية، فلأنَّ الله تعالى أقام هذا الكون على «التنوع»، ولذا شاع في القرآن هذا التعبير ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾. فلماذا لا تختلف ألوان الاجتهاد والاسـتنباط وتتنوَّع مدارسـه؟ فمن أثري، إلـى ظاهري، إلى

QaradawiBooks.com

قياسـي، إلى اسـتصلاحي. وكلها أشـبه بما يخرجه النحل من شراب مختلف ألوانه، فيه شفاء للناس.

وهذا يدلُّنا على أنَّ منْع الخلاف غير ممكن، كما يدلُّنا على أنَّه غير مطلوب، وأنَّه غير ضار أيضًا. وقد قبل المسـلمون ـ منذ عهد الصحابة وتابعيهم بإحسـان ـ الخلاف في الآراء العلميَّة، والاجتهادات الشرعيَّة، فما ضرَّهم شيئًا، وصلَّى بعضهم وراء بعض، وأثنى بعضهم على بعض، وقبل المسـلمون بعدهم تعدُّد المذاهب، منذ القرن الثاني للهجرة، فما نال ذلك من وحدتهم ولا من أخوتهـم، إنَّما الَّذي ضرَّهم بعد ذلك هو التعصُّب الأعمـى للمذهب، ومحاولة نصره بالحـق وبالباطل، واعتبار المخالفين خصومًا.

اختلاف الاجتهادات رحمة بالأمة:

بـل رأى رجل مثـل عمر بن عبد العزيـز خامس الراشـدين: أنَّ اختلاف الصحابة كان رحمة، وأنَّه لم يكن يود أبدًا أنَّهم لم يختلفوا؛ لأنَّهم لمَّا اختلفوا أمكن النَّاس أن يأخذوا برأي واحد منهم ولا حرج، ولو كانوا على رأي واحد، ما وسـع النَّاس إلَّا هـذا الرأي. كما أنَّهم باختلافهم شرَّعوا للناس بعدهم أن يجتهدوا ويختلفوا، فليسوا أفضل من الصحابة.

وقد ألَّف أحد العلماء السابقين كتابًا سمَّاه «رحمة الأُمَّة في اختلاف الأئمَّة»[1].

(١) محمد بن عبد الرحمٰن بن الحسـين، أبو عبد الله صدر الدين الدمشقي العثماني الصفدي المعروف بقاضي صفد، من أهل دمشق. كان قاضي قضاة المملكة الصفدية (ت: ٧٨٠هـ). انظر: الأعلام للزركلي (١٩٣/٦).

QaradawiBooks.com

والذي مارس الفقه، وغاص في أعماقه، يرى أنَّ هذا التعدد والتنوع قد أتاح لنا أنْ نملك نحن المسلمين ثروة هائلة من الفقه الَّذي خدمته عقول عبقرية، فقد يضيّق مذهب بقضيَّة، ويوسّع فيها آخر، ويشدِّد مذهب في أمر وييسِّر فيه غيره، وقد يصلح مذهب في بيئة ولا يصلح في أخرى، وقد ينجح في زمان ولا ينجح في زمان آخر، فيستطيع الفقيه أمام هذه الخصوبة أن يختار ما يراه أهدى سبيلًا، وأرجح دليلًا، وأدنى إلى تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق، دون أن يخرج من إطار الشريعة وفقهها الثري.

بل إنَّ هذه الثروة الفقهية الطائلة تنير له الطريق، ليبني على أساسها فقهًا معاصرًا، يستمد من منطق هذا الفقه وروحه ومنطلقاته وتعليلاته وتخريجاته، ما يعالج به مشكلات عصره، مراعيًا تغيُّر الزمان والمكان وحال الإنسان.

رأيي صواب يحتمل الخطأ:

ومن المهم هنا أنْ يكون صاحب الرأي الَّذي يؤمن بصوابه متواضعًا، بعيدًا عن الغرور بالنفس، والإعجاب بالرأي، فهو أحد المهلكات، وأنْ يعلم أنَّ اعتقاده بصواب رأيه لا يضفي عليه «العصمة»، فهو رأي بشر، قابل للصواب والخطأ. وهذا هو موقف المجتهدين الكبار، فلم يروا أنفسهم معصومين، بل قال أبو حنيفة: فقهنا هذا رأي، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه(١). وقال مالك: كلُّ أحد يؤخذ من كلامه ويُرد عليه، إلَّا صاحب هذا القبر. وأشار إلى القبر النبوي، فقد كان يعلِّم النَّاس في مسجده ﷺ(٢).

(١) إعلام الموقعين (٦٠/١)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٣٠٢/١٨).

QaradawiBooks.com

وقال الشافعي: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب[1].

وهذا الاحتمال في الجانبين يقرِّب المسافة بين المختلفين، بل ذهب بعضهم إلى أنَّ نسبة الرأيين المختلفين إلى احتمال الصواب والخطأ واحدة، وأنَّ الصواب هو ما انتهى إليه رأي المجتهد، وأنَّه قد يتعدد، وهؤلاء هم الَّذين يسمِّيهم الأصوليون: «المصوِّبة».

وسمعت بعض الإخوة يقول: كيف يحتمل قولي الخطأ، وأنا أعمل بالحديث النبوي، فهل يخطئ الوحي؟

وقلت لهؤلاء: إنَّ الحديث وحي، ولكنَّ فهمك للحديث ليس وحيًا، بل هو رأي قد يخالفك فيه غيرك، كما خالف الصحابة في قصة بني قريظة لفظ الحديث، وصلَّوا العصر في الطريق، وقال ابن تيمية: إنَّ الصواب كان معهم[2].

وبعض الإخوة يقول ببطلان صدقة الفطر إذا أخرجها المسلم في عصرنا بالقيمة؛ لأنَّه خالف السُنَّة في رأيه. ورأيي أنَّ هذا المفتي هو الَّذي خالف السُنَّة، لأنَّ السُنَّة أرادت التيسير على المعطِي، والمنفعة للآخذ، وهو هنا يعسِّر على المعطِي، ويضرُّ بالآخذ، فقد خالف روح السُنَّة، وإنْ ظنَّ أنَّه عمل بجسمها.

---

(١) نقل ابن حجر الهيتمي أن ذلك مذهب الشافعية. الفتاوى الفقهية الكبرى (٣١٣/٤)، نشر المكتبة الإسلامية.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٥٣/٢٠)، تحقيق عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

إحسان الظن بالآخرين:

على أنَّ من الواجبات الَّتي يفرضها الدين على النَّاس كافة، وعلى الداعي إلى الإسلام خاصَّة: أنْ يحسن كلٌّ منهم الظن بأخيه، ولا يسيء به الظن؛ فإنَّ بعض الظن إثم، وهو ظنُّ السوء. وقد قال ﷺ: «**إياكم والظن، فإنَّ الظن أكذب الحديث**»(١).

ومن أعظم خصال الخير: حسن الظن بالله تعالى، وحسن الظن بالناس.

ومن أسوأ خصال الشر: سوء الظن بالله سبحانه، وسوء الظن بالناس.

فينبغي أن يحمل المسلم حال أخيه ـ وخصوصًا إذا كان من أهل الدعوة ـ على الصلاح، ويفسِّره على أفضل وجه محتمل، ويلتمس له العذر ما استطاع؛ فالمؤمن أبدًا يلتمس المعاذير، والمنافق يتصيَّد العيوب.

وقد كان من كلام السلف: ألتمس لأخي من عذر إلى سبعين، ثمَّ أقول: لعل له عذرًا آخر لا أعرفه(٢). فهذا هو الَّذي يجب أنْ يسود جو الدعاة إلى الإسلام، لا جو الكيد بعضهم لبعض، ومحاولة كل منهم أن يبني نفسه على أنقاض إخوانه. فإنَّهم جميعًا ركاب سفينة واحدة،

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٤٣)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في مداراة النَّاس (٤٠)، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، نشر دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تتغيَّر عليها الرياح من ريح طيبة إلى ريح عاصف، ويحيط بها الموج من كل مكان. فإذا نجت السفينة نجت بكل من فيها، وإذا غرقت غرق معها الجميع.

فلتختلف الاجتهادات، ولتختلف المواقف والسياسات، ولكن لا يجوز أنْ يؤدي ذلك الاختلاف المشروع إلى التفرُّق الممنوع.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

٣
تحدِّي العولمة

وثالث التحدِّيات الكبرى الَّتي نواجهها، هـو: تحدِّي «العولمة» الَّتي يروَّج لها اليوم، والَّتي تقوم أمريكا بتصنيعها وتسويقها، وقد أمست حديث النَّاس في مشرق ومغرب، شأن كل ما يصدر عن أمريكا من سلع وأفكار.

ويتساءل الكثيرون: ما موقفنا من «العولمة» المطروحة اليوم على كل صعيد؟ وقبـل أن نجيب عن هـذا التسـاؤل، لا بدَّ أنْ نحـدِّد مفهوم «العولمة» وماذا يراد منه؟ فالتعبير نفسـه جديد على لغتنا، وهو مترجم قطعًا، كما سنرى.

والعولمة مصطلح من المصطلحات الَّتي شاعت بيننا في هذه السنين الأخيرة، مثل الحداثة، وما بعد الحداثة، وما بعد الاسـتعمار، وما بعد الإمبريالية، وغيرها.

والمعروف أنَّ «العولمة» مصدر على وزن «فوعلة» مشـتق من كلمة «العالَم»، كما يقال «قولبة» اشتقاقًا من كلمة «قالَب».

فالتعبير صحيح من الناحية اللغوية، ولكن يبقى علينا أنْ نعرف معناه والمقصود منه، حتَّى يمكننا الحكم عليه، فالحكم على الشيء فرع عن تصوُّره، كما قال قديمًا علماء المنطق.

QaradawiBooks.com

العولمة: تعني في نظر البعض: إزالة الحواجز والمسافات بين الشعوب بعضها وبعض، وبين الأوطان بعضها وبعض، وبين الثقافات بعضها وبعض. وبذلك يقترب الجميع من «ثقافة كونية» و«سوق كونية» و«أسرة كونية». ويعرِّفها بعضهم بأنَّها تحويل العالم إلى «قرية كونية».

ويرى العالم الاقتصادي والاجتماعي المعروف الدكتور جلال أمين: أنَّ لفظ «العولمة» حديث، ولكن الظاهرة نفسها قديمة جدًّا. يقول: فإذا نحن فهمنا «العولمة» بمعنى: التضاؤل السريع في المسافات الفاصلة بين المجتمعات الإنسانيَّة، سواء فيما يتعلَّق بانتقال السلع أو الأشخاص أو رؤوس الأموال، أو المعلومات، أو الأفكار، أو القِيَم، فإنَّ العولمة تبدو لنا وكأنَّها تعادل في القدم نشأة الحضارة الإنسانيَّة[1] اهـ.

ويبدو من صيغة التعريف أنَّ الدكتور أمين يتحدث عن «التعولم» لا عن «العولمة»، والتعولم هو أثر العولمة أو هو مصدر «الفعل المطاوع» للعولمة، مثل «التعلم» هو مصدر فعل مطاوع لـ «التعليم».

فالتضاؤل السريع في المسافات، الَّذي ذكره الدكتور أمين، إنَّما هو أثر، والعولمة إنَّما هي تأثير قاصد، وهذا هو الَّذي يجري الحديث عنه اليوم.

ويمكن تصحيح التعريف المذكور للعولمة إذا أضيفت إليه عبارة، مثل: العمل على التضاؤل السريع، إلخ.

ويعرف الدكتور محمَّد عابد الجابري «العولمة» بقوله: «العولمة» ترجمة لكلمة (Monodialisation) الفرنسيَّة الَّتي تعني جعل الشيء على

(١) انظر: مقدمة العولمة والتنمية العربية من حملة نابليون إلى جولة الأورغواي للدكتور جلال أمين صـ ٧، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٢، ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

مستوى عالمي، أي نقله من المحدود المراقب إلى اللامحدود الَّذي ينأى عن كل مراقبة. والمحدود هنا هو أساسًا الدولة القوميَّة الَّتي تتميَّز بحدود جغرافية وبمراقبة صارمة على مستوى الجمارك: تنقل البضائع والسلع، إضافة إلى حماية ما بداخلها من أي خطر أو تدخل خارجي، سواء تعلق الأمر بالاقتصاد أو بالسياسة أو بالثقافة. أما اللامحدود فالمقصود به «العالم»، أي الكرة الأرضية؛ فالعولمة إذن تتضمن معنى إلغاء حدود الدولة القوميَّة في المجال الاقتصادي «المالي والتجاري» وترك الأمور تتحرك في هذا المجال عبر العالَم وداخل فضاء يشمل الكرة الأرضية جميعها، ومن هنا يطرح مصير الدولة القوميَّة، الدولة/ الأمة، في زمن تسوده العولمة بهذا المعنى.

على أنَّ الكلمة الفرنسية المذكورة إنَّما هي ترجمة لكلمة (Globalization) الإنكليزية الَّتي ظهرت أوَّل ما ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكيَّة، وهي تفيد معنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل. وبهذا المعنى يمكن أن نحدس، أو على الأقل نفترض، أنَّ الدعوة إلى العولمة بهذا المعنى إذا صدرت من بلد أو جماعة فإنَّها تعني تعميم نمط من الأنماط الَّتي تخصُّ ذلك البلد أو تلك الجماعة وجعله يشمل الجميع: العالم كله.

من هنا نستطيع أن نحدس، منذ البداية، أنَّ الأمر يتعلق بالدعوة إلى توسيع النموذج إلى العولمة قد ظهرت فعلًا في الولايات المتحدة الأمريكيَّة بهذا المعنى، في أوساط المال والاقتصاد، فإنَّ لنا أن نستنتج أنَّ الأمر يتعلق ليس فقط بآلية من آليات التطور الرأسمالي الحديث، بل أيضًا بالدعوة إلى تبني نموذج معين، وبالتالي فالعولمة هي، إلى جانب

QaradawiBooks.com

كونها نظامًا اقتصاديًّا هي أيضًا أيديولوجيًّا تعكس هذا النظام وتخدمه وتكرِّسه، وهناك من الكتّاب من يقرن بينها وبين «الأمركة»، أي نشر وتعميم الطابع الأمريكي(١).

بين العولمة والعالميَّة:

وربما كان معنى العولمة في ظاهرة يقترب من معنى «العالميَّة» الَّذي جاء به الإسلام، وأكَّده القرآن في سوره المكية، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ [صَ: ٨٧، ٨٨].

ولكن هناك في الواقع فرق كبير بين مضمون «العالميَّة» الَّذي جاء به الإسلام، ومضمون «العولمة» الَّتي يدعو إليها اليوم الغرب عامة، وأمريكا خاصَّة.

فالعالميَّة في الإسلام تقوم على أساس تكريم بني آدم جميعًا ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. فقد استخلفهم الله في الأرض، وسخَّر لهم ما في السماوات وما في الأرض، جميعًا منه. وكذلك على أساس المساواة بين النَّاس في أصل الكرامة الإنسانيَّة، وفي أصل التكليف والمسؤوليَّة، وأنَّهم جميعًا شركاء في العبوديَّة لله تعالى، وفي البنوَّة لآدم، كما قال الرسول الكريم أمام الجموع الحاشدة في حجة الوداع: «**يا أيُّها الناس، ألا إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على**

(١) انظر: قضايا في الفكر المعاصر للجابري صـ ١٣٦، ١٣٧، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

أعجمي، ولا أعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلَّا بالتقوى»(١).

وهو بهذا يؤكِّد ما قرَّره القرآن في خطابه للناس كل الناس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولكن القرآن في هذه الآية الَّتي تقرِّر المساواة العامَّة بين البشر، لا يلغي خصوصيَّات الشعوب، فهو يعترف بأنَّ الله تعالى جعلهم «شعوبًا وقبائل» ليتعارفوا.

أما «العولمة» فالذي يظهر لنا من دعوتها حتَّى اليوم: أنَّها فرض هيمنة سياسيَّة واقتصاديَّة وثقافيَّة واجتماعيَّة من الولايات المتحدة الأمريكيَّة على العالم، وخصوصًا عالم الشرق، والعالم الثالث، وبالأخص العالم الإسلامي. الولايات المتحدة بتفوُّقها العلمي والتكنولوجي، وبقدرتها العسكريَّة الهائلة، وبإمكاناتها الاقتصاديَّة الجبارة، وبنظرتها الاستعلائية الَّتي ترى فيها نفسها أنَّها سيدة العالم.

إنَّها لا تعني معاملة الأخ لأخيه، كما يريد الإسلام، بل ولا معاملة الند للند، كما يريد الأحرار والشرفاء في كل العالم، بل تعني معاملة السادة للعبيد، والعمالقة للأقزام، والمستكبرين للمستضعفين.

العولمة في أجلى صورها اليوم تعني: «تغريب العالم» أو بعبارة أخرى: «أمركة العالم». إنَّها اسم مهذب للاستعمار الجديد، الَّذي خلع

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٦٢٢): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. عمن سمع خطبة النبي ﷺ.

QaradawiBooks.com

أردِيَته القديمة، وترك أساليبه القديمة، ليمارس عهدًا جديدًا من الهيمنة تحت مظلة هذا العنوان اللطيف «العولمة». إنَّها تعني فرض الهيمنة الأمريكيَّة على العالم، وأي دولة تتمرد أو تنشز، لا بدَّ أنْ تؤدب، بالحصار، أو التهديد العسكري. أو الضرب المباشر، كما حدث مع العراق والسودان وإيران وليبيا. وكذلك تعني: فرض السياسات الاقتصاديَّة الَّتي تريدها أمريكا عن طريق المنظمات العالميَّة الَّتي تتحكم فيها إلى حدٍّ كبير، مثل البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالميَّة، وغيرها.

كما تعني: فرض ثقافتها الخاصَّة، الَّتي تقوم على فلسفة المادِّيَّة والنفعية وتبرير الحرِّيَّة إلى حدِّ الإباحيَّة، وتستخدم أجهزة الأمم المتحدة لتمرير ذلك في المؤتمرات العالميَّة، وتسوق الشعوب إلى الموافقة على ذلك بسياط التخويف والتهديد، أو ببوارق الوعود والإغراء.

وتجلَّى ذلك في «مؤتمر السكان» الَّذي عقد بالقاهرة في صيف (١٩٩٤م). والَّذي أريد فيه أنْ تمرَّر وثيقة تبيح الإجهاض بإطلاق، وتجيز الأسرة الوحيدة الجنس (زواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء)، وإطلاق العنان للأولاد في السلوك الجنسي، والاعتراف بالإنجاب خارج إطار الزواج الشرعي، إلى غير ذلك من الأمور الَّتي تخالف الأديان السَّماوية كلها، كما تخالف ما تعارفت عليه مجتمعاتنا، وغدا جزءًا من كينونتها الروحيَّة والحضاريَّة.

ومن هنا وجدنا الأزهر الشريف في مصر، ورابطة العالم الإسلامي في مكة، وجمهوريَّة إيران الإسلاميَّة، والجماعات الإسلاميَّة المختلفة، تقف جنبًا إلى جنب مع الفاتيكان ورجال الكنيسة، لمقاومة هذا التوجه

QaradawiBooks.com

المدمِّر، إذ شعر الجميع أنَّهم أمام خطر يهدد قِيَم الإيمان بالله تعالى ورسالاته، والأخلاق الَّتي بعث الله بها رسله عليهم السلام.

كما تجلَّت هذه العولمة في «مؤتمر المرأة» في بكين سنة (١٩٩٥م)، وكان امتدادًا لمؤتمر القاهرة وتأكيدًا لمنطلقاته، وتكميلًا لتوجهاته.

وهذه قضيَّة في غاية الأهمية «الاعتراف بالخصوصيات» حتَّى لا يطغى بعض النَّاس على بعض، ويحاولوا محو هويتهم بغير رضاهم.

بل نجد الإسلام يعترف باختلاف الأمم، وحقِّ كلِّ أُمَّة في البقاء حتَّى في عالم الحيوان، كما جاء في حديث النبي ﷺ: «**لولا أنَّ الكلاب أُمَّة من الأمم لأمرت بقتلها**»[1]. وهو يشير إلى ما قرَّره القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

وإذا خلق الله أُمَّة مثل أمة الكلاب، فلا بدَّ أن يكون ذلك لحكمة، إذ لا يخلق سبحانه شيئًا إلاَّ لحكمة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]؛ فلا يجوز إذن حذف هذه الأُمَّة المخلوقة من خارطة الوجود؛ فإنَّ هذا تطاول واستدراك على خلق الله عز وجل.

إذا كان هذا في شأن الأمم الحيوانية، فما بالك بشأن الأمم الإنسانيَّة؟ إلَّا أنْ ترتضي أُمَّة باختيارها الانصهار في أُمَّة أخرى: في دينها ورسالتها ولغتها، كما فعلت مصر وبلاد شمال أفريقيا وغيرها، حين

(١) رواه أحمد (١٦٧٨٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الصيد (٢٨٤٥)، والترمذي في الأحكام (١٤٨٦)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الصيد (٣٢٠٥)، عن عبد الله بن مغفل. وانظر تعليقنا على هذا الحديث في كتابنا: السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة صـ ١٤٦، ١٤٧، ط ٤، نشر دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

اختارت الإسلام دينًا، والعربيَّة لغة، بل أصبحت عضوًا مهمًّا في جسم هذه الأُمَّة، بل لها دور القيادة في كثير من الأحيان.

إنَّ «العولمة» كما تُطرح اليوم، إنَّما تصبُّ في النهاية لصالح الأقوياء ضدَّ الضعفاء، ولكسب الأغنياء ضدَّ الفقراء، ولمصلحة الشمال الغني ضدَّ الجنوب الفقير.

وهذا طبيعي، لأنَّ التكافؤ مفقود في حلبة المصارعة أو الملاكمة، بين الأوزان الثقيلة والأوزان الخفيفة، بل بين المصارع المدرَّب الممارِس، وبين خصمه الضعيف الَّذي سيسقط لا محالة في بداية اللقاء من أوَّل ضربة.

وماذا يمكن أنْ نتصوَّر من نتائج سباق يفتح ميدانه لمن يريد المشاركة فيه؟ كيف يكون مصير من يركب الجمل أو الحمار إذا سابق من يركب السيارة؟

إنَّ فتْح الأبواب على مصاريعها ـ بدعوى العولمة ـ في مجالات التجارة والاقتصاد، والتصدير والاستيراد، أو في مجالات الثقافة والإعلام، سيكون لحساب القوى الكبرى، والدول الَّتي تملك ناصية العلم والإعلام الجبار والتكنولوجيا العالية المتطورة، ولا سيَّما الدولة الأكبر قدرة، والأشد قوة، والأعظم نفوذًا وثروة، والأقدر والأوسع في عالم المعرفة، وهي أمريكا.

أمَّا بلاد «العالم الثالث» كما يسمُّونها، وخصوصًا «البلاد الإسلاميَّة» منها، وهي ما أطلق عليه المفكر الجزائري مالك بن نبي رَحِمَهُ اللَّهُ «محور طنجة ـ جاكرتا»، فليس لها من هذا السباق العالمي، إلَّا بقايا ما يفضل من الأقوياء، إن بقي لديهم ما يجودون به من فتات على الآخرين.

QaradawiBooks.com

إنَّه الاســتعمار القديم بوجه جديد، واسم جديد. إنَّ الاستعمار يغيِّر لونه كالحرباء، ويغيِّر جلده كالثعبان، ويغيِّر وجهه كالممثل، ويغير اسمه كالمحتال، ولكنَّه هو هو، وإنْ غيَّر شــكله، وبدَّل اســمه: اســتكبار في الأرض بغير الحق، وعلُوٌّ كعلوِّ فرعون فــي الأرض، والَّذي جعل أهلها شيعًا، يستضعف طائفة منهم. ولكنَّ الاستعمار الجديد الَّذي يريد العلوَّ والفســاد في الأرض كافة، لا يســتضعف طائفة، بل يستضعف شعوب الأرض، لمصلحة أقلية ضئيلة منهم.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

موقفنا من العولمة

ثلاثة مواقف من العولمة:

وللناس من العولمة مواقف ثلاثة، طرفان وواسطة، شأن النَّاس في معظم القضايا الكبيرة، إما مُفرطون أو مفرِّطون أو متوسطون.

فأما الطرف الأوَّل فهو طرف المندفع إلى العولمة، المتحمس لها، السابح في تيارها، ممَّن يتعاملون معها بغير قيود ولا تحفظ. كالذين ذكر عنهم الحديث النبوي أنَّهم يتبعون سَنَن غيرهم من الأمم، شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتَّى لو دخل الآخرون جُحْر ضبٍّ لدخلوه[1].

وهذا موقف الغلاة من دعاة «التغريب» ودعاة «التطبيع» في عالمنا العربي والإسلامي.

وأما الطرف الآخر، فهم عكس هؤلاء، يهربون من المواجهة، ويلوذون بالصومعة، وينكفئون على الذات، في عزلة وتقوقع، وغيبة عمَّا يدور به الفَلك حولهم في دنيا الفكر، ودنيا الاقتصاد، ودنيا السياسة، وغيرها، مؤمنين بسياسة إغلاق الأبواب، الَّتي تهب منها الرياح، خشية أنْ تحمل هذه الرياح بعض الأتربة أو الأهوية الضارة، مع أنَّ الحاجة إلى هذه الرياح مؤكدة.

(١) سبق تخريجه صـ٢٠٢.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

وهذا هو موقف كثير من الخائفين من اللقاء مع الآخرين، من المتمسكين بكل قديم، والمتوجسين من كل جديد.

وأمَّا الواسطة، فهو الموقف المقبول، الَّذي يمثل المنهج الوسط للأُمَّة الوسط. إنَّه موقف المؤمن القوي البصير المنفتح، المعتز بهويته، الواعي لرسالته، المتمسِّك بأصالته، المؤمن بعالميته، المغالي بثقافته، وحضارة أُمَّته، الَّذي لا يفرُّ من المواجهة، ولا يخاف من الحوار، بل ينطلق من أفق واسع، ويقف على أرض صلبة. يأخذ ويعطي، ويستقبل ويرسل، ولا يفرِّط في خصائصه الذاتيَّة، ولا مقوماته الأساسيَّة.

وهذا هو موقف تيار الوسطيَّة والاعتدال من الإسلاميِّين ومن القوميِّين والوطنيِّين، الَّذين آمنوا بربِّهم وبأنفسهم وأمَّتهم، وعلموا أنَّهم لا يمكن أن يعيشوا وحدهم.

خلاصة موقفنا من العولمة:

الواقع أنَّنا لا نملك أنْ نفر من هذه «العولمة» فيبدو أنَّها قدر مفروض علينا في هذه المرحلة. وليس في استطاعتنا رفضها أو الهرب من حصارها وضغطها.

كما أنَّه لا ينبغي لنا أنْ نتقبَّلها كما هي، ونستسلم لها مطأطئي الرؤوس، قائلين: سمعنا وأطعنا.

لا بدَّ أن نتحرك ـ عربًا ومسلمين وأفارقة ودول عدم الانحياز، وكل الفقراء والمستضعفين في الأرض ـ لنحمي أنفسنا من هذا الغزو الجديد، بالتماسك والتناصر والتكتل. ولا بدَّ من توعية شعوبنا وتحصينها عقائديًا

QaradawiBooks.com

وفكريًّـا وثقافيًّا، حتَّى لا تنسـاق وراء هـذه الهجمة الجديـدة، وتفقد خصوصيتها ومشخصاتها.

الموقف اللائق بنا هو «الموقف الوسط» الَّذي يجتهد أنْ يستفيد من إيجابيات هـذه العولمة وانفتاحهـا، ويأخذ خير ما فيهـا، وأن يجتنب سلبياتها المادِّيَّة والمعنويَّة، متحصِّنين بإيماننا، معتزِّين بأنفسنا، عاملين بكل ما نستطيع لتطوير قدراتنا، وتحسـين إمكاناتنا، حتَّى يكون يومنا خيرًا من أمسنا، وغدنا خيرًا من يومنا.

ومعنى ذلك: أنْ نطوِّر علومنا، ونطوِّر أعمالنا، ونطوِّر مواردنا، ونطوِّر زراعتنا، ونطور صناعتنا، ونطور إدارتنا، وقبل ذلك كله نطور إنسـاننا، الَّذي هو الوسـيلة والغاية للتنميـة والتقدم، وأن نسـعى لتحقيق ذلك منفردين ومجتمعين. حتَّى نقوم بدورنـا في هذا العالم ولا نظل عالة أو كلًّا على غيرنا.

يقول الدكتور جلال أمين في خاتمة كتابه عن «العولمة»:

«أصابـت العولمة دولتنـا القوميَّـة بالتدهور والضعـف عن طريق الاسـتعمار المباشـر أولًا، ثمَّ عن طريق مختلف وسـائل فرض النفوذ والسيطرة الاقتصاديَّة في مرحلة ما بعد الاستقلال الصوري، ثمَّ عن طريق ما فرضته وتحاول ترسـيخه مؤسسـات التمويل الدوليَّة من سياسات، أشهرها سياسة التكييف الهيكلي والتثبيت الاقتصادي، وأخيرًا عن طريق اسـتدراج دولنا إلى الارتبـاط الجبـري باتفاقيات دوليـة، كان آخرها وأشـهرها تلك الناجمة عن جولة الأوروغـواي. كان الضعف والهوان اللـذان أصابا الدولة القوميَّة فـي المنطقة العربيَّة في عصر الاسـتعمار واضحين وضوح الشمس، إذ لم يكن ما حدث إلَّا إحلال دولة استعمارية

QaradawiBooks.com

محل أخــرى، ولكن الضعف والهوان كانا شــديدين أيضًا حتَّى في ظل الاستقلال الصوري، وإن كان فرض الإرادة والتحكم في الدول القوميَّة في ظل هذا الاســتقلال أنعم ملمسًــا وأرق مظهرًا. ولم يتبدل الضعف والهوان في ظل السياســات الاقتصاديَّة الجديــدة، واتفاقيات «التحرير» الأخيرة، وإنَّما زاد المظهر رقة والملمس نعومة.

والمحبِّذون والمتحمسون للسير في هذا الطريق يعدون البلدان العربيَّة بأنَّ هذه السياسات الجديدة ســوف تحقق آمالهم في التصنيع، والنهوض بأحوال الفقراء، ولن تشــكل خطرًا على الثقافــة الوطنيَّة. وفي هذا يتخذ كثير من المحللين العرب، للأســف، الموقف نفســه، ولكن الزعم نفسه قديم، ســمعناه من قبل ولم يتحقق. لقد قال المســتعمرون الأوائل كلامًا مشابهًا عندما قدِمُوا إلى بلادنا لأول مرَّة منذ قرنين، تحت شعار التمدين ونقل الحضــارة. وقاله خلفاؤهم في منتصف القرن الحالي تحت شــعار التنمية الاقتصاديَّة. ثمَّ قالوه مرَّة أخرى في الثمانينات تحت شعار إصلاح ما أفسده الماضي والتصحيح الهيكلي. ويقولونه الآن تحت شعار العولمة.

شــعار العولمة جديد، لكن الظاهرة قديمة. وهي لــم تخل في أي مرحلة مــن تاريخها من نفع، ولكــن النفع يعود أغلبــه على مركز بثها وإشاعتها، وأغلب أضرارها تعود على الأطراف، ومن بين هذه الأطراف بالطبع المنطقة العربيَّة. وهي ظاهرة حتمية بمعنى أنَّ تقارب أجزاء العالم وتضاؤل المســافات الفاصلة بين جزء وآخر من العالــم، ماديًا وفكريًا، لا مجال لوقفه أو صدِّه، ولكن مــن الممكن دائمًا أن تحقق أُمَّة من أمم الأطراف نهضة تحولها من طرف سلبي في التعامل الدولي إلى قوَّة فاعلة وإيجابيَّة» اهـ.

QaradawiBooks.com

وأقول للدكتور أمين: إنَّ كلامــه صحيح، ولكن «الدولة» القوميَّة لن تســتعيد قوتها، ما لم تســتعد «الأُمَّة» ذاتُها قوَّتَها. فإنَّما قوَّة الدولة بقوَّة شعوبها، فالشعوب الميتة لا تقيم دولة حية، والشعوب الضعيفة لا تبني دولة قوية، كما في الأثر المشهور: «كما تكونوا يُولَّ عليكم»[1].

إعادة التوعية للأُمَّة:

وممَّا يفيدنا هنا أنْ نعلم أنَّ أمتنا حية لا تموت، ولكنَّها تنام أو تنوَّم، فعلينا أنْ نوقظها من سباتها، وننبِّهها من غفلتها، ونعيد إليها وعيها بذاتها وبرسالتها، وبدورها المنشود لنفســها ولغيرها، فهي أُمَّة عالميَّة، أُمَّة لم تخرج لنفســها، وإنَّما ﴿أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ لنفع النــاس، ولهداية الناس، ولخير الناس.

ولن تســتطيع أمتنا أنْ تُقدِّم الخير لغيرها قبل أن تقدِّمه لنفسها. فإنَّ إصلاح الداخل مطلوب قبل إصلاح الخارج.

يجب أنْ نعيــد توعية شــعوبنا توعية بصيــرة ســليمة، بعيدة عن الرومانســية والمبالغة والتهوين والتهويل. يجب أنْ نتخلى عن الظواهر السلبية في تفكيرنا وسلوكنا، مثل الاكتفاء بالتغني بأمجاد ماضينا التليد، والبكاء على أطــلال حضارتنا الزاهرة، ومثل شــتم الغــرب ومهاجمة حضارته الماديَّة الآلية؛ فإنَّ مجــرد التمدُّح بمآثر الماضي لا ينفع إذا لم

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٥٧٧)، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (٨٣٥): في ســنده مجاهيل. عن أبي بكرة. ورواه البيهقي في شــعب الإيمان (٧٠٠٦) وقال عقبه: هذا منقطع وراويه يحيى بن هاشم وهو ضعيف. عن أبي إسحاق السبيعي مرسلًا. وقال الزركشي في اللآلئ المنثورة صـ ٢١٥ ـ ٢١٦: أخرج الطبراني معناه بطرق عن عمر بن الخطاب وكعب الأحبار والحسن.

QaradawiBooks.com

يُحْي الحاضر، والبكاء على الأطلال هو من عمل الشعراء العاطفيين، وليس من عمل البنائين للحضارات، وسبُّ الآخرين ـ ولو كانوا مسيئين ـ لا يغنينا في شيء ما لم نَفُقْهم ـ أو على الأقل نكافئهم ـ بعملنا وجهودنا. والحديث الشريف يُعلِّمنا ـ بدل أنْ نسبَّ الشيطان ـ أنْ نقول: بسم الله(١)! سبُّ الشيطان عمل سلبي، أما ذكر اسم الله لنستمد منه القوة، فهو عمل إيجابي.

يجب أنْ نصنع لأنفسنا مجدًا جديدًا بأيدينا وعقولنا، كما صنع آباؤنا من قبل، أيام عصورنا الذهبية. وننشد معًا قول الشاعر:

إنَّا وَإنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنَا لَسْنَا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي، وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا(٢)

يجب علينا أنْ نملأ قلوب أبنائنا بالإيمان والأمل والعزم، والثقة بالله ثمَّ بأنفسهم، والتخلص من أسطورة الزعيم الملهم والقائد الَّذي لا يخطئ، والاعتماد على سواعد الشعوب والجماهير، فهي الَّتي تصنع التاريخ.

يجب أنْ نكون شجعانًا ونعترف بعللنا النفسيَّة، وآفاتنا العقليَّة، وانحرافاتنا السلوكيَّة، وأمراضنا الاجتماعيَّة، وسلبياتنا الاقتصاديَّة، وخطايانا السياسيَّة.

---

(١) إشارة إلى حديث: «**لا تقُلْ: تَعِسَ الشيطانُ، فإنَّكَ إذا قلتَ: تَعِسَ الشيطانُ، تعاظم الشيطانُ في نفْسه، وقال: صرعته بقُوَّتي. فإذا قلتَ: باسم الله، تصاغرت إليه نفسه حتى يكون أصغر من ذباب**». رواه أحمد (٢٠٥٩١)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٢)، والحاكم في الأدب (٢٩٢/٤)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٨١٩)، عن رديف النبي ﷺ.

(٢) هو المتوكل الليثي. انظر: شرح ديوان الحماسة للتبريزي (٣٦٥/٢)، نشر دار القلم، بيروت.

QaradawiBooks.com

واعترافنا بها لا يعني استسلامنا لها، وقنوطنا من علاجها، فما من داءٍ إلَّا له دواء، وما من عقدة إلَّا ولها حلَّال. وإذا عرفنا الأسباب أمكننا تشخيص الداء، ووصف الدواء.

وأول خطوة في العلاج أنْ نعرف الخلل في أنفسنا، ولا نحمل كل فساد على غيرنا، وأنْ نعمل جاهدين لتغيير ما بأنفسنا، وبهذا تتغيَّر حياتنا، ويتغيَّر مجتمعنا وَفْق السُّنَّة الإلٰهيَّة المُطَّردة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

غير مرخصة للطباعة

ضرورة الدين في حياتنا:

هناك بعض النَّاس الَّذين يُسمَّون بـ «الحداثيِّين» أو «التقدميِّين» أو ما شابه ذلك، يرون أن لا تقدُّم ولا نمو لنا إلَّا بحذف «الدين» من حياتنا.

وأنا أقول لهؤلاء: إنَّ حذْف الدين من حياة الإنسان غير ممكن، ولو أمكن، فهو غير مفيد، والإنسان بغير دينٍ إنسانٌ بلا جذور، ولا أمل، ولا غدٍ. إنسانٌ مكشوف مخترق من كل جانب، فقد اليقين والرضا، وحطَّمه الشك والسخط، وعاش في الحياة محرومًا من سرِّ الحياة وهو الدين.

ولو جاز لإنسان ما أنْ يستغني عن الدين، ما أمكن للإنسان العربي أو الشرقي أنْ يستغني يومًا عن الدين. فكيف إذا كان هذا الدين هو «الإسلام» الَّذي ختم الله به الرسالات، وضمَّنه من عناصر الخلود والشمول والعالميَّة، ما يجعله بحق دين البشريَّة في المستقبل، يصلح منها ما فسد، ويجدِّد منها ما بَلِي، بشرط أنْ يحسن المسلمون فهمه، ويحسنوا تطبيقه، ويحسنوا الدعوة إليه، وتقديمه للعالمين بلسان القرن الحادي والعشرين، حتَّى يفهموه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لهـذا كان علينـا أنْ نحذف «الفهم السـقيم» للدين، الَّذي شوَّشـه بخرافات فـي العقيدة، ومبتدعات فـي العبادة، وسـلبيات في التربية، وجمود في الفكر، وتفريط في السنن، وتقصير في الحياة.

على أنَّ الَّذين حاولوا أن يستغنوا عن الدين كالشيوعيِّين، صنعوا لهم دينًا آخر، له إلٰهه، وله شيطانه، وله أنبياؤه، وله مقدساته، وله عقائده، وله طقوسه، وله جنته وناره، فقد استغنوا عن الدين الحق بدين باطل و«بئس للظالمين بدلًا».

نحن ـ المسلمين ـ والغرب:

بقي علينـا أنْ نبيِّـن: ما موقفنا ـ نحن المسـلمين ـ مـن الغرب؟ وما علاقتنا به؟ أيمكن أن تكون العلاقة تعارف وتفاهم أم لا بدَّ أن تكون علاقة صراع وتصادم؟

إنَّ الإسلام رسالة عالميَّة، فلا فرق عنده بين غرب وشرق، فهو جزء من مملكة الله الواسـعة، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

والغربيون هم جزء من العالَمين الَّذين أرسل الله رسوله محمدًا رحمةً لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

مشكلة الغرب والإسلام:

ولكن المشـكلة تكمن في أنفس الغربيِّين أو ـ إذا أردنا الدقة ـ في أنفس الكثيرين منهم، وموقفهم من الإسـلام، فقد توارثوا عن الإسلام صورة شـائهة المنظر، دميمة الوجه، لا تمتُّ إلى الإسلام من قريب أو بعيد، ولا ترجع إليه في ورد ولا صدر.

QaradawiBooks.com

وهذه الصورة ورثوها منذ الحروب الصليبيَّة، حين قدمت جيوشهم من أوربا من حملات متواصلة، مكتسحة دول المنطقة الممزَّقة، مقيمة لها ممالك وإمارات. وقد انتصرت في أوَّل الأمر، ثمَّ لم تلبث أن هُزمت هزيمة ساحقة في معارك حطين، وفتح بيت المقدس، ومعركة المنصورة، وأسر «لويس التاسع» في دار ابن لقمان الشهيرة بالمنصورة.

وهذه الحروب كان لها آثارها النفسيَّة والعقلية، وكانت من أسباب نهضة الغرب بعد ذلك ممَّا اقتبسه من حضارة الشرق الإسلاميَّة. ولكنَّ رجال الدين صوَّروا الإسلام والمسلمين لعوام النَّاس صورة كريهة منفِّرة، لا تمت إلى حقيقة الإسلام بصلة، بيد أنَّها رسخت في الذهنية الغربيَّة، والنفسيَّة الغربيَّة، وتوارثها النَّاس جيلًا بعد جيل.

ولذلك ترى الغربي حين يتحدَّث عن الأديان الأخرى غير الإسلام، وعن الأمم الأخرى غير أُمَّة الإسلام، يتحلَّى بكثير من الموضوعية والإنصاف، فإذا تحدَّث عن الإسلام وعن حضارته وأمته، وقف موقفًا آخر، فيه كثير من التحيز والميل مع الهوى. وكان على من يريد الإنصاف منهم أنْ يتجرَّد من العقد الخبيثة الموروثة، ويتقمَّص شخصيَّة أخرى تغلِّب الموضوع على الذات، والحقَّ على العصبيَّة. وهذا ما اعترف به غوستاف لوبون، ومونتجومري وات وغيرهما.

لماذا ننفتح على الغرب؟

أما نحن المسلمين فنريد أنْ ننفتح على الغرب، ونجد من ديننا ما يحثنا على ذلك، ولا يحل أنْ ننغلق على أنفسنا، أو نعادي غيرنا. والَّذي يدعونا إلى ذلك جملة أمور:

QaradawiBooks.com

أولها: أنَّنا أصحاب رسـالة عالميَّة، جاءت لكل النَّاس في كل أنحاء الأرض. صحيح أنَّ كتاب الإسلام عربي، وأنَّ رسول الإسلام عربي، وأنَّ الإسلام نشأ في الشرق، ولكن لا يعني هذا أنَّ الإسلام لجنس خاص، أو لجهة معيَّنة، بل الإسلام لأهل الأرض جميعًا.

ولقد نشأت المسيحيَّة في الشرق، وانتشرت في أنحاء العالم.

ثانيها: أنَّ أسباب اللقاء والتقارب والتفاهم كثيرة ووفيرة، وقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالتعارف ـ لا التناكر ـ هو واجب شعوب الأرض جميعًا.

لسنا مع الأديب الأوربي الَّذي قال: الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا. فإنَّ اللقاء ممكن، بل واجب إذا صحَّت النيَّات، وصدقت العزائم.

ثالثها: أنَّ العالم تقارب جدًّا وخصوصًا بعد ثورة الاتِّصالات، والثورة الإلكترونيَّة، حتَّى قال بعض الكتاب: إنَّ العالـم أصبح قريتنا الكبرى. وأنا أقـول: إنَّ العالـم أصبح قرية صغـرى لا كبرى، فالقريـة الكبرى لا يعرف النَّاس في شرقها ما يجري في غربها إلَّا بعد يوم أو يومين، أو على الأقل بعد ساعات من وقوع الحادث.

أمـا العالم اليوم فيعـرف النَّاس ما يجـري في أي مـكان فيه بعد لحظات، وقد يتابع النَّاس الحادث أثناء وقوعه.

وكل هذا يحتِّم على أصحاب الأديان السماويَّة أنْ يتحاوروا، وعلى أصحاب الحضارات أنْ يتفاهموا. والحوار والتفاهم أولى من الخصومة والتنافر، ونحن المسـلمين مأمـورون ـ بنصوص قرآننـا ـ أنْ نحاور

QaradawiBooks.com

المخالفين بالتي هي أحسن، وخصوصًا «أهل الكتاب» منهم. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. يأمرنا القرآن هنا أنْ نركِّز على الجوامع المشتركة، أي على نقاط الاتفاق، لا نقاط التمايز والاختلاف، سعيًا إلى التفاهم، ما دمنا نؤمن جميعًا بالألوهيَّة الواحدة، وبالرسالات السماويَّة المنزلة من عند الله.

ماذا نطلب من الغرب؟

كل ما نطلبه من الغرب يتلخَّص في هذه الكلمات:

١ ـ أنْ يتخلى عن الأحقاد القديمة، فنحن أبناء اليوم لا بقايا الأمس.

٢ ـ وأنْ يتخلى عن الأطماع الجديدة والرغبة في السيطرة على بلادنا ومقدراتنا، فعصر الاستعمار قد ولَّى.

٣ ـ وأنْ يتبنى النظرة العالميَّة والإنسانيَّة الحقَّة، ويتخلى عن نظرة الاستعلاء، الَّتي كانت عند الرومان الَّذين يرون كل من عداهم برابرة.

٤ ـ وأنْ يتجرَّد من مخاوفه منا، فلسنا وحوشًا ولا أغوالًا، ولا سيَّما ونحن ـ منذ قرون ـ ضحايا ظلم الغرب.

٥ ـ أن يدَع لنا الحرِّيَّة في أن ننظِّم حياتنا وَفْق عقيدتنا إذا أرادت ذلك شعوبنا، ولا يتدخل في شؤوننا بفرض فلسفته علينا بالقوَّة أو بالحيلة. فنحن أحرار في ديارنا.

QaradawiBooks.com

٦ ـ لا داعي للغرب أنْ يتخذ منا «عدوًّا» يعبِّئ مشاعر أممه ضدنا، بعد سقوط الاتِّحاد السوفييتي، وأن يسمِّينا «الخطر الأخضر» بعد زوال «الخطر الأحمر» والتقاربِ مع «الخطر الأصفر».

إنَّ الإسلام ليس خطرًا إلَّا على الإباحيَّة والإلحاد، وعلى الظلم والاستعباد، وعلى الرذائل والفساد. وفيما عدا ذلك هو رحمة الله للعالَمين، والمسلمون هم دعاة الخير والمحبة والسلام للعالَم.

وإذا وجد في المسلمين أفراد أو فئات محدودة تستخدم العنف في غير موضعه، فهؤلاء لا يمثلون كل المسلمين، بل هم فئات صغيرة، ضخَّمها الإعلام الغربي نفسه. وغالبهم دفعتهم إلى التطرف مظالم الغرب وعدوانيته وتحيزه ضد المسلمين، ووقوفه أبدًا مع إسرائيل الغاصبة لديارهم، المشرِّدة لأهله. وشدَّة الضغط تُولِّد الانفجار.

نحن المسلمين تقر أعيننا، وتنشرح صدورنا إذا وجدنا من ينصفنا ومن ينظر إلينا نظرة خالية من التعصب، وإذا وجدنا ذلك نوَّهنا به، ورحَّبْنا بأهله، وفتحنا لهم قلوبنا وديارنا.

ويسرني أن أنقل هنا هذه الكلمات العاقلة العادلة المنيرة للأستاذ جيسلينج الَّذي ختم بها بحثه «الشرق والغرب وأزمة سوء الفهم بينهما» فقد قال: «إنَّني شخصيًّا مقتنع اقتناعًا تامًّا بأنَّ هناك أرضية مشتركة بين الغرب والعالم العربي، وبأنَّ العلاقات بين الطرفين يمكن أن تتطوَّر بطريقة بناءة ومثمرة، هذا إذا اعترف كل فريق بالقِيَم والمبادئ الَّتي يؤمن بها الفريق الآخر، وعندما نصل إلى المرحلة الَّتي يحترم فيها كل معسكرٍ معتقدات وقِيَم المعسكر الآخر، ويقبل حق الآخرين في الاختلاف معه،

QaradawiBooks.com

فمن الممكن أنْ يعني هذا بالنسبة للغربيِّين: أنَّه لا ينبغي عليهم أن يفرضوا قِيَمهم ونظرياتهم السياسيَّة على العالم العربي. وسوف يرتكب الغرب خطأً فادحًا، إذا حاول أن يفرض «نظاما عالميًّا جديدًا» على منطقة الشرق الأوسط. ذلك أنَّه إذا قدِّر لنظام عالمي جديد أن يظهر، فينبغي أن يكون مبنيًّا على التفاهم المتبادل بين الغرب والعرب. إنِّي آمل أن يتحقق ذلك فعلًا»[١].

* * *

(١) بحث الشرق والغرب وأزمة سوء الفهم الدائم بينهما صـ ٩٠، ضمن كتاب الإسلام في عيون السويسريين للأستاذ ثابت عيد، نشر دار بافاريا، ميونخ، ١٩٩٨م.

QaradawiBooks.com

خاتمة

نهاية التاريخ وصدام الحضارات

نهاية التاريخ:

حاول كثيرون أن يوقفوا عجلة التاريخ الدائرة والمستمرة، عند نقطة معينة، زيَّنتها لهم أفكارهم أو أهوائهم.

قال الماركسيون يومًا: إنَّ صراع الأضداد، أو النقائض الَّذي اعتبروه حتمية تاريخيَّة ـ وهي فكرة هيجيلية الأصل ـ سيظل قانونه ساريًا في الوجود، حتَّى يصل الشيوعيون أو ـ بعبارتهم ـ تصل طبقة البيروليتاريا إلى الحكم، وتتسلم مقاليد السلطة من الرأسماليين والبرجوازيين الأشرار، وعند ذلك تنحل كل العقد، وتنتهي كل المفرِّقات بين النَّاس من الدين والأسرة والطبقة والقوم، ويعيش النَّاس في ظل مساواة كاملة، تذوب فيها الفوارق بين الناس. ويقف التاريخ عند هذا الحد، ولا يتحرك إلى أمام ولا إلى خلف!

هذه هي «الجنة الموعودة» الَّتي وعد الشيوعيون بها النَّاس ـ بدلًا عن «جنة الخلد» الَّتي وعد الله بها عباده الصالحين في الآخرة كما يقول

QaradawiBooks.com

المؤمنون بالأديان ـ والَّتي لم يصل الموعودون بها في بلاد الشيوعيَّة إليها يومًا ما، ولم يجدوا ريحها، أو يقتربوا منها، بل عاشوا حياة أقرب ما تكون إلى الجحيم، فقد سلبوا الحرِّيَّة بحلم الحياة الطيبة، وبحلم المساواة التامة، ولم يحققوا هذه ولا تلك.

بل الواقع أنَّ كل الأيديولوجيَّات الوضعيَّة الَّتي اتَّخذها بعض النَّاس لتكون بديلًا عن الدين، وأرادت أن تجعل من الإنسان «حشرة اجتماعيَّة» أو نملة في «مجتمع النمل» كما يقول توينبي، قد سقطت وخاب سعيها، وبقيت حاجة الإنسان إلى الدين كما هي، بل ازدادت حاجة الإنسان إليه، في خضم تيار المادِّيَّة والنفعية، الَّذي مزَّق أواصر الناس، وجعل الإنسان يعيش لنفسه فقط، أي لنزواته وشهواته.

الذي يهمنا هنا: أنَّ الشيوعيِّين حلموا يومًا بإنهاء التاريخ أو إيقاف سيره عند مرحلة معينة، ثمَّ جاء التاريخ واكتسحهم، وكنسهم بمكنسته، وانتهى «الاتحاد السوفييتي» وسقطت الشيوعيَّة، وتبخَّرت أحلامها، وظلت عجلة التاريخ تدور.

ثم فاجأ العالم مفكر أمريكي ـ ياباني الأصل ـ هو فرنسيس فوكوياما، الَّذي ظهر على النَّاس بكتابه، الَّذي فجَّر في دنيا الفكر قنبلة مدوية، هو «نهاية التاريخ»، وهذا هو عنوان الكتاب، الَّذي ظهر في سنة (١٩٩٣م). وقد انتهى التاريخ ـ في رأيه ـ لحساب القوى الرأسماليَّة والليبراليَّة الديمقراطيَّة واقتصاد السوق الحرة، وأنَّ هذا ما يفرضه منطق العلوم الطبيعيَّة الحديثة، بعد أن أخفقت كل أشكال الحكم السابقة، لا سيَّما الشيوعيَّة، ووصل العالم بأسره إلى ما يشبه الإجماع بأنَّ الليبراليَّة الرأسماليَّة الديمقراطيَّة هي النظام الصالح للحكم.

QaradawiBooks.com

على أنَّ الأديان الكتابية الثلاثة: اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام، كلها تؤمن بنهاية التاريخ على غير ما ذكره فوكوياما. فهي جميعًا تنتظر «مسيحًا» يبعثه الله أو ينزل من السماء، ويقيم دين الله في أرض الله، وينشر العدل والخير، ويحارب الظلم والفساد.

ونحن المسلمين نؤمن بنزول المسيح في آخر الزمان، وأنَّه سيملأ الأرض عدلًا وخيرًا وبركة، وسيحكم بشريعة الإسلام، ولكنَّا لا نعرف متى يكون ذلك، فهو من علامات الساعة الكبرى الَّتي لا يعلم موعدها إلَّا الله تعالى.

وقد هلَّل المهلِّلون، وطبَّل المطبِّلون لهذا الكتاب عند ظهوره، واحتل مساحة واسعة في ساحة النقاش والجدل بين المثقفين في أنحاء العالم، بين مؤيد ومعارض.

هذا مع أنَّه يقوم على فرضية لم يسندها دليل قوي من علم أو منطق أو واقع. وفشل الشيوعيَّة ونظامها الاقتصادي والسياسي الاستبدادي، لا يكفي ليكون دليلًا على صواب مقابلها الرأسمالي الليبرالي.

ولم لا يكون هناك نظرية أخرى، مشروع آخر أو منهاج آخر، لا هو رأسمالي ولا شيوعي، ولا هو دكتاتوري ولا ليبرالي، بل يأخذ أفضل ما في المشروعين، ويتجنَّب أسوأ ما فيهما، فلا هو فردي ولا جماعي، وإنَّما هو نظام متوازن يقوم على الوسطية، والجمع بين الثنائيات أو المتقابلات الَّتي يحسب كثير من النَّاس التقاءها ضربًا من المحال، مثل المادِّيَّة والروحيَّة، والمثالية والواقعية، والربانيَّة والإنسانيَّة، والفرديَّة والجماعية، والدنيويَّة والأخروية، والقدرية والحرِّيَّة، والعقل والوحي، والنص والاجتهاد، والحق والواجب، والثبات والتطور؟

QaradawiBooks.com

وهذا هــو المنهج المتكامل الَّذي يقدِّمه الإســلام للبشــريَّة، رحمةً للعالمين، وهدايةً للحائرين، وعدلًا وإخاءً وسلامًا للناس أجمعين.

صدام الحضارات:

ولم تكد تمضي ســنتان على كتاب «فوكوياما» وما أحدث من ضجة وصخب في دنيا الفكر والثقافة والسياســة، علــى الطريقة الأمريكيَّة في الدعاية والإعــلان، والتهويــل والتضخيم، لتســويق كل ما هو أمريكي الصنع، في عالم الأشــياء، أو عالم الأفكار. حتَّى خطف الأضواءَ كتابٌ آخر لمؤلف آخر في الموضوع نفسه: الدراسات الاستراتيجيَّة والمستقبلية.

ذلك هو كتاب «صمويل هانتنغتون» أستاذ العلوم والسياسة بجامعة هارفارد الشهيرة، وأحد أســاتذة الدراسات الاســتراتيجيَّة القريبين من صناع القرار، بالإضافة إلى أنَّه يهودي. فانتقل الضجيج والبريق والوهج إلى المؤلف الجديد، والكتاب الجديد، الَّذي سمَّاه «صدام الحضارات» أو «صراع الحضارات».

ورغــم أنَّ الكتاب كان في أصلــه مقالة مطولة في مجلة «الشــؤون الخارجيَّة» القريبة مــن وزارة الخارجيَّة الأمريكيَّــة، إلَّا أنَّه أحدث هذا الدوي أو أريد له أن يحدث هذا الدوي، ويســحب البســاط من تحت «نهاية التاريخ». ولا غرو أنْ كثرت حوله المناقشات، وتوالت التعقيبات، ما بين مؤيد ومعــارض، كليًّا أو جزئيًّا، في أمريكا نفســها، وفي أوربَّا، وفي آفاق العالم، ومنه العالم العربي والإسلامي.

وهذا ما جعل الكاتــب ذاته يعقب على المعقبيــن، ويضيف أفكارًا جديدة علــى مقالته الأولى، أثرى بها كتابــه، واتضحت بها فكرته أكثر

QaradawiBooks.com

فأكثر. والآن نسأل: ما هدف الكتاب وفكرته الأساسيَّة؟ وما سبب إحداثه لكل هذا الصخب الَّذي كاد يصم الآذان؟

تقوم فكرة «هانتنغتون» على أنَّ التاريـخ لم ينته، ولم ينته الصراع فيه، ولم تغلق ملفاته، بسـقوط الاتِّحاد السـوفييتي، وسـقوط الخطر الشـيوعي معه، بل لا يزال في جعبة التاريخ سـهام لم يـرم بها بعد، ولا زال الصراع كامنًا، وأسـبابه قائمة، ولكن أسـباب الصراع ليست بسـبب الأيديولوجيات المختلفة والمتناقضة كالشـيوعيَّة الدكتاتورية، والرأسـماليَّة الليبراليَّة، ولا بسـبب المصالح الاقتصاديَّـة المتعارضة للدول المختلفة.

ولكن الصـراع الَّـذي يخبئه المسـتقبل سـيكون سـببه اختلاف الحضارات أو الثقافـات، وتناقضهـا. ومحاولة كل حضـارة أن تثبت وجودها، وتفرض رؤيتها للإنسان وللكون والدين والحياة والتاريخ.

ولقد بيَّن الكاتب أنَّ هناك حضارات سبعًا أو ثمانيًا، هي الَّتي يمكن أن يقوم بينها النزاع والصراع، في المستقبل، وهي: الحضارات الغربيَّة، والكونفشيوسـية، واليابانيـة، والإسـلاميَّة، والهنديَّـة، والسـلافية الأرثوذكسية، والأمريكيَّة اللاتينية، وربَّما الأفريقية.

كان الصراع والحروب قديمًا بين الملوك والأباطرة بعضهم وبعض بسـبب الأطماع والرغبة في التوسـع، ثمَّ بعد الثورة الفرنسـية أصبح الصراع والحروب بين الدول والأمم بسبب تعارض المصالح، ثمَّ صار بين الأمم ذات السياسات المختلفة مثل النازيَّة والفاشية وحلفائهما، ضد بريطانيـا وفرنسـا وروسـيا وأمريـكا، ثمَّ أصبح سـبب الصـراع بين

QaradawiBooks.com

الأيديولوجيات المتناقضة، مثل الرأسماليَّة والشيوعيَّة، كالنزاع بين أمريكا وحلفائها، وروسيا وحلفائها.

أما حروب المستقبل فيرى «هانتنغتون» ـ بعد سقوط دولة الشيوعيَّة وانهيار الاتِّحاد السوفييتي ـ أنَّها حروب حضارات متباينة، وخصوصًا الحضارات السبع المذكورة.

وقد لاحظنا ـ كما لاحظ بعض الباحثين[1] ـ أنَّه لا يوجد أساس واحد أو معيار واحد، بنى عليه المؤلف تصنيفه للحضارات.

فبعضها بناه على أساس جهوي، مثل الحضارة الغربيَّة.

وبعضها بناه على أساس إقليمي مثل الحضارة الهنديَّة والحضارة اليابانية، وحضارة أمريكا اللاتينية، وإن ضم إليها عنصرًا آخر مع الجهة، «اللاتينية».

وبعضها بناه على أساس ديني مثل الحضارة الإسلاميَّة، والحضارة السلافية الأرثوذكسية، وإن ضم إليها العرق مع الدين.

وبعضها بناه على أساس فلسفي مثل الحضارة الكونفشيوسية (وكونفيشيوس هو فيلسوف صيني أخلاقي).

وكأنِّي ألمح العنصر الديني مختفيًا وراء هذا التقسيم، وإن لم يُنبئ عنه الكاتب بصراحة، إلَّا بالنسبة للحضارتين: الإسلاميَّة، والأرثوذكسية.

فحضارة الهند هي حضارة الهندوس والديانة الهندوسية بمعبوداتها الوثنيَّة والحيوانية «كالأبقار» وفلسفتها البرهمية، وتقسيمها للناس إلى طبقات مفروضة عليهم قدرًا.

---

(١) انظر: قضايا في الفكر المعاصر للجابري صـ ١٠٣ ـ ١٠٥.

QaradawiBooks.com

وحضارة اليابان هي حضارة الديانة الشنتوية.

وكذلك حضارة الصين أقرب إلى ما تسمَّى «الحضارة البوذية» منها إلى الحضارة «الكونفيشيوسية».

والواقع أنَّ الدين هو أعظم المؤثرات في تكوين الحضارات أو الثقافات، وقد اعترف بذلك هانتنغتون نفسه حين ذكر مكونات الحضارة من اللغة والتاريخ والتقاليد، إلخ. ثمَّ قال: وأهمها الدين. فكشف بذلك عمَّا يُكِنُّه صدره من اعتبار الدين وراء هذا الصراع المرتقب، بل الحتمي في نظره.

وهو في هذا يتفق مع بعض المفكرين الغربيِّين الَّذين يرون «الدين» جوهر «الثقافة»، وأنَّ الثقافات تختلف أساسًا بمقدار اختلاف الأديان.

وممَّا يحمد لـ «هانتنغتون» أنَّه اعترف أنَّ في العالم حضارات مختلفة، يتميَّز بعضها عن بعض، وهذا أمر مهم. ويرد على الَّذين يزعمون أنَّه لا توجد اليوم إلَّا حضارة واحدة، أو ثقافة واحدة، هي الحضارة الغربيَّة، والثقافة الغربيَّة، على اعتبار أنَّ الثقافة هي الحضارة، أو هي جوهر الحضارة. فقد ادَّعى هؤلاء أنَّ الثقافة الغربيَّة أو الحضارة الغربيَّة، أصبحت ثقافة ـ أو حضارة ـ كونية، حضارة للعالم كله، غربه وشرقه، وشماله وجنوبه، كتابيه ووثنييه، مؤمنيه وملحديه. وعلى الجميع أنْ يولُّوا وجوههم شطر هذه الثقافة، ويكيِّفوا أنفسهم وفقًا لفلسفتها، ومفاهيمها وقيمها وتقاليدها وأنظمتها.

وهؤلاء قوم «مهزومون» في داخلهم، يريدون أن يبرِّروا الواقع، ويفلسفوا ويؤصِّلوا غلبة القوي، أو قوَّة الغالب.

QaradawiBooks.com

والواقع أنَّ هناك حضارات عدة في عالمنا، ولا تزال باقية وفاعلة إلى اليوم، لكل حضارة فلسفتها ونظرتها إلى الإنسان والكون والحياة، وإلى الدين والدنيا، ولها مصادرها، ولها أهلهـا، ولها تاريخها، ولها عطاؤها وتأثيرها الممتد من الأمس إلى اليوم.

ومن الخير أن نُقِرَّ بأنَّ لكل حضارة خصوصيتها، وأن نُبقِي على خير ما فيها، وأن نقتبس من إيجابياتها، ونتجنب سلبياتها، وألَّا نقهر أُمَّة على التخلي عن حضارتهـا، والانقطاع عن جذورهـا، ما لم تتحول هي من حضارة إلى أخرى باختيارها الحر، وإرادتها المسـتقلَّة، كما رأينا إيران قديمًا ـ بعد الإسـلام ـ تنتقل بكل حريتها من الحضارة الفارسـية إلى الحضارة الإسلاميَّة، وكما رأينا مصر كذلك تنتقل من الحضارة الفرعونيَّة والرومانية طائعة مختارة إلى الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، وكذلك شمال أفريقيا انتقل من الحضارة البربرية إلى الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة.

وممَّا يحمد لهانتنغتـون أيضًا: أنَّه اعترف بـ «الحضارة الإسـلاميَّة» كواحدة من أبـرز الحضارات القائمة والمؤثرة فـي العالم، وهي حقيقة لا ريب فيها، وهـي ترد على أولئـك المفتونين المطموسـين من بني جلدتنا، الَّذين يريدون لنا أنْ نقطع جذورنا، ونهدم أسـاس بنياننا، وأنْ ندَع حضارتنا مختارين، لنأخذ حضارة غيرنا لا سـيَّما الحضارة الغالبة والمنتصرة: حضارة الغرب، نأخذ منها الفلسـفة والمفاهيم، ونأخذ منها القيم والمعاييـر، ونأخذ منهـا الآداب والتقاليد، ونأخـذ منها الأنظمة والقوانين، فماذا بقي لنا من حضارتنا؟!

بل الواقع أنَّ كل ما ذكره «هانتنغتون» من حضارات، إنَّما يغطي به ما يهدف إليه بالفعل من الصراع المخبوء والمخوف، وهو الصراع

QaradawiBooks.com

مع الحضارة الإسلاميَّة، أو قل بصراحة مع الإسلام، كما ينكشف القناع بعد.

ولقد ذكر مؤلف «صدام الحضارات» في كتابه أنَّ سائر الحضارات ـ اليابانية والهنديَّة والسلافية الأرثوذكسية والأمريكيَّة اللاتينية ـ يسهل التفاهم والتقارب معها لأسباب شرحها، إلَّا حضارتين ناشزتين، هما الحضارة الإسلاميَّة والحضارة الكونفوشيوسية «الصينية». فإذا تفاهمتا أو تقاربتا أو اتفقنا ـ وهو أمر محتمل بل مرجح ـ كوَّنا خطرًا على الغرب، ليس بالهيِّن[1].

أهو صدام حضارات أم صدام مصالح أم صدام أديان؟

وقد ناقش كثيرون «هانتنغتون» معارضين له في صدام الحضارات، مبيِّنين: أنَّ الدافع الحقيقي وراء الحروب إنَّما هو مصالح الدول والقوى الكبرى، ومطامع الزعماء، وليس الخلاف الحضاري.

قال ذلك الدكتور بيكو المكلَّف بحوار الحضارات في الأمم المتحدة في لقائه بقناة الجزيرة، وقال ذلك الدكتور الجابري في تعقيبه على هانتنغتون وكتابه، وهذه عبارته: «لو أنَّ الكاتب كان يفكر في قضايا عصره من أجل فهمها، والتماس حلول تخدم صالح الإنسانيَّة ككل، مع افتراض أنَّه مقتنع فعلًا بأنَّ «صدام الحضارات» يتهدَّد الأمن العالمي في المستقبل، كان المفروض أن ينتهي هذا الكاتب إلى نتيجة يدعو فيها

(١) راجع: صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي لصمويل هانتنغتون، نشر مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ويتضمن ترجمة لمقالة هانتنغتون الصدام بين الحضارات، التي نشرت في دورية (فورين أفيرز) سنة ١٩٩٣م، والتعقيبات عليها من عدد من المفكرين.

QaradawiBooks.com

جميع الجهات، جميع الدول والأمم، إلى الوعي بهذا الخطر، ويطالبها بل ويقتــرح عليها اتخاذ التدابير الضروريَّــة الكفيلة بتلافي هذا الخطر الماحق. لكن صاحب المقالة سلك مســلكًا آخر معاكسًا تمامًا، فتعامل منذ البداية مع «الفرضية»، لا كمجرد فرضية تعبِّر عن احتمال وقوع أمر ما، بل كحقيقة تاريخيَّة حكمت تطور التاريخ في الماضي وســتحكمه في المستقبل. وهكذا راح يعيد بناء «التاريخ كله» بالصورة الَّتي تجعل منه «صدام الحضارات»، الماضي في ذلك والحاضر ســواء، باذلًا كل جهده لحشــد الأمثلــة والوقائع الَّتي تؤيد هــذه «الحقيقــة التاريخيَّة» المزعومة: يختار أمثلة مــن هنا وهناك، ويؤولها تأويــلًا يبتعد بها عن إطارها ويلبسها دلالات لا تحتملها. ثمَّ يكرر المثال الواحد مرات ويقفز ويراوغ، ســلاحه المنطقــي في كل ذلــك «المغالطة» أو «الاســتدلال المغالطي» بالتعبير المنطقي.

والهدف من كل ذلك: التهويــل والتخويف، وإعداد القارئ لتقبل النتيجة وتحمُّــل ما يلزم عنها، وكأنَّ ذلك قــدر لا مفر منه. والنتيجة الَّتي أفصحت عنها المقالة، هي: ضرورة أن يستمر الغرب في تطوير قواه العســكريَّة، وبالتالي ضرورة أن يصرف ما يلزم من الأموال في سبيل ذلك.

لكن خطورة المقالة ليســت فــي النتيجة الَّتي تنتهــي إليها، فدعوة الغرب إلى الحفاظ علــى مركزه وهيمنته، والعمل بكل الوســائل على صيانة مصالحه، أمر مفهوم وعادي.

إنَّ خطورة المقالة تكمن في نظرنا فيما بين «المقدمة» و«النتيجة»، ويشغل كلٌّ منها بضعة أســطر لا غير. أما «بؤرة» أو «قلب» الموضوع

QaradawiBooks.com

ـ بالتعبير الأمريكي ـ فهو «الإسلام» بالدرجة الأولى «والصين» بدرجة أخف قليلًا. ذلك أنَّ صاحب المقالة يركِّز على الإسلام سواء في تحليله «التاريخي»، أو في عرضه لوقائع الحاضر، بينما لا يستحضر الصين إلَّا في حديثه عن اتجاه تطور النمو في الوقت الحاضر بجنوب شرق آسيا.

و«الإسلام» هو الآن، ومنذ عقد من السنين، الشغل الشاغل في الغرب. وما يعنيه ليس «الإسلام» كدين، ولا كحكومات تحكم باسمه. فبالأمس القريب فقط كان الغرب يتخذ من «الإسلام» حليفًا له ضد الشيوعيَّة.

كان ذلك بالأمس القريب، أما اليوم فـ «الإسلام» في نظر الغرب ـ الَّذي يتكلم باسمه هانتنغتون ـ شيء آخر. إنَّه «العدو رقم١»، إن لم يكن اليوم فسيكون كذلك غدًا. لا، بل إنَّه كذلك أمس واليوم وغدًا. فماذا تغيَّر؟ ولماذا هذا الخوف «الجديد» بل «المتجدِّد» من الإسلام؟

يقول الجابري: يمكن القول إنَّ هناك ثابتًا واحدًا أساسيًّا في موقف الغرب، والباقي متغيرات. والموقف من العرب أو من الإسلام أو من الصين أو من اليابان أو من أية دولة أخرى في العالم يتغيَّر دائمًا، وقد يقفز من النقيض إلى النقيض إذا اقتضى ذلك منطق «الثابت». وليس «الثابت» في تحركات الغرب شيئًا آخر غير المصالح، فعندما تمس مصالح الغرب أو يكون هناك ما يتهدَّدها يتغير الموقف.

وفي الختام يقول: الغرب مصالح، ولا شيء غير المصالح. وكل حوار معه أو تفكير ضده لا ينطلق من المعادلة التالية «الغرب = المصالح» إنَّما هو انزلاق وسقوط في شباك الخطاب المغالطي التمويهي السائد في الغرب، والهادف إلى صرف الأنظار عن «المصالح» وتوجيهها

QaradawiBooks.com

إلى الانشغال بما يخيفها، ويقوم مقامها في تعبئة الرأي العام مثل «الحضارة» و«الثقافة» و«الدين» و«الأصولية»[(١)] اهـ.

وأقول للأستاذ الجابري: صحيح أنَّ الغرب تحكمه المصالح قبل كل شيء، ولكن الغرب بالنسبة للإسلام تحكمه ـ مع المصالح ـ عقد قديمة جديدة، هي عقدة الحقد، وعقدة الخوف. الحقد المتوارث من عهد الحروب الصليبيَّة، وربَّما من عهد اليرموك وأجنادين وفتح مصر وشمال أفريقيا، وكلها كانت مسيحية أصبحت إسلاميَّة. وعقدة الخوف من انطلاق المارد الإسلامي مرَّة أخرى. وهذا سرُّ قلقهم من الصحوة الإسلاميَّة، ورصدهم الأموال الطائلة لدراستها، وعملهم على تعويقها، وحديثهم الدائم عن «الخطر الإسلامي»، العدو الجديد بعد زوال الاتِّحاد السوفييتي.

إنَّهم يسمُّون الإسلام «الخطر الأخضر» خطر ظهور «صلاح الدين» من جديد، وهو الخطر المخوِّف رغم ضعف أهله وتفرقهم، وقد زال «الخطر الأحمر» السوفييتي، وتقاربوا مع «الخطر الأصفر» الصيني.

إنَّ هاجس الخوف، مع هاجس الحقد، هما اللذان يؤثران في السياسة الغربيَّة، بل والفكر الغربي دائمًا تجاه الإسلام.

يُقوِّي هذه الهواجس ويؤكدها في عصرنا «البعد الديني» الَّذي برز بوضوح في العقدين الأخيرين في أمريكا، عن طريق «المسيحيَّة الأصولية» المرتبطة بالتوراة، والَّتي تعمل لخدمة الصهيونيَّة وإسرائيل تدينًا، وتعبُّدًا، كما بيَّنت ذلك دراسات علميَّة أكاديمية جادة[(٢)].

---

(١) انظر: قضايا في الفكر المعاصر صـ ١٢٥ ـ ١٢٨.

(٢) راجع: البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني للدكتور يوسف الحسن صـ ١٨٥، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م.

QaradawiBooks.com

وكم نودُّ من صميم أفئدتنا أنْ يتحرَّر الغرب من هذه العقيدة، ويعامل المسلمين كما يعامل سـائر الأمم والقوى في العالم. وإنْ كُنَّا نؤمن أنَّ الغرب ليس نمطًا واحـدًا، ولا صنفًا واحدًا، ففي الغـرب أناس وأفراد منصفون، نرجو أن يتزايدوا يومًا بعد يوم.

* * *

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

موسوعة الأعمال الكاملة
لسماحة الإمام
يوسف القرضاوي

الفهارس العامة

- فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البقرة		
﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾	١١١	١٧٧
﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾	١١٥	٣٠٧
﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ﴾	١٣٤، ١٤١	٢٦٢
﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾	١٣٨	١٤٣
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾	١٤٣	٢١٥
﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾	٢٨٦	٢٦٥
سورة آل عمران		
﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	١٠١	١٤٥
﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	١٠٣	٢٥٢، ٢٧٤، ٢٨٣
﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ﴾	١٠٥	٢٥٢، ٢٨٣
﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾	١١٠	٣٠٤
﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	١٣٧ ـ ١٤٠	٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾	١٤٠	١٣
﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾	١٥٩	٢١٣
﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾	١٦٥	١٦٢
﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾	١٩١	٢٩٧
﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾	١٩٥	١٩٧
سورة المائدة		
﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾	٢	٢٨٣
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾	٣	٩٧
﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾	٥	٢٥٧
﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾	٣٠	٤٧
﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾	٦٢، ٦٣	٤١
﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ﴾	٧٨، ٧٩	٤١
سورة الأنعام		
﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾	٣٨	٢٩٧
﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾	٨٩	١١٢
﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾	١١٤	٨٢
﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾	١٥٣	٢١٦
سورة الأعراف		
﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾	٨٦	٥٩
﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾	١٨١	١١٢، ١٢٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأنفال		
﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾	٢٥	٤٢
﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾	٣٠	١٢٠
﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾	٤٦	٢٥٢، ٢٨٣
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾	٦٥	١٧٨، ٢٢٤
﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٧٣	٢٨٤
سورة التوبة		
﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾	٦٧	٤٣، ١٩٦
﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾	٧١	١٩٦، ٢٢١
سورة يونس		
﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾	٣٢	٩٧
سورة هود		
﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾	١٧	١٧٧
﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾	٨٢، ٨٣	٤٣
سورة يوسف		
﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾	٣٢	٢١٠
﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾	٣٣	٨٦
سورة الرعد		
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾	١١	٣٠٦

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	١٧	١٢٨
﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾	٢٥	٢٦٠
سورة الحجر		
﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾	٧٢	٤٣
سورة النحل		
﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	٨	٢٠
﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾	٦٩	٢٨٥
سورة الإسراء		
﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾	٢٦، ٢٧	٧٧
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾	٧٠	٢٩٤
سورة الكهف		
﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾	١٣	١٢٣، ١٤٨
﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾	٩٥	٢٨٣
سورة مريم		
﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾	٥٩	٢٠٩
سورة الأنبياء		
﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾	١٨	١٢٨
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾	١٠٧	٢١٤، ٢١٦، ٢٩٤، ٣٠٧

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحج		
﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾	٤١	١٩٦
سورة الفرقان		
﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾	١	٢٩٤
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾	٣١	١٢٣
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾	٦٢	١٥
سورة الشعراء		
﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾	١٦٥، ١٦٦	٤٢
سورة النمل		
﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾	٣٤	٦٢
﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾	٦٤	١٧٧
سورة القصص		
﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾	٣٩	٥٤
سورة العنكبوت		
﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾	٤٦	٣١٠
سورة الروم		
﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾	١ ـ ٥	٨، ٢٦٥
سورة الأحزاب		
﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾	٢٣	١١٣

QaradawiBooks.com

الآيـــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾	٣٢	٢٠١
﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾	٣٣	٢٦٢
سورة فاطر		
﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾	٤٣	١٠
سورة يس		
﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾	٤٠	٣٣
سورة ص		
﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۞ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴾	٨٧، ٨٨	٢٩٤
سورة الزمر		
﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾	٢٢	١٧٧
سورة غافر		
﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ ﴾	٢٧	٥٤
سورة الأحقاف		
﴿ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗا ﴾	١٥	٣٤
سورة الحجرات		
﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾	١٠	٢٧٣، ٢٧٤
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾	١٣	١٧٣، ١٨٨، ٢٧٣، ٢٩٥، ٣٠٩
سورة الحديد		
﴿ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾	٢٥	٢١٩

QaradawiBooks.com

الآيــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحشر		
﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾	٧	١٩٢
سورة الصف		
﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾	٤	٢٢٧، ٢٦٧
سورة الطلاق		
﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾	٣	١٥٦
سورة الملك		
﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾	١٤	٩٧
سورة الشمس		
﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾	٧ ـ ١٠	٤١
سورة العصر		
﴿ وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾	١ ـ ٣	٧٤

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

QaradawiBooks.com

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
اتَّقوا الظلم؛ فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة	٢٢٠
«إذا ضُيِّعت الأمانةُ فانتظِرِ الســاعة». قيل: وكيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظِر الساعةَ»	٦١
إذا كان أمراؤكم خيارَكم، وأغنياؤكم سمحاءَكم، وأمركم شورى بينكم	٢١٠
أعطوا الأجير أجره قبل أنْ يَجِفَّ عَرَقُه	٢٢٠
أمر فاطمة بنت قيس: أنْ تقضي عدَّتها في بيت ابن أم مكتوم	٢٠٠
إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سَنَة من يُجدِّد لها دينها	٥، ١١، ٧٨، ١٢٨
إنَّما أنا رحمة مهداة	٢١٤
إنَّما بُعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق	٢١٤
إنَّما بعُثتم ميسِّرين، ولم تبعثوا معسِّرين	٢١٤
إنَّما النساء شقائق الرجال	٢٢١
إياكم والظن، فإنَّ الظن أكذب الحديث	٢٨٩
ب	
بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنَّكم غثاء كغثاء السيل	٦٠، ٢٥٢

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ذ	
ذريَّة بعضها من بعض	١٩٩
ر	
رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد	١٩٩
ع	
على رِسْلِكُما، إنَّها صفيَّة بنت حُيَيٍّ	٢٠١
ف	
فإنَّه أحرى أنْ يُؤْدَم بينهما	١٩٥
«فساد ذات البين» واعتبرها «الحالقة»	٢٥٢
ك	
الكاسيات العاريات، المميلات المائلات، رؤوسهنَّ كأسنمة البُخْت المائلة	٢٠٣
كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى	١٨٨
كونوا عباد الله إخوانًا	٢٧٣
ل	
لا تختلفوا، فإنَّ من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا	٢٥٢
لا تزال طائفةٌ من أُمَّتي قائمين على الحقِّ، لا يضرُّهم مَنْ خالفهم	١٢٨
لا تقُلْ: تَعِسَ الشيطانُ، فإنَّكَ إذا قلتَ: تَعِسَ الشيطانُ، تعاظم الشيطانُ في نفْسه	٣٠٥
لا تمنعوا إماءَ اللهِ مساجدَ الله	١٩٨
لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع	٢٠٢، ٣٠٠
لعن رسولُ الله ﷺ آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه	١٥٤

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
لعن رسولنا الكريم المتشبهات من النساء بالرجال	١٤٦، ٢٠٣
«لوا» تفتح عمل الشيطان	١٥
لولا أنَّ الكلاب أُمَّة من الأمم لأمرت بقتلها	٢٩٧
ليس المؤمنُ الَّذي يبيت شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه	٢٢٠
م	
ما ظهرت الفاحشة في قوم حتَّى يُعمل بها فيهم علانية، إلَّا سلَّط الله عليهم الطاعون	٤٢
المسلم أخو المسلم	٢٧٣
المسلمون يسعى بذمَّتهم أدناهم، ويُجير عليهم أقصاهم، وهم يدٌ على من سواهم	٢٧٣
و	
والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا	٢٦٦
ي	
يا أيُّها الناس، ألا إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ أباكم واحد	٢٩٤
يتبعون سَنَن غيرهم من الأمم، شبرًا بشبر وذراعًا بذراع	٢٠٢، ٣٠٠
يحمل هذا العلم من كلِّ خَلَفٍ عُدُوله، ينفون عنه تحريف الغالين	١١٢، ١٢٩
يوشكُ أن تَداعى عليكم الأممُ من كلِّ أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها	٥

❊ ❊ ❊

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

فهـرس الموضوعات

• **من الدستور الإلٰهي للبشرية** **٤**

• **من مشكاة النبوة الخاتمة** **٥**

• **مـقـدمــة** **٧**

المسلمون والقرن الميلادي ٧

متى يبدأ القرن الجديد؟ ٩

دورنا في الألفيَّة الثانية ١١

هل لنا أمل في الألفيَّة الثالثة؟ ١٣

• **إنجازات البشريَّة وإخفاقاتها في القرن العشرين** **١٧**

❖ **قرن الإنجازات العلميَّة الكبرى** **١٩**

❖ **قرن الحريَّات وحقوق الإنسان** **٢٦**

ملاحظات ثلاث على الحريات في الغرب ٢٨

ازدواجية الغرب في الحقوق والحريات ٢٨

إقامة الكيان الصهيوني المغتصب ٢٩

الحريَّة الشخصيَّة في الغرب معناها التسيُّب ٣١

احترام المرأة في الظاهر لا في الحقيقة ٣٤

QaradawiBooks.com

❖ **قرن انهيار القِيَم الإيمانيَّة والأخلاقيَّة** **٣٧**

الشيوع والإقرار والتقنين ٤٠

خطر فصل العلم والاقتصاد والسياسة عن الأخلاق ٤٤

قدرة الحضارة الغربيَّة على معالجة أخطائها ٤٥

❖ **قرن الحروب والدماء** **٤٧**

قرن الحربين العالميتين ٥٠

الثورة الشيوعيَّة الدمويَّة ٥٤

• **إنجازاتنا في القرن العشرين** **٥٧**

❖ **إنجازاتنا في القرن العشرين** **٥٩**

هل أنجزنا شيئًا في القرن العشرين؟ ٥٩

❖ **التحرُّر من الاستعمار** **٦٢**

تحرير غير كامل ٦٦

الاستعمار الشرقي لا يزال قائمًا ٦٦

الاستعمار الصهيوني ٦٧

الاستعمار الجديد ٦٨

الاستعمار الثقافي ٦٩

الإسلاميون يزرعون والعِلمانيون يحصدون ٧٠

❖ **انتشار التعليم** **٧٢**

❖ **ظهور حركات التجديد والإحياء الإسلامي** **٧٨**

حركة الإخوان المسلمين ٧٩

حركة الجماعة الإسلاميَّة ٨٠

جمعيَّة علماء الجزائر ٨٣

QaradawiBooks.com

حركة النور ٨٥
الحركة الإسلاميَّة الشاملة في تركيا بقيادة نجم الدين أربكان ٨٦
حركة النهضة الإسلاميَّة ٨٦
حركة العدل والإحسان ٨٨
حركة التوحيد والإصلاح ٨٨
حركة المجلس الأعلى للدعوة الإسلاميَّة ٨٨
الحركة الإسلاميَّة في السودان ٨٩
حزب التحرير الإسلامي ٩٠
الحركة السلفيَّة ٩١
جماعة الجهاد والجماعة الإسلاميَّة في مصر ٩٢

❖ **مقاومة التغريب والغزو الفكري ٩٦**
تمسك المسلمين بمرجعيَّة الإسلام خلال القرون ٩٦
الزحف الغربي الحديث على الإسلام وأمته ٩٨
آثار الدعوة إلى التغريب في العالم الإسلامي ١٠٠
النصارى أجهر بالدعوة إلى التغرب الكامل ١٠٣
تهافت دعوة التغريب ١٠٦
خطر التغريب على الحياة الإسلاميَّة ١٠٧
معركة المقاومة للتغريب ١١١
تطور الفكر الإسلامي من التبعيَّة إلى المواجهة ١١٣

❖ **انطلاق الصحوة الإسلاميَّة ١٢١**
أسباب ظهور الصحوة وجذورها ١٢٤
أسباب مزورة للصحوة ١٢٤
هل الصحوة من صنع حاكم عربي؟ ١٢٥

QaradawiBooks.com

حقائق الدين والتاريخ ١٢٧
حركات الإحياء والتجديد والدعوة وأثرها في الصحوة ١٣٠
رجال كان لهم أثرهم في الصحوة لا ينساهم التاريخ........ ١٣١
نوادر البطولة والبذل والثبات ١٣٤
حركات الجهاد ورجالها........ ١٣٥
علماء ودعاة ومُفَكِّرون كان لهم دورهم........ ١٣٥
جماعات ساهمت في الصحوة........ ١٣٩
جماعة الدعوة والتبليغ ١٣٩
الحركة السلفيَّة........ ١٣٩
الجمعيَّة الشرعيَّة ١٤٠
جماعة الجهاد........ ١٤٠
حزب التحرير الإسلامي........ ١٤٠
من ثمار الصحوة........ ١٤١
التنادي بتحكيم الشريعة ١٤١
دولتان للإسلام........ ١٤٢
إحياء الجهاد في سبيل الله ١٤٣
رجعة الشباب إلى الدين ١٤٦
عودة المرأة المسلمة إلى الحجاب ١٤٩
بروز الاقتصاد الإسلامي فكرًا وتطبيقًا........ ١٥٠

• **إخفاقات الأُمَّة خلال القرن العشرين** **١٥٩**

❖ **إخفاقات الأُمَّة خلال القرن العشرين**........ **١٦١**

❖ **ضياع الخلافة**........ **١٦٣**

QaradawiBooks.com

❖ الهزيمة أمام المشروع الصهيوني ١٦٧

❖ الإخفاق في مسيرة التقدُّم والتنمية ١٧١

❖ الإخفاق في التحرُّر من التبعيَّة للغرب ١٧٩

❖ الإخفاق في مجال الشورى والحرِّيَّات العامَّة وحقوق الإنسان ١٨٢

❖ الإخفاق في توحيد الأُمَّة ١٨٦

❖ الإخفاق في تحقيق العدالة الاجتماعيَّة ١٩٢

❖ الإخفاق في مجال قضايا المرأة ١٩٥

❖ الإخفاق في التربية الأخلاقيَّة للأمة ٢٠٧

• **تحدِّيات الأُمَّة في القرن الحادي والعشرين ٢١١**

❖ تحدِّيات الأمة في القرن الحادي والعشرين ٢١٣

تحدِّي الهويَّة ٢١٣

تحدِّي المرجعيَّة ٢١٥

تحدِّي التخلُّف ٢١٧

تحدِّي التنمية الشاملة ٢١٨

تحدِّي العدالة الاجتماعيَّة ٢١٩

تحدِّي المرأة ٢٢٠

تحدِّي النظم الاستبداديَّة ٢٢٢

التحدِّي الإيماني والأخلاقي ٢٢٣

❖ تحدِّيات كبرى ٢٢٦

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **١ ـ التحدِّي الصهيوني ٢٢٧**

أول التحدِّيات وأكبرها ٢٢٨

مقاومة المشروع الصهيوني ٢٢٩

تحدِّي التطبيع ٢٣٠

آفات التطبيع وأخطاره على الأُمَّة في شتَّى جوانبها ٢٣١

١ ـ في المجال الفكري والنفسي ٢٣٢

٢ ـ في الجانب السياسي والإعلامي ٢٣٢

٣ ـ في الجانب الاقتصادي ٢٣٣

٤ ـ في المجال العسكري ٢٣٥

٥ ـ في المجال الأمني ٢٣٥

٦ ـ في الجانب التربوي ٢٣٦

٧ ـ في الجانب الأخلاقي ٢٣٦

٨ ـ الأخطار على الحركات الإسلاميَّة ٢٣٧

٩ ـ الأخطار على الأمن القومي العربي والإسلامي ٢٣٧

لونان خطران من التطبيع ٢٣٨

التطبيع الاقتصادي ٢٣٨

التطبيع الثقافي وكيف نواجهه؟ ٢٤٠

أهميَّة التجربة المصريَّة في رفض التطبيع ٢٤١

كيف نواجه التطبيع والتدمير الثقافي؟ ٢٤٥

١ ـ المواريث الثقافيَّة للأمة هي السد المنيع ٢٤٥

٢ ـ ثقافة المواجهة لا الانغلاق ٢٤٦

QaradawiBooks.com

٣ ـ ثقافة الوحدة مع التنوع ٢٤٧
٤ ـ ثقافة التفاعل والتجميع لا التفريق ٢٤٧
٥ ـ مواجهة الاختراق الثقافي ٢٤٩
٦ ـ الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة للجماهير ٢٥٠

❖ **٢ ـ تحدِّي التجزئة والتفكيك ٢٥١**

ضرورة تجميع كلِّ القوى للمواجهة والتصدِّي ٢٥٦
تجميع كلِّ المواطنين مسلمين ومسيحيِّين ٢٥٧
تجميع كل المسلمين من سُنَّة وشيعة ٢٦٠
تجميع كل الاتجاهات إسلاميَّة وقوميَّة ٢٦٧
تجميع كل القوميات عربًا وغير عرب ٢٧١
تجميع قوى الأُمَّة الإسلاميَّة في العالم ٢٧٣
استراتيجيَّة عربيَّة تجاه دائرة الحضارة الإسلاميَّة ٢٧٥
تساؤلات حيويَّة ٢٧٦
أفكار ٢٧٧
تجميع كل فصائل الصحوة الإسلاميَّة ٢٨١
رفع الخلاف غير ممكن ٢٨٤
اختلاف الاجتهادات رحمة بالأمة ٢٨٦
رأيي صواب يحتمل الخطأ ٢٨٧
إحسان الظن بالآخرين ٢٨٩

❖ **٣ ـ تحدِّي العولمة ٢٩١**

بين العولمة والعالميَّة ٢٩٤

QaradawiBooks.com

❖ **موقفنا من العولمة** **٣٠٠**
ثلاثة مواقف من العولمة ٣٠٠
خلاصة موقفنا من العولمة ٣٠١
إعادة التوعية للأُمَّة ٣٠٤
ضرورة الدين في حياتنا ٣٠٦
نحن ـ المسلمين ـ والغرب ٣٠٧
مشكلة الغرب والإسلام ٣٠٧
لماذا ننفتح على الغرب؟ ٣٠٨
ماذا نطلب من الغرب؟ ٣١٠

• **خـاتـمة** **٣١٣**

❖ **نهاية التاريخ وصدام الحضارات** **٣١٣**
نهاية التاريخ ٣١٣
صدام الحضارات ٣١٦
أهو صدام حضارات أم صدام مصالح أم صدام أديان؟ ٣٢١

• **فهرس الآيات القرآنية الكريمة** **٣٢٩**

• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** **٣٣٧**

• **فهرس الموضوعات** **٣٤١**

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس كتب المجلد

١١٢ـ ثقافة الداعية ٥

١١٣ـ الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم ٢١١

١١٤ـ أمتنا بين قرنين ٣٢٥

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية